عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"

أ.د. فؤاد البنا

دار النيل

عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"

Copyright © 2012 Dar al-Nile
Copyright © 2012 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-485-7

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah Bağcılar Cad No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"

أ.د. فؤاد البنا

دار النيل

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

مقدمة ١١
أهداف الكتاب ١٧
المنهج المستخدم ١٩
تقسيم الكتاب ٢٠

الفصل الأول
في رحاب حكيم الملَّة وخادم الأُمة
فتح الله كولن

أولاً: قبسات من شمس تركيا التي لا تغيب ٢٥
ثانيًا: تدابيرُ القدَر في حياة خادمِ المسلمين الأَبَرّ ٣٣
١-فتح الله كولن وتطابق الاسم مع المسمى ٣٤
٢-اقتباس أشعّة الضياء من أسماء الأقارب ٣٦
٣-القفز على "الزمان" والتوحد مع "المكان" ٣٨
٤-"شروق" شمس كولن من "غرب" تركيا ٤٠
٥-العيّش في كَنَفِ الشَّجَر والتتلْمُذ عليها ٤٤
٦-التتلمذ على أيدي الأعمال والحوادث ٤٥

٧-تقدير الحرية في السجون وتقديسها ٤٧
ثالثًا: "كتائب" الأفكار في "كتب" فتح الله كُولن ٤٨

الفصل الثاني
سمات الحكمة "الكولنية" في التجديد الحضاري

أولاً: الانطلاق من الإسلام والدعوة العمَلية إلى مقاصده ٥٧
ثانيًا: التجدُّد بالإيمان وتجديد الحياة به ٦٠
ثالثًا: النزعة العملية وتحرّي سبل الفاعلية ٦٢
رابعًا: الإصلاحية الأفقية التحتية ٦٥
خامسًا: الخدمة الاجتماعية والجهاد الأبيض ٦٧
سادسًا: العروج الحضاري بجناحَي العقل والقلب ٧١
سابعًا: التوازن بين الأزمنة الثلاثة ٧٤
ثامنًا: الوحدوية والحسّ الأخوي ٧٦

الفصل الثالث
بوصلة الحكمة
والسير في دروب الفتوحات الناعمة

أولاً: فتح الله كولن: حكيم الفكر الإسلامي المعاصر ٨٣
١-نجمان في وطن واحد ٨٣
٢-الطريق إلى الحكمة ٨٤
٣-الحكيم الربّاني ٨٥
٤-حكمة كولن في الموازنة بين العقل والروح ٨٧

٥-كولن في سدرة الفاعلية ٨٨
٦-تيار الخدمة العريض ٨٩
٧-عَوْلمةُ الخدمة وأنْسَنَةُ العولمة ٩٠
ثانيًا: كُولن: "فتحُ الله" للفكر الإسلامي المعاصر ٩١
١-السقوط المدوي والزلزال المدمر ٩٢
٢-موت وحياة ٩٣
٣-"الحكمة" هي الطريق إلى "الخدمة" ٩٤
٤-الفتح التربوي ٩٧
٥-محمد الفاتح ٩٨
٦-الفتح الاجتماعي ١٠٠
٧-ساموراي تركيا ١٠١
٨-الفتح الثقافي والإعلامي ١٠٢
٩-الجسر المعلّق بين تركيا والوطن العربي ١٠٤
١٠-الوصول إلى الذروة ١٠٦
١١-العالمية في مواجهة العولمة ١٠٧
ثالثًا: "القطمير".. والدفع بتركيا نحو المستقبل ١٠٨
١-تواضع السُّنبلة ١٠٩
٢-النزول إلى الميدان ١١١
٣-جامعة "فتح الله كولن" ١١٢
٤-مُعَلِّم العصر ومربّي "الجيل الذهبي" ١١٣
٥-أستاذ العبور إلى المستقبل ١١٤

الفصل الرابع
الإبراهيميون الجدد والهجرة إلى الخدمة

أولاً: الانغماس في تِبْر الخدمة ١٢١

ثانيًا: الانغراس في ثغور التربية والتعليم ١٢٨

ثالثًا: التفاني في الدعوة والجهاد الأبيض ١٣١

رابعًا: اعتماد منهج الحوار في سبيل الحق والخلق ١٣٥

خامسًا: التحلّي بالفضائل العابرة للقلوب ١٣٩

سادسًا: التغرُّب والرحلة لخدمة الخلق ١٤٥

١- الخدمات التعليمية ١٤٧

٢- الخدمات الإعلامية ١٤٨

٣- الخدمات الثقافية ١٤٩

٤- الخدمات الاقتصادية ١٤٩

٥- الخدمات الإغاثية ١٥٠

سابعًا: الترقي في معارج الأُسْوة الحسنة ١٥١

ثامنًا: النضج الفكري والتأهُّل لعَطِيَّة الرشد ١٥٥

تاسعًا: عشق الوطن وحب الناس ١٥٨

عاشرًا: تحوُّل نار العلمانية إلى برد وسلام ١٦١

١- التخلص من الشوائب، وتقارب الذَّرّات ١٦٢

٢- اكتشاف الذات وانتزاع المستقبل ١٦٣

٣- تقوية جهاز المناعة وتعظيم الفاعلية ١٦٤

٤- تمتين البناء ١٦٥

٥- تركيز الطاقات وتحديد الأولويات ١٦٦
٦- تنزيل اللطف الإلهي ١٦٧

الفصل الخامس
كولن وصياغة فقه الائتلاف

أولاً: أسس فقه الائتلاف ١٧١
١- الإيمان الجامع بين العلم والإخلاص ١٧١
٢- الأُخُوّة بدوائرها الأربع ١٧٦
الدائرة الأولى: الأخوة الوطنية ١٧٧
الدائرة الثانية: الأُخُوَّة القومية ١٧٨
الدائرة الثالثة: الأخوَّة الإسلامية ١٧٩
الدائرة الرابعة: الأخوّة الإنسانية ١٨١
٣- الإيجابية الفاعلة ١٨٢
٤- الاعتراف بحق الآخر في التميُّز والاختلاف ١٨٦
٥- الدوران حول المقاصد وتجفيف منابع الفُرْقة ١٨٩
ثانيًا: وسائل تجسيد فقه الائتلاف ١٩٥
١- التحلي بآداب الحوار والخلاف ١٩٥
٢- الامتناع عن ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة ١٩٩
٣- التخطيط الكلّي والتدرج المرحلي ٢٠٣
٤- تركيز طاقة النقد على الذات وإعذار الآخرين ٢٠٦
٥- التلطف والرحمة والحب ٢١٠

ملحق
تركيا بعيون يمنية

لا وقت للنوم في تركيا ٢١٧
١- الوتد أعظم من الجبل ٢١٨
٢- الجسر المعلّق بين تركيا والوطن العربي ٢١٨
٣- الليل سبع ساعات ٢٢٠
٤- تيار "مدني" يعيش الفترة "المكية" ٢٢١
٥- تبييض وجه تركيا ٢٢٣
٦-أكبر متحف في العالم ٢٢٥
المشروع الحضاري للخدمة في "ورشة" ٢٢٨
١- قطرات من أمطار الخدمة ٢٢٨
٢- كولن.. مغناطيس الخدمة في تركيا ٢٣٢
٣- صُنَّاع الروائع العملية ٢٣٣
٤- دهشة بلا حدود ٢٣٦
٥- كولن يُطلق: "هل مِن مُغيث؟!" ٢٣٧
٦- عولمة الحوار ٢٣٩
مسك الخدمة ٢٤١
لِنَجْـمِ الدُّعَـاةِ ٢٤٤

مقدمة

الحمد لله الهادي إلى سواء السبيل، حيث أَخْرَجَنَا من دياجير الظلام إلى أضواء الهدى، وأَنْقَذَنا من أمواج الضلال إلى أنوار العرفان، وحرَّرَنا من أغلال الأَسْر والجهل والفقر، وأَطْلَقَنا في فضاءات الحرية والعلم والاستغناء.

والصلاة والسلام على نبيّ المرحمة الذي تلقّى القول الثقيل بكل ما فيه من هدايات الخالق للخلق، فأحسن تحَمُّلَه وتمثُّله وتنْزيله في الحياة، وأقام به حضارة أشاعت أنوار السماء في كل جنبات الأرض، وصارت ملء سمع الدنيا وبصرها:

املأ الأرض يا محمد نورًا واغمرْ الناسَ حكمةً والدهورا
أنتَ أنشأتَ للنفوسِ حياةً غيَّرتَ كلَّ كائنٍ تغييرًا

أما بعد،

لقد ظلّت تركيا جوهرةً أخَّاذةً في تاج أمّة المسلمين، حيث استمرّت قرونًا من عصور الضياء وهي تقود خير أمّة أُخرجت للناس، مما حدا بالأعداء للتركيز عليها في "استراتيجيتهم" الحربية ضدّ المسلمين، ولما كانت الدولة العثمانية من القوة المادّية بمكان، بحيث عجزت أوربا عن مواجهتها عسكريًّا، فقد عمد كبراؤها إلى الغزو الفكري والثقافي المتلفع بأَرْدية ناعمة والمتقنّع بأقنعة إنسانية خادعة. وكان العمل التربوي الهادئ أخطر ما في هذه الحرب الباردة؛ لأنه جمع بين مخادعة الثعلب ونعومة

الأفعى؛ فقد زرع التعليم الغربي أفكار "الوهن" في عقول الأتراك، وغرس مشاعر "الهوان" في قلوبهم، وهذا ما لم يفطن له إلاّ قلّة من المصلحين والعلماء بعد انتشار مئات المدارس كالسرطان في أقاليم الدولة العثمانية -ولاسيما في الأناضول وبلاد الشام ومصر- ونجحت هذه المدارس في تخريج أجيال تركية بأجسامها وأسمائها، لكنها غربيّة بعقولها وقلوبها، وكانت أكثر ردود العلماء المسلمين على هذا التحدّي انفعاليةً وجزئيةً ناقصة.

وبسبب هذا التعليم قُدَّ قميص الخلافة العثمانية من قُبُل ومن دُبُر، وأُتي عن يمين وشمال، ونجح في تفريق المسلمين قِددًا، وتمزيقهم شِيَعًا، بل صار أشبه بالحامض الكيميائي، إذ أذاب أكثر عناصر الفاعلية في كيان هذه الأمّة، حتى صارت غثاءً أحوى.!

وفي منتصف القرن العشرين وُلد في قلب تركيا ابنها البار، سليل الدوحة النبوية وحفيد الصحابة الكرام، وهو الأستاذ محمد فتح الله كولن، الذي شَرَّحَ الداء وشرَحَ له الدواء المستخرج من صيدلية القرآن والممزوج بعناصر دقيقة من قراءته الموسوعية المستبصرة للواقع.

وكان جوهر هذا الدواء هو العمل التربوي المازج بين محكمات الوحي ومعطيات الواقع، فوفَّقه الله للتوصل إلى الإكسير الذي يُمكِّنه من إعادة الشباب والنضارة إلى هذه الأمّة.

ومن الأفراد الذين استحياهم هذا الإكسير، كوَّن كولن كتائب الخدمة التربوية، حيث انتشرت بلطفٍ كالْجانّ، وتكاثرت بهدوءٍ كالمرجان، حتى استوعبت أنحاء تركيا وكثيرًا من المناطق في أكثر من مائة وستّين دولة في العالم.

وكانت المواجهات الفكرية التربوية بين المنظومتين أشبه بمعارك بَدْرية كما يُشبِّهها كولن، غير أن قطرة دم واحدة لم تُسفك فيها. ورغم كل

شيء فقد تحقّقت انتصارات كبيرة وعظيمة، وأثبتت السنوات والحوادث أن كتائب الـ"فتح" التربوي عندما تتحرك فيومئذ يخسر المبطلون، وكما قال الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بَطَلَ السحرُ والساحرُ

لقد اقترب الإنجاز من الإعجاز، إذا قسْناه بالحقائق والقوانين المادّية، حيث أقام كولن صروح الروح بعد دمار، وأيقظ القلوب الضارعة بعد موات، وعبَّد أمام الأتراك "طرق الإرشاد في الفكر والحياة"، واستشرف "ملامح الجيل المرتقب" بإعداده له بالفعل، حيث عمل في تربيته لتلاميذه على أن يكونوا كالصحابة أنصارًا ومهاجرين، إذ دفع بهم إلى "الهجرة" نحو الوحي، وجعلهم "أنصارًا" للعقل.

وفي سماء الوجدان أطلق أضواءه المستمدة من محطّات السُّوَر القرآنية، فولَّد منها أضواء كاشفة، وخَصَّ الدروب الحالكة باهتمام أكبر، حيث وَضَعَ "موازين وأضواء على الطريق"، كل ذلك بغرض استنارة المؤمنين، ووصولهم إلى مقاصد الإسلام في عمارة الحياة سالمين غانمين.

لقد أرجع للأرواح ترانيمها، وللقلوب أشجانها، وأعاد الاعتبار للنور الخالد محمد ﷺ بعد أن جَفتْه العلْمانية الغالية، وأقنع شعْبه بأن رسول ﷺ مفخرتهم الأزليّة، بل مفخرة الإنسانية جمعاء.

لم يعرف كولن الكلل أو الملل في سعيه الدؤوب من أجل إعادة أُمّته إلى حضن الشمس ومتْن النور وإلى قلب العلياء وذرْوة المجد، ومن أجل إيقاظ مفردات العبقرية الكامنة في قلب هذا الشعب الذي تَشَرَّف بالسكن في أرض زُمُرُّدِيَّةٍ تكتنِز الكثير من العبقريات بين جنباتها، ومنها العبقرية الجغرافية، حيث تقع في قلب الحضارات وملتقى العالم،

عند مجمع البحرين: الأبيض والأسود، وبالمناسبة لا أدري كيف لبحرٍ يُطل عليه شعبٌ "استضاء" بالقرآن، و"استنار" برسائل النور للنورسي، وامتطى خيول التمكين النورانية المنبثقة عن كتائب كولن الفكرية ودفقاته الروحية، وبفضلها أصبح هذا الشعب فاعلاً، كيف يروق للجغرافيّين أن يستمروا في وصف ذلك البحر بـ"الأسود"؟!!.

إنه "فتحٌ" من الله ونصرٌ مبينٌ للفكر الإسلامي المعاصر، لأنه صنيعة القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، وكولن هو إحدى عجائب القرآن؛ فقد دَرَسَ القرآن ودَرَّسَه، وتعلَّم الفرقان وعلَّمه، فاعتلى بمعراج التدبر صهوة العلم، وارتفع بِبُراق الخشوع فوق غمام الإخلاص، وبهذا وذاك امتلك جناحي الصعود إلى ذروة الربانية: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عِمْرَان:٧٩). وصار من أهل الله وخاصّته كما نحسبه، وكما تنطق منجزاتُه ومشاريعه وبَصَماته في دائرتي الفكر والفعل، بعد أن انطلق من منهج الله إلى الله ومن أجل الله.

ولا يذهبنّ بالُ البعض إلى تصور أنّ كولن مِن أهل الروحانية المنعزلة، فقد انْطلق من فقهٍ عميق بهذا الدين، وهو يدرك في هذا الإطار أن الله يكون حيث يوجد الضعفاء والمحتاجون من خلقه، وهذا هو الدرب الذي عَرَجَ من خلاله إلى مرضاة ربّه.

وقد بدأ السير في طريق "الصعود" نحو القمّة بـ"النزول" إلى المجتمع، ولم يبق أبدًا في أبراج عاجية تحت أيّ ظرف، ولم ينظر إلى الناس من عَلٍ، وإنما نزل إليهم بروح المشفق وشغف المحبّ، منكرًا ذاته، جاحدًا حقوق نفسه، وهذا ما ضخَّم ذاته عند الناس.

ولم يكُفّ عن التنقّل بين أنْحاء تركيا، حيث طاف في مدنها وتجوَّل

في كثير من قراها، وكان في رحلاته يدافع أسوأ الظروف، حيث كابَد الجوع والعطش، وجاهد السهر والسقم، وذاق آلام الحرّ والقرّ. وفي حركاته وسكناته عامةً ما فتئ يستزرع "الخمائل" ويستأصل "الفتائل"، ينشر الخِصْبَ ويُواجه الجَدْبَ، يُوزّع الحُبَّ ويحاصر الكراهية، يُشيع "الائتلاف" ويحارب "الاختلاف"، يربط "حبال" الودّ ويقطع "حبائل" الشتات.

إنه صنَّاع ماهر، فقد أجاد صناعة "الشّموع" التي أضاءت دروب الناس الحالكة، وحذّر من "الشمّاعات" التي يعلق الناس عليها أخطاءهم، حيث جفّف منابع الثقافة التبريرية، وفَعّل الفكر النقدي، وأطلق مشاعرالالتفات إلى الذات وتحمُّل المسؤوليّة.

وهو مع ذلك طبيب نطاسي، امتلك بلْسم الجروح وإكسير الحياة، ونجح بجدارة في معالجة الصُّداع الفكري، والسّكتة القلبية، و"الأيدز" الثقافي، والحمَّى الاجتماعية، والرُّعاش الاقتصادي. وبذل جهودًا جبّارة لاستئصال أورام الكبر والتّضخم، وقتل بلهارسيا الكذب، وأميبيا النفاق، وجارديا السلبية، وشريطية الأثرة.

ولم يتأتّ له ذلك كلّه إلا لأنّ الله حباه بقدْرة هائلة على اختراق العقول واقتحام القلوب، ومن ذلك امتلاكه للسانٍ أعذب من الماء، وأحلى من العسل، وأشجى من الناي. ومن العجيب أن لقبه "كولن" (الضحَّاك)، مع أنه كثير البكاء، شديد الحساسية، مرهف الحس، عاطفي المزاج رقيق الطبع، غزير الدمع. فكمْ بكى وأبكى، وكم نجحت دموعُه "الحارَّة" في "إشعال" شموع النفوس، و"إضاءة" مصابيح العقول، وإذابة ران القلوب.. وكم صارت دموعه سيلاً جرارًا جرف -بقوة الله وبركة الإخلاص- أَرْكمةً من الشُّحِّ في نفوس أفواج من الناس.

وفي ذات سياق التأثير على الناس وإعادة صياغتهم وفق مقاصد الإسلام، امتلك مقدرة فائقة على الرسم باليراع والتصوير بالقلم؛ فقد رسم صوَرًا قلمية للعديد من الرؤى الشديدة التعقيد والتجريد، وبدا تفوقه الساحق في تشبيه الخفيّ بالجليّ، والشارد بالشاهد، عبر قلمٍ عبقريٍّ نادر الوجود، مَزَج مدادُه بين الغزارة والعمق، وجَمَع صاحبُه بين إقناع المفكّر وإمتاع الأديب، وكذا بين استنارة العالم وحرارة الداعية.

وفي الشِّعاب الصخرية الصعبة التي نحَتَها بأظافره ليشقّ دروب الخدمة، استطاع استنقاذ عشرات الآلاف من الشباب من بين مخالب الذئاب الشيطانية، واسْتَمْحَضَ أكثرهم للخدمة الربّانية، فكانوا رجالاً كالجبال، وجمعوا في تركيبتهم بين نعومة "الحرير" وصلابة "الحديد"، حيث تهتزّ الأرض ولا يهتزّون، وتتغيّر الدنيا ولا يتغيّرون، ولو تزحزحت الجبال ما تزحزحوا قيد أنملة.

إن نعمة الله جزيلة، ودَور كولن مقدّر، في بناء الجيل الجديد من أبناء تركيا؛ فقد هُدي خلال العقود الأخيرة الكثيرُ من الشباب إلى الطيب من القول والفعل. ورغم أن ذئاب الفكر الشاذ ائتمروا بهؤلاء الشباب وتآمروا عليهم في الدروب الضيّقة والمنعطفات الخطيرة، إلاّ أنهم ازدادوا قوّة، وازدادت جذورهم غوصًا في أعماق الأرض الطيّبة، لأنهم أنفع للناس، وصدق المولى ﷻ حينما قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(الرَّعْد:١٧).

هذا هو لبّ العبقرية التي تشرّفَتْ بالالتصاق بكولن كصفة لازمة، فلقد نجح بامتياز في تحويل الأحجار الصلدة إلى أحجار كريمة، وفي تغييرالقلوب القاسية إلى قلوب خاشعة ضارعة، وصنع من الأفراد

المتقزّمين قاماتٍ فارعة، وجعل من الأشباح الخاوية أرواحًا مكتنزة بكل قيم الخير والشرف والسلم والسموّ، وصار هؤلاء نوادر في الشغف والحب لخلق الله، ونوابغ في التقرّب إليه تعالى بخدمة خلْقه، وعشق إيصال الخير إليهم.

وهكذا، استمر كولن سنين عددًا وهو يُدرِّس ويُعلِّم، يدعو ويعِظ، يربّي ويُزَكّي، يُفكِّر ويُدبّر، يبني ويُنجز، حتى تبَيَّن للأتراك الرُّشْدُ من الغيّ، وتَبَيَّنَ لهم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر، فجْر تركيا الحضاري المنشود الذي بَزَغَ في هذه الأثناء:

يا موكبَ الفجر هل تخبو مواكبُنا إنـي لأَلْمحُهـا مـوّارةَ الحمـمِ
هـا ألمحُ الليلَ قـد حانت نهايتُه لا يشرقُ الفجرُ إلا في دجى الألمِ

ولأن كولن بكلّ هذا التألُّق وَتَحُفُّهُ مواكبُ الضياء في بلد شقيق من أهمّ البلدان بالنسبة للوطن العربي، فإننا معاشر العرب نستحقّ أن نتعرف على هذا العملاق، فقد لاحظتُ أن كثيرين من أبناء جلدتنا لا يعرفون عنه شيئًا أو يعرفون القليل مما لا يُسمن ولا يُغني من جهل.

أهداف الكتاب

يمكن إبراز أهداف هذا الكتاب في النقاط الآتية:

١-التعريف بهذه الشخصية العبقرية ودورها في تأسيس وقيادة تيار الخدمة العظيم في الشقيقة تركيا، وهو -أيْ تيار الخدمة- أحد أجنحة الإقلاع الحضاري لتركيا الراهنة، إن لم يكن هو "الدينامو".

٢-توفير قدر من المعرفة والقراءة التحليلية لتجربة غنية بالخبرات، يمكن أن تشكّل رافدًا هامًّا من روافد المعرفة والخبرة الضروريتين

للحركات الإسلامية في الوطن العربي بعد عقود من المدّ والجَزْر، نتيجة كثرة العقبات والمصاعب الذاتية والموضوعية.

٣-لفْت الأنظار إلى أهمّية التغيير التحتي الذي ينطلق من قاع المجتمعات، وإبراز دور الفكر الرشيد والتربية المتوازنة في تَمتين صروح المشاريع والبُنى، خاصةً وأن أكثر الحركات الإسلامية في وطننا العربي قد انجرفت إلى العمل السياسي تاركةً الفكر والتربية في الهامش، ومن المتوقّع أن تزداد هذه المعضلة أكثر بعد "الربيع العربي" الذي أسقط عددًا من أعتى أنظمة الاستبداد، حيث سترتفع الأصوات الصاخبة لأهل العمل السياسي حتى تصُمّ الآذان، إن لم تقم هذه الحركات بمراجعات شاملة وتمارس صورًا من النقد الذاتي العريض.

وسيزيد من الحاجة إلى خِبرة هذه التجربة أن عددًا كبيرًا من الثوار في بلدان الربيع العربي انخرطوا في هذه الثورات كردِّ فعل على ضغوط سطوة الاستبداد وميراث الفساد الثقيل، بجانب التعبئة العاطفية التي انطلقت من المساجد والمعابد، والساحات والشوارع، ووسائل الإعلام، ولاسيما القنوات الفضائية ومواقع الانترنت.

وهذا يعني أن كثيرًا من هؤلاء الشباب لم ينضجوا فكريًّا، وبالتالي لا يدركون حجم ميراث التخلّف، ولا دور الفكر والثقافة في محاربته، وهم يظنّون بعاطفية شديدة أن التغيير السياسي كفيل بتغيير كل الأوضاع المنحرفة خلال فترة وجيزة. وعندما يلمسون حجم المشاكل والموانع التي تنتصب أمام تحقيق أهداف التغيير الشامل، فسيتسلّل إليهم الإحباط، وربما اندفع بعضهم بيأس إلى الشوارع والساحات للتظاهر والاعتصام، مما يهدد بظهور صور من الفوضى التي لن تزيد طين التخلُّف إلا بِلَّةً،

وستزيد كُلفة الخروج من التيه.

إنني أزعم من خبرتي المتواضعة أن شخصيات كثير من الشباب الثائر تعتمل فيها العديد من أوجُه الخلل الفكري والتربوي، وتبرز في بناها الفكرية وصروحها التربوية العديد من الفتوق وبعض الثغرات، وقد لاحظتُها في أوساط هؤلاء حتى وهم في ساحات الثورة وفي قلب الدوّامات السلطوية المسلَّطة عليهم.

وهذا كله يحتاج إلى معالجة جادة تنطلق من مناهج سَوِيَّة وخبرات ذكية. وتيار "الخدمة" يمتلك منجمًا ضخمًا من هذه الخبرات الثرية، كيف لا ومُؤسِّسُهُ هو نجم الحكمة ونبراس الخدمة، وصاحب الباع الكبير والتجربة الفريدة والخبرة الثرية، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(فاطر:١٤).

المنهج المستخدم

استثمر مؤلف هذا الكتاب إمكانات المنهجين: الوصفي والتحليلي في معالجة قضاياه وموضوعاته، لكنه لم يستطع أن يكبح جماح إعجابه الشديد بهذا الرجل العملاق.

الجدير بالذكر أن بعض موضوعات الكتاب، كُتبت في مناسبات مختلفة، وفي ظروف متباينة، ونُشر القليل منها في وسائل مختلفة، ولهذا قد يلاحظ القارئ شيئًا من الاختلاف في الأسلوب، وربما وقع على بعض المفردات المكررة، لكن أكثر مواد الكتاب كُتبت دفعة واحدة، وتولى المؤلف مراجعة الموضوعات السابقة وتشذيبها حتى تنسجم مع بعضها وتأتلف في كتاب واحد، بصورة متكاملة ومتناغمة، وأتمنى أن يكون هذا الهدف قد تحقق.

تقسيم الكتاب

يتألف هذا الكتاب من خمسة فصول، وهذه عناوينها:

الفصل الأول: في رحاب حكيم الملّة وخادم الأُمّة كُولَن: حاول هذا الفصل اقتباس بعض الأنوار من شمس تركيا التي لا تغيب، بالمرور على بعض المحطّات في حياة كولن. مع إيلاء اهتمام خاص بتدابير القدر التي أوجدت الكثير من الموافقات في حياة هذا الرجل الاستثنائي، واختُتم هذا الفصل بالحديث عن "كتائب الأفكار في كتب كولن".

الفصل الثاني: سمات الحكمة "الكولَنِية" في التجديد الحضاري: استعرض هذا الفصل السمات البارزة في تجديد كُولَن، وهي ثمان: الانطلاق من الإسلام والدعوة العملية إلى مقاصده، التجَدُّد بالإيمان وتجديد الحياة به، النّزعة العملية وتحري سبل الفاعلية، الإصلاحية التحتية الأفقية، الخدمة الاجتماعية والجهاد الأبيض، العروج الحضاري بجناحي العقل والقلب، التوازن بين الأزمنة الثلاثة، الوحدوية والحسّ الأخوي.

الفصل الثالث: بوصلة الحكمة والسير في دروب الفتوحات الناعمة: ناقش هذا الفصل رؤى كُولَن في أهمّ جوانب الحياة والتي غمسها بعَسْجَد الحكمة، مما أهَّله ليُكتَب اسمُه بماء الذهب كحكيمٍ للفكر الإسلامي المعاصر، وجَسَّد اسمه: "فتح الله" في واقع الفكر الإسلامي المعاصر الذي أهدى له كولن الكثير من المنجزات حتى صار "فتح الله" المبين له بحق وحقيقة. وبجانب ذلك أبرز هذا الفصل كيفية مساهمة هذا الرجل في دَفْع تركيا نحو المستقبل رغم تضاؤله الشديد وتواضعه الأكيد، مما أعطاه كل هذا الزخم والتأثير المنقطعي النظير.

الفصل الرابع: الإبراهيميّون الجُدُد والهجرة إلى الخدمة: تتبَّع هذا

الفصل أوجُه الشبه بين خليل الله إبراهيم عليه السلام وتيار "الْخِدْمَة"، وهي عشرة أوْجُه: الانغماس في تِبْرِ الخدمة، الانغراس في التربية والتعليم، التفاني في الدعوة، المناظرة والجدل في سبيل الحق وخدمة الخلق، التحلّي بالفضائل العابرة للقلوب، التغَرُّب والرحلة لخدمة الخلق، الترقّي في معراج الأسوة الحسنة، النضج الفكري والتأهل لنيل عطية الرشد، عشق الوطن وحب الناس، وأخيرًا تحوُّل النار إلى برد وسلام.

الفصل الخامس: كولن وصياغة فقه الائتلاف: اجتهد هذا الفصل في إبراز اهتمام كولن بفقه الائتلاف، من خلال شقّين؛ الأول: توضيح الأسس التي أقام عليها فقهه في الائتلاف، وهي خمسة: الإيمان الجامع بين العلم والإخلاص، الأخوة بدوائرها الأربع، الإيجابية الفاعلة، الاعتراف بحق الآخر في التميُّز والاختلاف، الدوران حول المقاصد وتجفيف منابع الفُرْقة. أما الشق الآخر لهذا الفقه فهو الأسس العملية التي تُجسِّد فقه الائتلاف في الواقع، وهي خمس أيضًا: التحلّي بآداب الحوار والاختلاف، الامتناع عن ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، التخطيط الكلّي والتدرج المرحلي، تركيز طاقة النقد على الذات وإعذار الآخرين، التلطّف والرحمة والحب.

هذا هو جهد المقل بين يدي شخصية كبرى ذابت -تكليفًا لا تشريفًا- في مشروع تيّار كامل، وبقدر ما تستحق هذه الشخصية العبقرية الكثير من الدراسات والبحوث حولها، فإننا -نحن العرب- نستحق هذه الدراسة أكثر؛ لأننا أحوج ما نكون إلى التجارب الصادقة التي خاضتها والخبرات الناضجة التي اكتنزتها.

أسأل الله أن يوفقني لتحقيق هذا الهدف وأن يأجرني عليه، وإن قصَّرتُ

أو فرَّطت فأسأله تعالى المغفرة والعفو وأن لا أُحرم في الحد الأدنى من أجر المجتهد المخطئ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

د. فؤاد البنا

مدينة تعز / اليمن

١٥ صفر ١٤٣٣ الموافق ٩ يناير ٢٠١٢.

الفصل الأول
في رحاب حكيم الملَّة وخادم الأُمة
فتح الله كولن

- أولا: قبسات من شمس تركيا التي لا تغيب
- ثانيا: تدابير القدر في حياة خادم المسلمين الأبرّ
- ثالثا: "كتائب" الأفكار في "كتب" كولن

أولاً: قبسات من شمس تركيا التي لا تغيب

منذ أن ظهر فتح الله كولن وقطاره في حركة لا تهدأ، وفي تقدم لا يتوقف، حتى إنه في زحمة الأسفار نسي أن يتزوج، وسنكتفي هنا بتسجيل ما بدا لنا بأنه أهمّ المحطّات في حياة هذا الرجل العملاق:

• ولد محمد فتح الله كولن في ١١ نوفمبر ١٩٣٨ [١] من أسرة

---

[١] من المفيد تسجيل ما يلي حول تاريخ ميلاد الأستاذ فتح الله كولن نظرا لورود تواريخ مختلفة في بعض المصادر قد توقع القارئ في حالة من اللبس، ولعل هذا التوضيح يزيل اللبس الموجود حول هذا الموضوع. لقد ولد الأستاذ فتح الله كولن يوم ١١ من شهر نوفمبر ١٩٣٨، فذهب والده رامز أفندي إلى إدارة تسجيل المواليد ليسجله، وكان ذلك في عهد حكم الحزب الواحد حيث سيادة الفكر السلطوي العلماني مستحكمة. وما أن سمع الموظف باسم "محمد فتح الله" حتى ثار محتدا وقال "ممنوع تسجيل هذا الاسم". فغضب الوالد وعاد إلى قريته خاوي اليدين. بعد عامين ونصف ولد لرامز أفندي مولود آخر أحب أن يسميه "صبغة الله"، فلم يذهب إلى إدارة التسجيل إلا بعد عام ونصف، أي بعد ولادة فتح الله بأربعة أعوام، ولكن هذه المرة استعان بضابط مخفر القرية الذي كان يحترم رامز أفندي ويحبه. فذهبا معا إلى مصلحة التسجيل، وعندما اعترض الموظف مرة أخرى، صرخ الضابط في وجهه وطلب منه أن يسجل الاسمين وفق طلب الوالد، ثم غادر المصلحة. ولكن الموظف أبى إلا أن يسجلهما كما يحلو له، حيث سجل "صبغة الله" بـ"سيف الله".. وسجل "محمد فتح الله" بـ"فتُّ الله" (بحذف الحاء وحذف محمد)؛ كما سجل تاريخ ولادتهما في نفس العام، أي ١٩٤٢. فكان تاريخ ميلاد محمد فتح الله ٢٧ أبريل ١٩٤٢ في السجلات الرسمية، بدلا من ١١ نوفمبر ١٩٣٨. وفي عام ١٩٥٩ قدم الأستاذ فتح الله طلبا في مدينة أدرنة ليتم توظيفه إماما في أحد المساجد، فبدا أن عمره لم يتجاوز ١٧ سنة حسب التسجيل الرسمي، ومن ثم يتعذر عليه أن يتولى وظيفة رسمية، حيث إن

متدينة تنتسب إلى آل البيت، في قرية كوروجُك التي تنتمي إلى محافظة "أرضروم "، وهي من أكثر المناطق تديّنًا ومحافظة في تركيا، فقد اعتنقت الإسلام مبكرًا على يد الرعيل الأول من الصحابة الكرام أيام الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان. وتقع هذه المحافظة في شمال شرق هضبة الأناضول.

• بدأت أمُّه "رفيعة هانِم" بتعليمه القرآن وهو ما زال في السنة الرابعة من عمره، وواصل دراسة القرآن حتى فهمه وأتم حفظه. أما أبوه رامز أفندي فقد علَّمه أسس علوم الشريعة وقواعد اللغتين العربية والفارسية، بحكم أن كثيرًا من المؤلّفات الإسلامية التراثية أُلفت بهاتين اللغتين، وأتقن بجانب هاتين اللغتين التركية، بل صار أحد أبلغ الناطقين بالتركية في هذا العصر.

• بدأ فتح الله يدرك مشاكل المسلمين من خلال مجالس والده التي كان يحضرها بعض الصلحاء من قريته ومنطقته، حيث كان أبوه إمامًا لأحد المساجد، وبدأ الابن يتعامل مع القضايا الإسلامية بروح المسؤولية، فكان شيخًا في إهاب طفل. وكان العمود الرئيسي في المبنى العلمي لكُولَن هو القراءة والتعلّم الذاتي، وبهذا تتلمذ على أيدي فطاحلة الأمّة كالغزالي وابن تيمية وابن القيّم وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم من القدامى، وأمثالهم من المحْدَثين كحسَن البنّا وسيّد قطب وأبو الأعلى المودودي ومحمد إقبال وبديع الزمان النورسي وغيرهم؛ وقد أخذ من الجميع وترك، وبالتالي

شرط التوظيف أن يكون عمره ١٨ سنة، فراجع المحكمة، فتم تكبير عمره سنة واحدة، وتم تغيير تاريخ الميلاد إلى ٢٧ أبريل ١٩٤١، وذلك هو المسجل رسميا في بطاقة هوية الأستاذ فتح الله كولن اليوم.

أوجد ذاته المستقلّة المتميزة. وبقدر اهتمامه بالعلوم التي هي غذاء العقل، فقد اهتمّ بمجالس الذكر التي هي غذاء الروح، ومن هذه المرحلة المبكرة بدأ اكتساب التوازن الشديد بين العقل والروح.

• حصل على الشهادة الابتدائية النظامية عن طريق التعلم عن بُعد، لكنه كان أكبر من المدارس الحكومية، حيث سعى للاستفادة ممن بقي من أهل العلم الشرعي؛ فكان دائم الطلب، دائب الحركة للبحث عن هؤلاء، وكان كثير التنقّل من واحد إلى آخر، نظرًا لأنه لم يجد مَن يروي عطشه أو يُشبع نهمه، فقد كان بحرًا يطلب المدد من سدود أو بحيرات، وكان شمسًا تطلب الضياء من كواكب. جَمَع في تحصيله العلمي بين العلوم الشرعية التقليدية، والآداب، وعلوم الاجتماع والنفس، وانفتح بعدها على كل علوم الغرب، بما فيها العلوم المادية كالفيزياء والكيمياء والفلك.

• أثناء رحلة الطلب المعرفي تعَرَّف في طريق قطاره على "رسائل النور" سنة ١٩٥٧، وكان عمره ١٩ سنة، وهي لمجدّد تركيا قبل كولن: بديع الزمان سعيد النورسي. كانت هذه الرسائل قناديل من النور بَهَرتْه وسحرتْ لُبَّه ووجد فيها ضالّته، حيث أشبعت نهمه، وأروت ظمأه، ولذلك أحبّ بديع الزمان حبًّا جَمًّا، وتلْمَذَ نفسَه عليه حتى صار أحد أنجب تلاميذه رغم أنه لم يلتقِ به وجهًا لوجه أبدًا، بل وتفوَّق على مَن تتلمذوا عليه مباشرة في استلهام فكره وتطويره ومَأْسَسَتِه في مشاريع تبني الإنسان وتعمر الأرض.

• بعد محاولات عدّة استطاع الحصول على وظيفة رسْمية، كإمام لمسجد، وكان قدَرُه قد دفَعه إلى مدينة "أَدِرْنَة" التي تقع في القسم الأوربي من تركيا (تِرَاقْيا الشّرقية). وهناك تعَرَّض لابتلاءات كثيرة، لكنه استعصم

من غوايات الشيطان بالاستمساك بأمر الله وحبْله المتين، فنجاه الله كما نجى يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، وأنْجاه كما أنجى إبراهيم عليه السلام من النار، لكنها هنا نار الشهوة والغواية المتحالفتين مع الشيطان.

• أثناء عمله كإمام في أدرنة طُلب لأداء الخدمة العسكرية في أنقرة وإسكَنْدرُون، وعندما انتهى منها عاد إلى أَدِرْنَة مرّة ثانية، وبقي فيها فترة، وعندما اتّسع تأثيره وكثر معارفه؛ اشتد عليه التضييق، فطَلب مِن بعض معارفه في الإدارة الدينية في أنقرة مساعدته للانتقال مِن أدرنة.

• انتقل عمله إلى مدينة إزمير سنة ١٩٦٦ التي تقع في جنوب غرب تركيا، وتطلّ على البحر إيجه المتوسط، وهي أهم المصايف الجاذبة للسياحة الخارجية والداخلية، ولذلك تكاد أن تكون أكثر المدن التركية تغرّبًا. وبهذا أضافت هذه المدينة بعدًا جديدًا إلى طاقة التحدي التي امتلأ بها كولن، كحال حسَن البنّا مع مدينة الإسماعيلية في مصر.

• عُيّن مديرًا لمدرسة دينية تابعة لأحد المساجد في إِزْمِير، وهي تتبع الحكومة رسميًّا، لكن تمويلها كان يأتي من جمْعية خيرية شكَّلها الأهالي لهذا الغرض، ومِن هنا التَفَت إلى أهمّية الأهالي في تمويل مشاريع الخدمة التي أسّسها فيما بعد.

• بدأ يتحرك في إِزْمِير على أكثر من صعيد، حيث كان يخطب، ويؤمّ، ويعظ، وأسَّسَ في تلك الأثناء جمعية "الانبعاث"، لكنه سرعان ما عاد وحَلَّها، لما رأى عدم انسجام مؤسّسيها، وعدم وضوح الغايات من إيجادها، وبالتأكيد أنه استفاد من هذا الدرس السلبي بطريقة إيجابية.

• تولى جمع التبرّعات من أصدقائه ومعارفه التجّار، من أجل بناء أول ثانوية للأئمّة والخطباء في إِزْمير، وبناء مقرّ للمعهد الإسلامي للتّعليم

العالي التابع لجامعة إِزْمِير، والذي كان مبناه متهالكًا، وبذلك ذاع صيته، وزاد ألقُه، ولاسيما وسط طلاّب وأساتذة جامعة إِزْمِير.

• ذهب للحج عام ١٩٦٨، وكانت عودته من مكّة إلى أنقرة، فدعي هو ومفتي إِزْمِير لزيارة بعض البيوت التي أعدّها طلاب النور لسكن الطلاب، وهناك أُعجب المفتي بما رأى من أنشطة دينية واجتماعية للطلاب، فأخبر كُولَن أنّه يريد مثل ذلك في إِزْمِير، وهنا انطلقت شمسُ فتح الله لتُنير الكثير من الدروب المظلمة. وبدأ في تلك الأثناء بإقامة المخيّمات الصيفية للطلاب في إِزْمِير وضواحيها.

• تأثّر به في إِزْمِير تلاميذ كثيرون من طلبة الجامعة والتجار، ويبدو كأنه بدأ معهم عملاً منظّمًا منذ عام ١٩٧١، وهو العام الذي تعرّض فيه للاعتقال، بعد الإنذار الذي وجّهه الجيش للحكومة، بحجّة وجود محاولات من داخلها وخارجها للانتقاص من العلمانية الأتاتوركية.

• قام في إِزْمِير بحمْلة نشطة لبناء عدد من المساكن الطلابية، وانتقل بعدها إلى إيجاد معاهد الإعداد للجامعة، ولما صارت مخرجات هذه المساكن والمعاهد من أفضل الكوادر الطلابية، فقد توسّعت في أنحاء تركيا خلال سنوات، حتى وصلت إلى كل الأطراف، فضلاً عن إسطنبول وأنقرة.

• وكان منذ عام ١٩٧٠ قد بدأ بتشكيل مخيّمات صَيفية للطلاب، بالتعاون مع بعض مَن تأثر به وأحبّه وآمن بأفكاره وطريقته في إصلاح الشباب، وانتقلت هذه العدوى الطيبة إلى تركيا كلّها فيما بعد.

• أصبح خلال هذه الفترة واعظًا متجوّلاً في كل مناطق جنوب غرب تركيا، إضافة إلى بعض المناطق الأخرى، وألقى خلالها آلاف الدروس العامة والخاصة، والمحاضرات، والمواعظ، وخطب الجمعة.

• وفي الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٠ كان نشاطه قد وصل إلى الذروة، وكانت التيارات الإسلامية ذات الاتجاه السياسي نشيطة، إضافة إلى وجود عوامل أخرى أدّت بقائد الجيش كَنْعان إيفْرِين إلى قيادة انقلاب عسكري على الحكومة الديمقراطية، وصار فتح الله كولن أحد المطلوبين للقبْض عليهم.

• في الوقت الذي كان فتح الله مطاردًا، قام بعض تلاميذه ببناء أوّل مدرسة نموذجية للتعليم الأساسي سنة ١٩٨١، وهي مدرسة الفاتح، ثم توالت سُحُبُ مدارس الخدمة لتُمطر في كل الأصقاع. وانتشرت في كل مدن تركيا الرحيبة أشعّة شمس كولن مبدّدةً ظلمات الجهل والتخلّف والتعصب.

• ظل كولن متخفيًا من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٦، وهذا منحه تفرّغًا للتركيز على بناء تلاميذه بناء فولاذيًّا، ليكونوا أهلاً لتحمل المسؤولية، فكانوا لها أهلاً، حيث كفوا ووفوا.

• عندما وصل تُورغُوتْ أُوزَال إلى السلطة بعد عودة الديمقراطية سنة ١٩٨٢، حدث انفراج للحرّيات في تركيا، ولاسيما في ما يرتبط بالأنشطة الإسلامية؛ فتصاعدت وتيرة عمل فتح الله وتلاميذه الذين صاروا يُعرفون بتيّار "الخدمة"، وظهروا في أعمالهم منظّمين، رغم نفيهم لكونهم تنظيمًا من أي نوع، وإصرارهم على أنهم أصحاب خدمة ممن أحبّوا هذا الدين وتأثّروا بكُولَن، مسخّرين طاقاتهم وأموالهم وأوقاتهم لخدمة وطنهم وأمّتهم.

• بدأ كولن الوعظ في إسطنبول منذ عام ١٩٧٧، لكنه ظل ينطلق في كافة مناشطه وتحركاته من مدينة إزْمير، التي طلعت منها "شمسه" رغم أنها تقع في "الغرب"، وهذه من عجائب فتح الله وكراماته. مع سنة ١٩٨٥ بدأ يتنقّل ما بين إزْمِير وإسطنبول، وفي عام ١٩٩٦ استقر نهائيًا في إسطنبول.

• منذ أن وطئت قدماه أرض إسطنبول -عاصمة المسلمين طيلة

قرون- بدأ فتح الله حملة واسعة لزيارة الصحف والأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني ورجال الثقافة والإعلام والفن والرياضة، ثم دعا الجميع إلى موائد الطعام في بيوت تلاميذه "أبناء الخدمة"، فتقابل فيها المتخاصمون والمتنازعون لأوّل مرة وجهًا لوجه، واكتشفوا بمساعدة كولن أن المسافة بينهم ليست بذلك البُعد الشاسع الذي كانت تبدو عليه من قبل.

• أنشأ عام ١٩٩٤ "وَقْف الصحفيين والكُتَّاب" الذي أصبح مؤسسة عملاقة أقامت عشرات الفعاليات داخل وخارج تركيا حول الحوار بين المثقفين والمفكرين والأديان والقوميات والمذاهب والطوائف، وتوزعت بين مؤتمرات وندوات وحوارات ومحاضرات، شارك فيها نجوم الفكر والثقافة والأدب والفنّ والرياضة من بلدان إسلامية وغربية كثيرة. ويتبع هذا الوقف عدد من وسائل الإعلام، ولاسيما المجلات الثّقافية والفكرية، إضافة إلى تسعة منتديات ضخمة محلّية ودولية، صارت أنشطة بعضها ملء سمع الدنيا وبصرها.

• عندما وقع الانقلاب العسكري المبطن ضدّ الحكومة المنتخبة التي كان يقودها زعيم حزب الرفاه نجم الدين أربكان عام ١٩٩٧، هاجر فتح الله إلى أمريكا وأقام فيها بضعة أشهر للعلاج، وعندما انقشعت العاصفة عاد إلى تركيا ليواصل دوره في قيادة تيّار الخدمة الذي أصبح أحد أهمّ أسس النهضة التركية المعاصرة ولاسيما المنتظرة منها؛ إذ يمتلك هذا التيار مئات المدارس النموذجية وأكثر من خمس عشرة جامعة، وعشرات الصحف والمجلات والدوريات المختلفة، ومئات المدن والبيوت السكنية للطلاب، وتسع قنوات فضائية، وعشرات المواقع الإلكترونية التي تتحدّث بـ ٢٢ لغة عالمية، وأقسام للترجمة إلى أهمّ لغات العالم الحية (٤٢ لغة).

• وبسبب وجود مخاطر على حياة كولن من عدد من الأمراض القاتلة التي يعاني منها، ومن بعض الجهات الخفية في تركيا التي تستهدف اغتياله لإحداث فتنة داخلية، فقد هاجر في ٢١ مارس ١٩٩٩ إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، وهو منذ ذلك العام مقيم في ولاية بنسلْفانْيا في مخيّم على قمّة جبل تحيط به غابة، يمارس الكتابة وتعليم تلاميذه علوم القرآن، رغم منع الأطبّاء له من ذلك.

• حصل عام ٢٠٠٨ على المركز الأول بين أكبر مائة شخصية علمية هي الأكثر تأثيرًا في ذلك العام على مستوى العالم، وذلك في استفتاء قامت به مجلة "فورين بوليسي" الأمريكية الذائعة الصيت في الأوساط الأكاديمية، بالتعاون مع مجلة "بروسبيكت" البريطانية المشهورة.

• أنشأت له عدة جامعات في الولايات المتحدة وأستراليا وإندونيسيا كراسي باسمه، ومراكز علمية متخصصة باسمه كذلك، وأقيمت عنه وعن تجربته عشرات المؤتمرات والندوات والورش النقاشية، إضافة إلى حوالي مائتَي رسالة أكاديمية أعدّت أو تعد عنه وعن جوانب متعددة من خبراته وتجاربه، ولاسيما في دائرة التعليم والتربية والعمل الإعلامي والاجتماعي.

• تعرض للاعتقال عدة مرات، وحوكم في بعضها، لكن براءته ثبتت في كل مرة من التهم المنسوبة إليه.

• ترك فتح الله آثارًا ضخمة، توزّعت بين الآلاف من شرائط الكاسيت وشرائط الفيديو التي احتوت على كثير من خطبه ومواعظه ودروسه ومحاضراته، وبين الكتب التي وصلت إلى خمسة وستين كتابًا، تُرجم بعضُها إلى أكثر من أربعين لغة، منها الإنجليزية والبلغارية والألبانية والأندونيسية والروسية والكُوريّة، وقد تُرجم إلى العربية خمسة عشر كتابًا من كتبه حتى الآن.

ثانيًا: تدابيرُ القدَر في حياة خادمِ المسلمين الأَبَرِّ

لا يختلف عاقلان في أن الأنبياء المرسلين هم خير مَن اصطفتهم السماء وأفضل مَن أنْجبتهم النّساء، وأعظم من سطعت عليهم الشمس، وأتقى من انتسبوا إلى آدم وحواء؛ ذلك أن الله اختارهم من أَنْفس معادن البشر، ومن أنقى طبائع الناس، وبجانب ذلك فقد أدَّبهم فأحسن تأديبهم وفْق المنهج السبيِّ، رغم قدرته على أن يقول للشيء كن فيكون.

ومن ذلك اصطفاء الله لرسوله محمد ﷺ الذي قال عن نفسه: «أنا خيارٌ من خيار من خيار»، ورعايته تعالى له في أصلاب الرجال وأرحام النساء، ثم تتبعه بالتأديب والرعاية منذ ولادته إلى مبعثه ﷺ كما قال: «أدّبني ربي فأحسن تأديبِي».

لقد هيأ الله ظروفًا عديدة، لإعداد الرسول ﷺ وتهيئته لحمل الرسالة، عَبْر تزكيته بالحوادث، وتربيته بالمواقف، حتى يسْمو إلى القمّة السامقة التي لم يصلها بشَر قط، ومن ذلك ولادته في أسرة شريفة لكنّها غير ثريّة وغير متسلطة، وموت أبيه وهو ما زال في بطن أمه، ووفاة أمّه في طفولته ليرعاه جدُّه، ثم فَقْده لجده وانتقاله للعيش في كنف عمّه مع أبنائه، ثم ممارسته للرعي ووقاية الله له من نزوات الشباب ونزغات الشيطان، ونشأته في بيئة صحراوية في الجغرافيا والمناخ وفي الثقافة والعلم، مع قدْر من الغنى في الحرية والقيم الأخلاقية كالكرَم والشجاعة، ونجدة الملهوف، والصدق، والأمانة، والوفاء، إضافة إلى ثراء بالغ في الفصاحة والبلاغة والبيان، وكذا في الاعتداد بالذات.

كل ذلك لا شك أنه ترك بصماته وآثاره على شخصية المصطفى ﷺ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولما كان العلماء والدعاة والمصلحون والمفكرون هم ورَثة الأنبياء،

فقد منحهم الله حظًّا من هذه الرعاية وذلك الإعدادِ، ومِن هؤلاء فتح الله كولن الذي جمع الله في شخصيته العلم والفكر والدعوة والإصلاح.

ومن يقرأ حياة هذا العملاق، سيلاحظ عناية الله به، فقد "دفعته" تدابير القدر نحو الكمال المقدر له و"رفعته" إلى أن وصل إلى سدرة المنتهى في: الفاعلية الدعوية، والتجديد الفكري، والإصلاح الاجتماعي، وصناعة التمكين الحضاري.

هذا الإعداد الربّاني، والتهيئة الإلهية، والعناية السماوية، قد لا يفهمها المحبوسون في قوالب المادة، والحبيسون في المعادلات المتحركة في إطار عالم الشهادة، دون أدنى التفاتة إلى عالم الغيب، لكن ذلك لا يلغي وجودها وتأثيرها.

ويمكن إيضاح هذه العناية السماوية بفتح الله كولن، وإعداده للقيام بما قام به فعلاً من دور كبير في إشاعة النور، وتوزيع الخدمة، وتربية قوافل من الأجيال، وصياغة كتائب من الأفكار، تساهم اليوم في صناعة الحياة، وصياغة التاريخ، وذلك من خلال سبع نقاط على النحو التالي:

١-فتح الله كولن وتطابق الاسم مع المسمى

من المعلوم أن الأسماء في تركيا مركبة، بمعنى أن الشخص يكون له اسمان، واسم هذا العملاق وحده محمد فتح الله، ولأنه من عائلة علم وتدين، فيبدو أن أباه عندما أطلق عليه هذا الاسم، كان يقصد -أو على الأقل- يتمنى أن يكون ابنه على قدر هذا الاسم.

- **محمد**: اسم أعظم رجل أنجبته البشرية في كل عصورها، فأخرجها من غياهب الجهل إلى أنوار العلم، ومن دياجير الظلم والضلال والعبودية

إلى شموس العدل والهداية والحرية.

ولا بد أن والد هذا الرجل العملاق كان يضع ابنه بهذا الاسم -ولو أمنية- في المسيرة التي يقودها محمد بن عبد الله ﷺ، كي يكون وفيًّا له، وسائرًا في صراطه المستقيم، وداعيًا إلى دينه العظيم ومستظلاً تحت لوائه الرحيم، فلم يخب رجاء الوالد!.

• وسماه **فتح الله**، فقد أغلقت كل الأبواب والنوافذ أمام هذا الدين في تركيا عندما ولد هذا العملاق، فتقزّمت تركيا، فهي كالعرب لا عزّ لهم جميعًا إلا بهذا الدين، وكأن الوالد دعا الله بصدق، وعمل على تحقيق هذه الدعوة بجدٍّ من خلال تربية ابنه حتى يكون فتحًا لهذا الدين، فكان كذلك بتوفيق الله. فها هي تركيا تعود اليوم إلى أحضان الإسلام، كأفضل ما تكون العودة، من خلال الأعمال لا الأقوال، ومن خلال الشعائر لا الشعارات، ومن خلال المضامين لا العناوين، عودةً تتجاوز المظهر إلى الجوهر، والقشور إلى اللباب، والاسم إلى المسمى.

• **كُولن**: وتكتب كاف وفوقها شرطة "گُولَنْ"، فتُنطق بالتركية جُولن وتعني الضحّاك أو البسَّام. وهنا لم يكن له نصيب وافر من هذا الاسم كما في اسمه الخاص بشخصه؛ لأن أكثر صفة عُرفت عنه هي البكاء. فرغم عقلانية خطابه إلا أنه صاحب قلب حيّ وفؤاد يقِظ، وذو كبِدٍ يتفتّت ألَمًا كلّما شاهد أو تذكّر ما أصاب أمّته، وعندما يتحدّث عن الآخرة كأنه يراها رأْي العين لقوّة إيمانه، ولذلك فإنه يبكي في مواعظه ويُبكي. وقد عُرف بين أتباعه بالبكَّاء -رغم أن اسمه الضَّحاك-، حتى أن أحدهم لقَّبه بـ"الناي"؛ لأنه حزين ومحزن، ويمكن للناظر في وجهه أن يرى هذا الحزن بدون أدنى مشقّة. يقول في إحدى مواعظه: "كيف أخلدُ إلى الراحة

والعالم الإسلامي يعيش حالة اغتراب ومعاناة؟! لقد حرّمتُ على نفسي الضحِك مثل صلاح الدين الأيوبي.. ما أردتُ أن أفكّر إلاّ في هموم أمّة محمد ﷺ.. ودعائي الدائم هو: "اللهم اجعلني حليمًا سليمًا أوّاهًا منيبًا".. فاخترتُ أن أكون من أهل الأنين دومًا، لأنّ وضع العالم الإسلامي وضع يُرثى له. نعم اخترتُ الأنين والنواح"[٢].

٢-اقتباس أشعّة الضياء من أسماء الأقارب

اتسم فتح الله بالحساسية الشديدة، فقد كان لَمَّاحًا، شديد النباهة والانتباه، دائم الملاحظة واليقظة، دائب التفكير والتأمل، قوي الحرص على الغربلة والاقتباس والاستفادة من كل من يحيط به من أقارب وأباعد.

ولا بد أنه استفاد من أسرته ومن البيئة التي عاش فيها سنوات عمره الأولى الكثير من الفوائد، واقتبس الضياء حتى من أسماء هؤلاء الأقارب نتيجة شدة جاذبية التربّي والتزكّي.

لقد كان اسم جده "شامل"، ولا بد أن هذا الاسم ساهم في تركيز انتباهه على شمول الإسلام واستغراق القرآن لشتّى نواحي الحياة، فلم يكن من الذين جعلوا القرآن عِضين، ولا من الذين آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، بل أثبتت الأيام والسنوات أنه من الذين أدركوا أن أنوار القرآن لم تغادر صغيرة ولا كبيرة من زوايا الحياة إلا وغمرتها بأشعّتها، كاشفةً لأغوارها وأعماقها.

وتعلّم من جدّته "مؤنسة هانم" كيف يأنس بالله كمؤمن لا يغيب عنه إلهه ومليكه وحبيبه في أي ظرف؛ لأنه أقرب إليه من حبل الوريد، ولذلك

---

[٢] من وعظ "الحزن المقدّس"، فتح الله كولن، مسجد الحصار، إزمير / تركيا، ٢٤ يونيو ١٩٩٠.

لم يشعر بالغربة أو الوحدة ولم تتسلل إليه الوحشة أو اليأس في أسوأ الظروف، وذلك عندما كانت عواصف التغريب وزوابع الإلحاد تجتاح كل جميل من قيم تركيا الوطنية والحضارية، وظل متفائلاً على الدوام لشعوره بمعيّة الله، وأُنسه بمناجاته، وتذوّقه لحلاوة الإيمان به، وثقته بنصره وتأييده وتمكينه لمن يؤمنون به ويحبّونه ويخدمون خَلْقه ودينه.

وتعلَّم من أمّه "رفيعة هانم" كيف تُبنى الرفعة بدون كبْر، وكيف تُجْنى العزّة بدون غطرسة، من خلال الترفع على قيم الجاهلية المنحرفة، مع التذلل بين أيدي المسلمين، ولو كانوا من معتنقي هذه الأفكار العوراء، فإنهم في الأصل ضحاياها، وفي كل الأحوال فإن البُغض يكون للأفكار لا للأشخاص.

أما والده "رامِز أَفَنْدي" فقد تعلَّم من اسمه كيف يرمز إلى حقائق الإسلام كقيم حضارية ووطنية وإنسانية، وكيف يحقّق الهدَف دون أن يستفز العلمانية أو يقع تحت طائل قوانينها العمياء.

وكان له عمٌّ اسمه "أَنْوَر أَفَنْدي" وقد اقتبس منه "النور"، وربما حبَّبَه هذا الاسم في تيار "النور" -الذي أسسه وكان يقوده في تلك الأثناء بديع الزمان النورسي-، وربما دفعه اسم عمّه إلى المزيد من العشق للنور والتلذذ برشْفِهِ والاستزادة منه، حيث ظل يسابق أهل "النور" في ذلك حتى صار "أَنْوَر" زمانه!

وكان له في مقتبل عمره شيخ يدعى "محمّد لُطْفِي"، ومن المحتمل جدًّا أن هذا الاسم المحبوب لديه كان أول ما لفت نظره إلى جمال اللطف وأهمّية التلطّف، مما دفعه فيما بعد لكي يجعل منه أساسًا من أسس منهجه في الدعوة والتربية والتعليم.

مما يجدر ذكره أن واقع الحال يقول إن هذه الأسماء استقرّت، مثل

سائر المؤثرات، في العقل الباطن لكولن، فتأثّر بها في أعماقه الشعورية والفكرية، وصار يصدر عنها في تصرفاته، مما أعانه على طيّ الزمان والمكان تحت إبط عبقريته الفريدة.

٣-القفز على "الزمان" والتوحد مع "المكان"

ظل ديدن العباقرة في كل زمان ومكان هو التعامل الفريد مع الزمان والمكان، وهذا ما ظهر في سيرة كولن في أوضح صورة، فقد فاق أقرانه، وكان ذلك سببًا في عدم مواصلته للدراسة في التعليم الرسمي النظامي، بجانب عوامل أخرى بالتأكيد. فعندما فُتحت أول مدرسة ابتدائية في قريته من قبل الحكومة لم يُسمح له بدخولها لصغر سنه، لكنه بسبب شغفه بالعلم وعشقه للدراسة، أصرّ على الانخراط فيها كمستمع، واستمر على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات، وكانت المفاجأة التي صعقت أساتذته هي تفوقه على زملائه الرسميين والذين يفوقونه في السِّن، وكأنه كَرِه بعدها أن يعود إلى الوراء للدراسة الرسمية، فاكتفى بالمشاركة الحرة، وهو نوعٌ من التعليم غير النظامي، حيث أكمل الشهادة الابتدائية على هذا النحو مكتفيًا بها.

وانتقل بعدها -كما كان أثناءها- إلى التعلُّم الذاتي، وسبَق أقرانه بالدخول في وقت واحد في عدد من الجامعات غير التقليدية، بسبب قدرته الخارقة على استيعاب معارفها، وعطشه الشديد إلى المعرفة، وجوعِه المَسْغَبي إلى التربية، ثم قدْرته الهائلة على تشرُّب العلوم من سائر المنابع التي كانت تبدو لكثيرين كأنها متناقضة... إنها جامعات العلماء الموسوعيّين.

فقد ذهب إلى العلماء القريبين منه ونَهَلَ أفضل ما عندهم، وعكف على كتب كبار علماء الأمّة في العصور المُشْمسة، حيث اقتبس الضياء من

كل من يملك منه نصيبًا، مهما كان اتجاهه الفكري ومذهبه الفقهي وفرقته الكلامية وطريقته الصوفية، ولم يتوقّف عند علماء الطوائف والتيارات الإسلامية، بل تجاوزهم إلى فلاسفة ومفكّري وأدباء الغرب، حيث اقتبس منهم بعض ما يشبع النَّهَم أو يروي الظمأ، من أطعمة الحكمة ورحيق الخبرة، فلم يهتم بهُوية النحل لكنه اهتم برشف العسل ما دام مُصَفّى.

ولما كانت تركيا من أعرق بلدان العالم، لكنها من أشدها تطرفًا في القفز إلى الحداثة إلى حد هضم الماضي ومحاكمة الأمس وجَلْد التاريخ، فقد نشأت علاقة وثيقة بين كولن والزمن بأبعاده الثلاثة، ففي المدُن العريقة والمساجد العتيقة تعلَّم أن الحاضر بدون عراقة الماضي وجذوره التليدة يصبح يبابًا وعدمًا، وفي أفضل الأحوال يصبح بنيانًا أُسّس على شفا جرفٍ هارٍ. ولهذا عمد إلى استجماع الزمن، فجعل الماضي أساسًا متينًا لمبنى الخدمة، وجعل الحاضر أداة للبناء ورافعةً للإطلالة على القادم واستشراف المستقبل، من خلال امتلاك أفكار الانطلاق، وتجهيز مواد التشكيل، وابتكار وسائل الصياغة وأدوات الضبط وفق مقاصد الإسلام ومصالح الأنام.

وكانت محاولات الانطلاق إلى الأمام قد بدأت في مدينة "أَدِرْنة" التي تقع في الشطر الأوربي من تركيا، وبالتحديد في تراقيا الشرقية، وتعلَّم منذ البداية مهارات النزول إلى المجتمع بكلّ ما فيه من معادن وإمكانات، ومن علل وموانع. ففي هذه المدينة العريقة ثم مدينة إزْمير بدأ كولن "تنبيه" الناس من غفلتهم من داخل "المقاهي"، كما فعل الإمام حسَن البنّا في مدينة الإسماعيلية في مصر في نهاية العقد الثالث من القرن الميلادي المنصرم.

وفي هذه المدينة الأوربية تولى كولن إمامة مسجد كان له أثر بالغ في حياته، وكان يسمّى مسجد "الشرفات الثلاث"، فكان بالنسبة له محطّة

عظيمة للتأمل ولمراكمة المعرفة ومزاولة التزكّي والترقّي الروحي. ولا بد أنه في هذه المحطة الضخمة لممارسة التعلم الذاتي، قد نظر إلى آيات الله الشاملة من هذا المسجد، مسجد "الشرفات الثلاث" فانطبق مسمّى المسجد على اسمه -بالنسبة لكولن-: ففي الشرفة الأولى كان "يتدبّر" آيات القرآن، وفي الشرفة الثانية صار "يتفكّر" في آيات الكون، وفي الشرفة الثالثة ظل "يتبصّر" في آيات الأنفس.

وعبر روافع التدبر والتفكر والتبصر ارتقى كولن في الآفاق، وامتلك شمس البصيرة، لكن هذه الشمس لم "تُشرق" أشعّتها الساطعة في أَدِرْنَة وإنما في مدينة إِزْمِير التي تقع في "غرب" تركيا!.

٤-"شروق" شمس كولن من "غرب" تركيا

من تدابير القدَر التي منحت كُولَن بعض الكرامات والغرائب، أن تُشرق شمسُه -التي صارت شمسًا لوطنه وأمّته- من غرب تركيا، وبالتحديد في مدينة إِزْمِير التي تطلّ على شاطئ البحر المتوسط، وهي مدينة سياحية يرتادها ملايين الغربيين سنويًّا للاصطياف، ولهذا وغيره صارت أكثر المدن التركية تغرّبًا وتحللاً وفناءً في الغرب. وتأبى الأقدار إلا أن تبدأ دعوة الخدمة بوضع أسسها في هذه المدينة الغربية جغرافيًّا وثقافيًّا.

وفي هذه المدينة (إِزْمِير) وصل كولن أول مرة -في مارس ١٩٦٦- إلى سُوق الكسْتناء وسط المدينة والذي يسمّى بالتركية "كَسْتَانة بَزَارِي"، وفي القلب من هذا السوق توجد مدرسة للتعليم الديني تشرف عليها إدارة رئاسة الشؤون الدينية وبتمويل من بعض الخيريّين. ومن هنا بدأت علاقة كُولَن بالتعليم، والتفاتته إلى دور رجال الخير في تبنّي التعليم وبنائه. وبفضل هذه

الالتفاتة، مع تقديره البالغ للتعليم، تنتصب الآن مئات المدارس العملاقة في قلب المدن الكبرى في تركيا، ثم في وسط آسيا، ثم في أوربا وأمريكا، ثم في الوطن العربي وأكثر بلدان العالم الأخرى؛ حيث نجحت هذه المدارس في صناعة أعداد غير يسيرة من الرجال، وتفوّقت في استخلاص دماء جديدة، نجحت في ضخها إلى أوصال كثير من البلدان ولاسيما الإسلامية، حيث صارت شجرة باسقة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.

وفي جامع "سوق الكستناء"، بدأ بالتجارة الرابحة مع الله، فقد كان يتْبع هذا المسجدَ مدرسةٌ، صار فتح الله مديرًا لها، ويتبعه أيضًا مسكن للطلبة، سرعان ما حوَّله إلى محضن دافئ للتربية وملجأ آمن، وَضَعَ فيه من استخلصه من بين براثن التيه والضياع.

وهكذا بدأ عملية النهوض نحو امتلاك المستقبل مستثمرًا كل ملكاته وإمكانياته. ففي المدرسة يُعلِّم ويُفَهِّم، وفي المسجد يدعو ويعِظ، وفي المسكن يزكّي ويربّي.

الجدير بالذكر أن هذه المدرسة كانت لها جمعية خيرية تنفق وتُشرف عليها، ومن هنا بدأ تركيز كولن على إيجاد واقفين لأنشطته الخيرية والتربوية والدعوية والثقافية التي أشرقت أشعّتها من هذه المدينة.

وبعد أن ثبَّت قدميه في هذا المسجد وتوابعه وأوجد له جذورًا قويّة فيه، بدأ بالانطلاق خارجه؛ لإطفاء حرائق التغريب التي اشتعلت في هذه المدينة أكثر من غيرها، وأشعلت غَيْرَة كولن على أهله ووطنه ودينه، وأنضجت طاقاته المخبوءة وفجَّرت مواهبه الكامنة، وأطلقت فاعلياته في العمَل الإيجابي الهادئ.

وكان أول نشاط عملي له هو جمع التبرّعات لبناء ثانوية للأئمة

والخطباء في هذه المدينة، ولبناء مقرّ للمعهد الإسلامي للتعليم العالي التابع لجامعة إِزْمِير والذي تقادم حتى كاد أن يسجد على رؤوس الطلاب، من شدّة الإهمال والإذلال المقصودين.

هذه التجربة الثرية لا بدّ أنه تعلم منها أمورًا كثيرة وعظيمة، كعادته دومًا، ومنها:

- أهمّية العمل من داخل مؤسسات وإمكانات النظام العلماني.
- الاهتمام بالتُّجّار كمحرّك ضروري لهذه المناشط، وتفعيل الخطاب الموجَّه إليهم.
- المزاوجة في هذا الخطاب بين الإقناع العقلي والإمتاع الوجداني، باستفزاز الأفكار واستجاشة العواطف، ثم استثارة النوازع الوطَنية والقومية ذات الصلة بالتشرّف بالإسلام وخدمته، وتصوير هذه الخدمة كتيجان على رؤوس مَن يقومون بها.
- دفع المتبرّعين بالمال أو بالجهد إلى إدارة مناشطهم بأنفسهم، حتى يوقنوا أنّها مشاريعهم وحتى لا ينجح الشيطان في تسريب أيّ ذرة من الشك في الداعية.

وفي إزمير أيضًا أسَّس جمعية سمّاها "جمعية الانبعاث" كمحضن قانوني لأنشطته هو وزملاؤه وتلاميذه الذين كان بعضهم طلابًا في جامعة إِزْمِير. ورغم قيامه بحلِّها بعد مدة وجيزة؛ نتيجة عدم الانسجام بين أعضائها، وبسبب عدم الاتّفاق على رؤية كلِّية موحدة، إلا أنه -كعادته- لا بد أنه قد تعلَّم منها دروسًا بليغة، مثل:

- الإصرار على المضيّ الوئيد في مشروع الإقلاع الحضاري، ولاحِظْ معي اسم الجمعية أيّها القارئ الكريم، فقد بدأ كولن منذ الآن

"ينبعث" كالعنقاء من بين رماد هذه المدينة المتخرّبة، ومثَّلت هذه الجمعية مرحلة "الفجر الكاذب" في مشروعه الحضاري، لكنه كان بشارة اقتراب "الفجر الصادق".

• ضرورة العمل الحثيث داخل المجتمع من أجل تقريب الأفكار والرؤى وتأليف الأحاسيس والمشاعر، ولذلك حاول إيجاد قواسم مشتركة بين الأفكار والأفعال الاجتماعية، بحيث تصير العقول المتقاربة والقلوب المؤتلفة جناحي الإقلاع في آفاق السموّ الحضاري المنشود.

• التركيز على الفكر الخلاّق والعمل الفعَّال، فقد تعَلَّم من هذه التجربة أن "الكلام" وحده لا يبني عقلاً ولا يقدّم خدمة، حيث لا يُشبع الكلام من جوع ولا يداوي من سقم، ولا يغني من حاجة.

وفي عام ١٩٦٨م كان كولن مع مفتي إزمير في زيارة لمدينة أنقرة، فتلقّيا دعوة للزيارة من أحد بيوت السكن للطلاب الجامعيين، والذي كان يتبنّاه طلاب النور -وهم من أتباع بديع الزمان النورسي- ولما رأيا مدى إخلاص هؤلاء الطلاب في حبّ هذا الدين وتفانيهم في خدمته، أبدى المفتي انبهاره وطلب من كولن أن يتبنّى مثل هذا المسكن في إزْمِير، وهو سيبحث عن مموّلين، وهنا بدأت علاقته القوية بهذا الميدان الخصب للتربية والتزكية والإرشاد، حيث سابق أهل "النور" حتى سبقهم وتفوَّق عليهم. وفي نفس الوقت زادت هذه التجربة من حسن ظنّه بالعاملين داخل النظام العلماني، بسبب حبّه لهذا المفتي، واجتهد دومًا في التنقيب عن هؤلاء وسط أركمة الانحراف والفساد، ودَأبَ على التعاون معهم في المشتركات التي تخدم الوطن والشعب والدين.

وبعد أن توثّقت علاقة كولن بالمساكن الطلابية بدأ بإقامة رحلات ومخيمات

صيفية لهم وسط الأشجار والغابات في تركيا، وهذا ينقلنا إلى نقطة أخرى.

٥-العيّش في كَنَفِ الشَّجَر والتتلْمُذ عليها

بدأ كولن منذ عام ١٩٦٨م بإقامة مخيمات صيفيّة لتربية طلاّبه، وعادة ما كان يقيم هذه المخيمات في الجبال الغارقة بين الأشجار. وعندما اشتهر أمر هذا المخيّم وسط أهل هذه الدعوة، وتذوّقوا ثماره اليانعة، تولّى تجّار مِن محبّي الخدمة دعمه بقوّة، وسرعان ما بدأت هذه المناشط تتراكم كمُزْن مثقلة بالخير، ثم حملتها رياح الخدمة فأمطرت في كثير من أنحاء تركيا، وهكذا صار كولن كالمطر أينما وقع نفع.

وللعلاقة الودّية بين كولن والشجر، فإنه لعوامل عديدة عندما خرج من تركيا وأقام في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل دائم منذ مارس ١٩٩٩م، اختار الإقامة في قمّة جبَل وسط غابة من الشجر في ولاية بنْسلْفانيا، فلماذا الشجر؟ وما سرّ عشقه لها؟ وما هو تأثيرها عليه وهو الشخص الشديد الحساسية، السريع التعلم من كل أحد بل ومن كل شيء؟

من فهمي المتواضع لنفسيّة هذا الرجل العملاق، يبدو لي أنه تعلَّم منها الكرَم، واقتبس من طبيعتها العطاء، واستقى من ثباتها الشموخ أمام أعتى الرياح والأعاصير، واستمدّ الصبر على تقلّب الجوّ وعلى عوامل التعرية وتداعيات القحط والجفاف، وكذا على التعامل الجائر معها من قبل الناس، إذ يرمونها بالحجَر فترميهم بالثَّمر.

لقد صار دوحةً باسقة تتدفّق حيوية فـ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٥)، وتمُدَّ الآخرين بـ"أوكسجين" الإيمان وإكسير الحياة، إضافة إلى أنضج الأفكار وأينع الثمار.

وبالمناسبة زرتُ السكن الذي كان يقيم فيه كولن، ويقع في الدور الخامس من مبنى مدرسة بإسطنبول، وشاهدتُ أكبر شرفة صادفتها في حياتي، وفيها أشجارٌ وأزهارٌ وورودٌ كثيرة تكفي لتزيين بستان كامل، إنه العشق لهذه الأشجار التي بينه وبينها قواسم مشتركة كثيرة، وكأنه مدينٌ لها بالكثير مما تعلَّمه، ومن ذلك الثبات، ولذلك يأبى أن يموت إلاّ واقفًا وهو في حالة من العطاء، فما زال يفكّر ويربّي، يُعلِّم ويكتب، رغم كبر سنه ومعاناته الشديدة من بضع أمراض قاتلة، ورغم منع الأطبّاء له من الكلام والكتابة وإجهاد نفسه بأيّ صورة.

ولا بد أنه اكتسب منها اللّين، فإن الثبات لا يعني الجمود لأنه قد يؤدّي إلى التيبُّس ومن ثم الانكسار، ولهذا تتمايل الشجر مع الرياح وتحني رؤوسها للعواصف حتى تمرّ، وهذا هو ديدن كولن وطبيعة دعوته.

وتشهد الأيام أنه امتلك قدرة هائلة على التفاعل مع الأحداث واستيعاب المتغيرات، والتكيف مع الواقع دون أن يُضيع البوصلة أو ينسى الأهداف، ولهذا نجح في الاستفادة من سائر الأحداث والحوادث.

٦-التتلمذ على أيدي الأعمال والحوادث

في عام ١٩٦١م أدّى كولن في العاصمة أنقرة خدمة التجنيد الإجباري في صفوف الجيش، وكان مسؤولوه قد عيّنوه مسؤولاً عن راديو اللاّسلكي، ومن المحتمل أن هذه التجربة ساهمت في لفت نظره إلى ضرورة اكتساب الخبرة اللاّزمة لإيصال صوته إلى قلوب الناس بدون لاسلكي. فكان له ذلك مع تحليه بالإخلاص والشفّافية الروحية، واهتمامه الخاص بوسائل الإعلام، كالراديو الذي امتلكت دعوته منه الكثير، إذ صار لها في كلّ

محافظة قناة إذاعية.

وقد اشتهر ببكائه عند استماعه لسيرة الرسول ﷺ أو قراءته لحديثه. وبجانب عوامل كثيرة أوصلته إلى هذه المكانة المرموقة في التفاعل مع "الحديث" الشريف، لا بد أن إمامته لمسجد "دار الحديث" في أدِرْنَة سنة ١٩٦٤م كانت عاملاً إضافيًا في ذلك.

وفي عام ١٩٦٨م ضرب زلزال إقليم "كَدِيزْ" فهبَّت إزمير لجمع التبرّعات، وكان كولن أحَد الناشطين في حركة جمع التبرّعات، وذهب لتوزيعها بنفسه على المتضرّرين، ولا بد أن هذا الحادث أنضج البُعد الإغاثي في تيّار الخدمة، ومازال فكرةً في رأس كولن وهَمًّا في قلبه.

وفي مرحلة مخيّمات إِزْمِير استعار ذات يوم مع إخوانه حافلة من إدارة الإفتاء، وقادها بنفسه، لنقل الطلبة من مدينة بُوجَا إلى المخيّم، فتقلّب بها أو انقَلَبَت به. وجرى له حادث آخر عندما اشترى له إخوانه سيّارة لذات الغرض، إذ حاول أن يُشغِّل شريط القرآن، فانشغل عن المقود، وانقلبت السيارة به.

ومن طبيعة كولن الشديدة النباهة والحسّاسية، نستنتج أنه تعلَّم من هذين الحادثين قيَم التركيز والحرص الشديد والانتباه لسائر المتغيّرات، أثناء قيادته لقطار الدعوة حتى لا يسقط في هذا الأخدود، أو يتعثّر بهذا الحاجز، مما جعله شديد اليقَظة، دائم النهل من منابع الحكمة. وصار قائدًا حكيمًا ماهرًا، يعرف متى يسرع وأين يبطئ، متى يتحرّك وأين يتوقّف، وحرص بقوة على امتلاك خارطة للطريق، توضّح له معالمها وانحناءاتها والْتواءاتها. واستعان بأهل الدربة والخبرة والدراية حتى لا يقع في أفخاخ العلمانيين السلطويين أو في كمائن القانون السائد، فضلاً عن توَقّيه الشديد من الخروج عن سِكَّة "الدستور" والوقوع في وَهْدة "اللاّشرعية".

وفي أغسطس ١٩٧٧م بدأ كولن بالوعظ في إسطنبول، وكانت البداية في مسجد "يَنِي جامع" أي "الجامع الجديد"، وفي هذه الآونة كان قد توصّل إلى أن حلّ مشاكل الأمّة يكمن في إيجاد "الإنسان الجديد"، ولهذا ظلّ مهمومًا في سياق خبرته وسلسلة تجاربه بإيجاد الإكسير الذي يعيد للمسلم جِدّته وفاعليته، بحيث ينتقل من الأثرة إلى الإيثار، ومن طلب الحقّ إلى أداء الواجب، ومن غرور الشعور بالتشريف إلى حسّاسية المسؤولية عن التكليف.

الجدير بالذكر في هذا المقام أن كولن أقام بإزْمِير في كوخ صغير لا تزيد مساحته عن ٢×٢ متر مربع، بناه له أصحاب جمعية مدرسة سوق الكستناء، ومن هذا الكوخ الضيّق انطلقت مسيرته الواسعة نحو إعمار تركيا وإعادة الأَلَق إلى إنسانها المهترئ بفعل فرّ النهارات وكرّ الليالي.

٧-تقدير الحرية في السجون وتقديسها

تُعرف قيمة النعمة عندما تُفقد، وتُعرف القيمُ بأضدادها، وكان كولن قد أُدخل السجن في ١٩٧١م، وهناك تعرَّف على أصناف من المسجونين. ورغم اشتراكهم في ابتلاء السجن، فقد كانوا شركاء متشاكسين، ولذلك أدرك كُولَن أهمّية الحوار للتّعايش، وتحوَّل الحوار بعدها عنده إلى مبدأ وقيمة بل إلى "استراتيجية" ضرورية لإيجاد مجتمع حضاري متمكن. فإذا كان استيعاب تحدّيات السجن غير ممكن بدون حوار، فكيف بابتلاءات الحرية؟!. فلا شك أنها أحوج إلى حوار، حتى لا يتحول التعدد من عنوان "للتعارف" إلى أداة "للتعارك"... وهكذا أدرك نفاسة "الحرّية" في سجن من سجون "العبودية"!

ولاحتواء السجون على أعداد من أصحاب المعادن النفيسة، ممن

تعرّضوا للظلم، أو من الذين غَطَّت أتربة الظروف على معادنهم الثمينة وفطرهم الأصيلة، فقد اكتسب كولن في السجن ملكة النقد التي مكّنته من معرفة معادن "الرجال" وتمييزهم عن "الذكور"، ولهذا كان يُنَقِّب في جنبات السجن عن أصحاب المعادن الصلبة والعناصر الثمينة، حتى يمسح عنهم الغبار ويجلو عنهم الصدأ ويصطفيهم للخدمة.

وبسبب هذه الإيجابية الشديدة التي اتّسمت بها شخصية كُولَن، نجح خلال فترة وجيزة في الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، وفي استثمار القوّة الذاتية لهذا الدين لتَمْتين علاقة المجتمع بدينه، والتمكين لقيم التطور والرقي الحضاري ذي الأسس الإسلامية والإنسانية.

ولهذا تبدلت طبيعة العلاقة بين كُولَن والشيوعيّين الذين كانوا أكثر من الهمّ على القلب في تركيا آنذاك، وبعد أن كانوا يحاصرونه داخل زنزانة ضيّقة في إزْمِير، انتقل أبناؤه لمحاورتهم ليس في تركيا وحدها، بل ذهبوا إليهم في قلب دارهم في جمهوريات ما كان يسمّى بالاتحاد السوفْييتي التي تضمّ شعوبًا إسلامية عديدة، بما فيها روسيا المسيحية ذاتها.

لقد انتمى تلاميذ كُولَن إلى الخدمة التي نهلت من معين الإسلام، وتسلّحت بالقوّة الذاتية لهذا الدين العظيم، وتقوّى هؤلاء بكتائب الأفكار الفتّاكة والقابعة في معسكرات الكتب التي أبدعتها أنامل كولن الذَهبية، وهي كثيرة كما سيأتي في الموضوع الآتي.

ثالثًا: "كتائب" الأفكار في "كتب" فتح الله كُولن[٣]

صار من المعلوم أن الشيخ فتح الله كُولَن من أكثر علماء المسلمين

[٣] ما بين الأقواس هو عناوين لكتب كولن المترجمة إلى العربية.

المعاصرين تأثيرًا على الفكر الإسلامي الحاضر وعلى واقع المسلمين الراهن؛ لكونه مفكّرًا وداعية ومربيًّا، وأوجد تيّارًا باسقًا أصله ثابت وفرعه في السماء، أما فروعه وأوراقه وثماره وأفياؤه فقد امتدّت إلى كل بقاع الأرض.

إن هذا الجَمْع الْمُحْكم في شخصية كولن بين ثلاثية: المفكر والداعية والمربّي، والتفرّغ التام للقيام بهذه الأدوار، لدرجة أنه نسي نصيبه من الدنيا، ولم يذق من طعمها إلا الْمرارة والحرمان، ولم يمتلك من زينتها لا مالاً ولا بنون، هذا كلّه مكّنه من أن يكون خطيبًا ومحاضرًا ومحاورًا ومربيًا ومعلمًا وكاتبًا، حيث صار غزير الكتابة، كثير الخطابة، وترك من وراء ذلك كنزًا لا يقدّر بثمن، وثروة تطاول الزمن.

ومن ذلك تأليف قرابة السبعين كتابًا، يمثل كل "كتاب" منها "كتيبة" كاملة من الأفكار والمشاعر التي ساهمت في فتح العقول والقلوب التي لا يحصي عددها إلاّ الله.

ولو جُلنا في هذه الكتب لرأينا فيها دائرة معارف كبرى، ولوجدنا فيها زاد الألباب والأفئدة، بشمولها وتنوعها وعمقها وظلالها النديّة، وسنمُرُّ في هذه العجالة على عناوين كتب فتح الله المترجمة إلى العربية لنلتمس فيها فرادة الفكر وزاد الروح، أصالة المعاني وجمال المباني، تشويق العناوين وإشباع المضامين.

ومنذ البداية سيلحظ القارئ لكتابات كولن حضور الفخامة وعذوبة التعبير وسلاسة الصياغة، حيث يمتزج جمال المبنى بجلال المعنى، وتتضافران لصياغة أقوم الأفكار وأصدق المشاعر، ويمكن وصف هذه الكتابات بأنها "ترانيم روح وأشجان قلب" إذ سطّرها بنور عقله ودم قلبه،

وبسبب جاذبيتها وشدة تأثيرها وقوّة إشعاعها وعمق ارتباطها الرباني؛ يمكن عدّها "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" لأنه استمدها من صيدلية القرآن، فما مِن داء في هذا الواقع إلا ووجد له دواء ناجعًا وترْياقًا نافعًا في هذه الصيدلية الرّبانية، إذ لم يغادر الله صغيرًا أو كبيرًا من الأدوية، عَلِمَها مَن عَلِمَها من دارسي القرآن، وجَهِلَها مَن جهلها ممن لم يتدبّروا القرآن، يستوي في ذلك من جعلوه قراطيس ومن جعلوه عِضين، فضلاً عمن تحمّلوه في الذاكرة ولم يتحمّلوه فكرًا وسلوكًا. وبهذا ساهم كولن في إحياء أوجُه الإعجاز التربويّ والاجتماعي والتشريعي للقرآن في هذا العصر، وتبوّأ مكانة مرموقة في الفقه الشامل الأصيل؛ لأنه جمع باقتدار بين فقه الواجب وفقه الواقع.

لقد ساهمت كتابات هذا المفكر الداعية في صناعة "الموازين أو أضواء على الطريق" إذ صنع الكثير من القناديل من مادّة العرفان وأنارها بطاقة الوجدان، مما أدّى إلى إضاءة الكثير من القلوب والدروب، وتبديد مساحات عريضة من الدياجير الحالكة، وإطفاء الكثير من الحرائق المشتعلة والفتن العمياء، وتوفير الزاد للسائرين في صراط الله المستقيم.

وساهمت هذه الكتابات أيضًا في تبديد حيرات الطرق المتشابهة وتمزيق ظلمات الجهل، وتوفير الإجابة الشافية عن "أسئلة العصر المحيرة"، فقد أوجد لكل سؤال جوابًا، وصاغ لكل مشكلة حلاًّ، ورسم لكل متاهة مخرجًا، وساهم في الكشف العلمي البرهاني عن تهافت الكثير من الشبهات التي أُطلقت ضدّ الإسلام، ولاسيما ما يتعلق منها ببيان "حقيقة الخَلْق ونظرية التطور" التي برزت على يد تشارلز دارْوِين، وكان لها حضور طاغ وتداعيات سلبية في تركيا وأكثر بلدان المسلمين طيلة عقود عديدة.

وفي ذات السياق اهتمّ هذا العملاق بإبراز "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"، فأحسن وأجاد في بيان الصورة الوضيئة للجهاد، وإزالة ما علق به من تشوهات نتيجة ما ران عليه من غَبَش (الجمود) التقليدي وما التصق به من كيد "الجحود" التغريبي.

ولما كان كولن داعية بجانب كونه مفكّرًا، فقد امتلك تجربة ثريّة في التوجيه والتأثير، ومقدرة عجيبة في الوعظ والإرشاد، إذ حباه الله بجاذبية آسرة، بسبب مواهبه الطبيعية، التي صقلها وحلّاها بعلمه الوافر وإخلاصه البالغ، وبسبب مواءَمته في الأفكار والأفعال بين العقل والقلب أو بين الفكر والوجدان؛ فقد راكم تجارب بالغة الثراء، وامتلك خبرات شديدة الأثر، ولهذا أهدى الدعاة إلى الله عصارة تجاربه ورحيق خبراته، من خلال قيامه بالكشف عن "طرُق الإرشاد في الفكر والحياة"، وعرض للموضوعات العقدية والفكرية الملتبسة والتي ساهم سوء الفهم لها عند كثير من المسلمين في تعميق وتأصيل تخلّفهم المعاصر، ومن هذه الموضوعات الخطيرة: الموقف من الأسباب، حيث كشفه بجلاء سافر، عندما نجح باقتدار في قراءة "القَدَر في ضوء الكتاب والسنة"، وانتقد الأفهام الجبرية التي جعلت المسلم كالريشة في مهبّ الرياح، تحت ذريعة الإيمان بالقدر، داعيًا إلى مدافعة الأقدار بالأقدار كإحدى السبل للخلاص من الغثائية المعاصرة.

هذا المفكر يمكن القول إنه فريد عصره وعملاق دهره، وقد بدا تميّزه منذ البداية بانتمائه إلى "القلوب الضارعة" التي تعلّقت بالله العظيم، فاتّجهت إليه، وتمحّضت له، وفَنِيَت في حبّه والوَلَهِ فيه، وبقدر شعورها بالضآلة بين يديه تعالى صارت عظيمة بمواقفها واهتماماتها، بعيدة عن

السفاسف، حريصة على المعالي، وهذا كله صار بعضًا من سجايا كُولَن، ولهذا جعل همَّه الأكبر وغايته العظمى الاتجاه نحو "التلال الزُّمُرُّدية: نحو حياة القلب والروح" ليس من خلال الشعارات والشعائر فقط، حيث العبادة اللاّزمة، ولكن من خلال المساهمة الفاعلة في تشكيل "ملامح الجيل المرتقب" حيث العبادة المتعدّية، التي يتضاعف أجرها بقدر اتساع المستفيدين منها ماديًّا ومعنويًّا، ويستمر ريعُها بعد الممات، ما دام هناك من يستفيد منها في شؤون المعاش وأمور المعاد.

وكلما اتجه الناس لإقامة صروح الدنيا، صروح الذات: الهوى واللهو والشهوة والزينة والمتاع، صروح الغواية والإغراء، صروح المجد الشخصي والأنا العليا والهُوَ الْمُتَسفِّلة، وكلما تسفَّل بعضُهم أكثر في هذا المنحدر، ازداد كولن علوًّا وسموًّا، وازدادت وتيرة عمله نشاطًا واتّساعًا، ليصبح حَدْوُه وحُداؤه: "ونحن نقيم صرح الروح".. يقولها بلسان الحال ويهتف بها عن طريق السلوك. إنها الروح التي تجعل من عمارة الدنيا عبادة تصنع العزّة في الأرض، وتنسج الفلاح في السماء، حيث تتضاعف الأجور وتتراكم الحسنات على كل الحركات والسكنات، بما فيها مقاربة المباحات ومقارفة الشهوات، حتى النوم يكون مأجورًا عليه كما قال الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "إني لأحتسب نَوْمتي كما أحتسب قَوْمتي". ولهذا كتب الله لفتْية الكهف أجر عبادة ثلاثمائة وتسع سنوات على نومة ناموها، لأنهم ناموا بأرواحهم وليس بأشباحهم فقط.

إنها الروح التي تُعِيد لأمّة المسلمين كرامتها وحرّيتها، ولذلك ظلّ ديْدنُه ودَنْدَنَتُهُ: "ونحن نَبْني حضارتنا"، لكن الحضارة لا تعني شيئًا بدون الإنسان، فهو المقصد قبل أن يكون الواسطة، ومن هنا اعتنى كولن بتربية

الفرد: تخليةً وتحليةً، مبنًى ومعنًى. وعمل حثيثًا على إيجاد الإنسان الجديد الذي يتمثل قيم القرآن ويستدعي نموذج الصحابة من جديد، الجيل الذي وصلت البشرية عبره إلى ذروة الرشد وقمّة السداد وإلى سقف الكمال البشَري النسبي.

الجدير بالذكر أن هذا القنديل الذي استضاءت بنوره قلوب مظلمة، واستنارت بفكره عقول معتمة، اقتبس نوره من مصادر كثيرة: قديمة وحديثة، إسلامية وإنسانية، لكن المصدر الأول والأكبر هو "النور الخالد: محمد ﷺ... مفخرة الإنسانية" الذي أحبّه كولن حتى الثمالة، وصار حبُّه يجري في دمه مزاحمًا كُريّات الدم البيضاء والحمراء، واستمدّ منه الأنوار والأزواد، وتأسّى به في كل صغيرة وكبيرة.

إنها كتائب الأفكار التي حشدها فتح الله ليفتح بها آذانًا صُمًّا وعيونًا عميًا وقلوبًا ميّتة، حيث توافرت لها صوابية العلم وروحية الإخلاص، فآتت ثمارها كل حين بإذن ربها، فمَن ذا الذي يمكن أن يقف أمام هذه الكتائب الناعمة التي لا تمنع حركتها الحدود ولا تغلّ انطلاقها القيود؟!

الفصل الثاني
سمات الحكمة "الكولنية" في التجديد الحضاري

- أولا: الانطلاق من الإسلام والدعوة العملية إلى مقاصده
- ثانيا: التجدد بالإيمان وتجديد الحياة به
- ثالثا: النزعة العملية وتحري سبل الفاعلية
- رابعا: الإصلاحية الأفقية التحتية
- خامسا: الخدمة الاجتماعية والجهاد الأبيض
- سادسا: العروج الحضاري بجناحي العقل والقلب
- سابعا: التوازن بين الأزمنة الثلاثة
- ثامنا: الوحدوية والحس الأخوي

إن ما أنجزه فتح الله كُولَن لا يمكن قياسه بعمر الأشخاص؛ لحكمته البالغة حيث يعرف كيف يضع كل شيء في مكانه وزمانه المناسبين، ومن خلال قراءتي لكتبه المترجَمة إلى العربية، ومشاهدتي لمنجزاته في الواقع العمَلي، واقترابي من هذه التجربة بعد زيارتي لتركيا وحضوري لعدد من المؤتمرات والندوات التي كان كولن عنوانها، أستطيع أن أجزم أنه مجدّد تركيا في هذا العصر، ولاسيما في مطلع الألفية الثالثة، والتجديد الذي تبوّأ كولن مكان الصدارة فيه، يتميّز بعدد من السمات أهمها:

أولاً: الانطلاق من الإسلام والدعوة العمَلية إلى مقاصده

عرفنا أنّ فتح الله انحدر من أسرة متديّنة، فقد كان جدّه شامل آغَا مثالاً للتديّن والمحافظة، وكان أبوه رامِز أفَندي إمامًا لعدّة مساجد، وكانت أمّه مثالاً للصلاح وعمل الخير، وهذا انعكس على تربيتهما لأبنائهما، وهذا واضح حتى في الأسماء، رغم تشديد العلمانية على معاداة الأسماء الإسلامية والعربية، وقد كان لفتْح الله عدد كبير من الإخوة والأخوات هم على الترتيب كالتالي: نور الحياة، فضيلة، "فتْح الله"، صبغة الله، المسيح، فقير الله، حسبي، صالح، ثم فضيلة -الأخرى بعد موت الأولى-، نظام الدين، قطب الدين.[1]

كان شديد التديّن وهو صغير، واتّسم بالورَع منذ نعومة أظفاره،

[1] أورد هذه الأسماء، د. فريد الأنصاري في كتابه الروائي: عودة الفرسان، ص:١٩٣.

وحمل بين جوانحه حبًّا جامحًا للرسول ﷺ ولهذا الدين، وظل شديد الشعور بالمسؤولية عن هذا الدين، وتنقّل في مرحلة الإعداد لذاته بين كل مَن يعرف أو يسمع عنهم لطلب علوم الشريعة وعلوم اللّغتين العربية والفارسية، إضافة إلى التركية.

ومن خلال هذه اللغات أحاط بعلوم الإسلام، مفرقًا بين الثوابت والمتغيّرات، الثوابت التي عضَّ عليها بالنواجذ، محافظًا على أصالتها؛ والمتغيرات التي سعى لتطويرها وتجديدها من خلال رؤاه الخاصة التي كانت ثمرة لاستيعاب مقاصد الإسلام والانفتاح على حضارة الغرب وثقافته بما فيها من علوم ورؤى وأفكار وإنجازات، ومثالب ونواقص، ولهذا امتلك غربالاً ميَّز بواسطته بين الحسَن والقبيح، وبين الغثّ والثمين.

وقد أحسن كولن استمطار سحب القرآن من خلال التدبّر الواعي، والتنْزيل الجديد للقرآن على مشاكل الأمّة والتحدّيات التي تواجهها، فأحسن معرفة الداء، وتوصل إلى وصفات عميقة في معالجة هذا الداء (التخلّف الحضاري) وما نجم عنه من علل وآفات.

وعلى سبيل المثال في قراءته لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المَائِدَة:٥٤)، تحدّث عن ﴿قَوْم﴾ التي وردت نكرة، ليشير إلى أنّهم غير معروفين عند الصحابة آنذاك، ولذلك عندما عجز الأمويّون عن حمل الأمانة، حملها العبّاسيّون، وعندما عجزوا حَمَلَهَا السلاجقة، ثم العثمانيون.. وركز على صفاتهم، بحيث يبدو لمن عرف تيّار الخدمة الذي يقوده أنّه يُعدّه ليكون القائم

بحمل الأمانة بحيث يكون أفراده أهلاً لمن سيأتي الله بهم ويستبدل بهم غيرهم، ولاسيما ما يرتبط بالحب لله والذلّة على المؤمنين، والجهاد في سبيله، مع مراعاة أنّ معنى الجهاد أوسع بكثير من معنى القتال.[٢] ولأنّ حركته إسلامية، فقد حدّد أهدافها بـ"إعلاء كلمة الله، والخدمة، والتضْحية في سبيل الآخرين، ونذْر النفس للحقّ تعالى وللخلْق". وهي أهداف دينية واجتماعية.[٣] يقول فتح الله كولن: "إن أساس حياتنا المعنوية قائمة على الفكر الديني والتصوّرات الدينية. ولقد حافظْنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضًا منطلقة منه، فإن جرّدْنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلّفين ألف سنة إلى الوراء."[٤].

ولهذا تميّز كولن بشدّة الإخلاص والتقوى والورَع، وحثّ تلاميذه ممن يريدون أن يكونوا ورَثة الأرض على تَخْلية قلوبهم من كلّ ما سِوى الله، وتعهُّد هذه القلوب بالرّعاية، وتزكيتها من الشوائب بدوام المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، وركّز على هذه القضية في كل كتبه تقريبًا، لكنّه أفرد لها كتابه الرائع في مبناه ومعناه، وتتضح روعته حتى من العنوان، وهو "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح".

ويعرِّف الإخلاص بأنه: "صفاء القلب، واستقامة الفكر، والبعد عن الأغراض الدنيوية في العلاقة مع الله، وإيفاء العبودية حقّها.."[٥]، وينقل عن أستاذه النورسي ما يؤكّد القيمة الكبيرة للإخلاص: "لأن ذرّة من عمَل

---

[٢] انظر شرح هذه الآية في كتابه: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص:١٤٥-١٥٠.

[٣] فتح الله كولن: جذوره الفكرة واستشرافاته الحضارية، محمد أنَس أركنه، ص:٣٢٦.

[٤] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٧.

[٥] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/١١٢.

خالص أفضل عند الله من أطْنان من الأعمال المشوبة"[٦].

ويؤكّد كولن أن "الإخلاص أصدق وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيرًا والضحل عميقًا والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة. حتى يستطيع الإنسان بواسطتها طلب أغلى ما في سوق الدنيا والآخرة. ويتمكّن بفضلها أن يقابَل بالاحترام والتوقير رغم كثرة الطالبين"[٧]. ورأى أن أهل الكهف حصلوا بالنّية الصالحة على أجور عبادة ثلاثمائة وتسع سنوات.[٨]

والإسلام عنده ليس شعارًا يرفع، أو دعوى تدعى، أو عنوانًا يجذب الجماهير، بل هو إيمان قلبي، يثمر أعمالاً صالحة، بحيث يرتقي صاحب الخدمة من درجة الإسلام إلى درجة الإيمان.

ثانيًا: التجدُّد بالإيمان وتجديد الحياة به

وفقًا لسنن الله، تغيَّر المسلمون في القرون المتأخرة، فغَيَّر الله حالهم من وحدة إلى تفرّق، ومن قوّة إلى ضعف، ومن عزّة إلى ذل، ومن غنى إلى فقر، ومن علم إلى جهل، ومن تقدم إلى تخلف.

وبعد أن وصلت أمّة المسلمين إلى قاع الانحطاط الحضاري، فإن كثرة الصدمات التي تعرّضت لها، جعلتها تُراجع نفسها حتى بدأت تصحو، وبدأت هذه الصحوة تتحول عند بعض التيّارات إلى يقَظة كما هو حال تيار الخدمة في تركيا.

فقد ارتفعت هذه الحركة فوق مستوى الصحوة، ووصلت إلى درجة

---

[٦] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/١١٣.

[٧] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/١١٤.

[٨] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٢٢.

اليقَظة، حيث أصبح الإسلام مسمى لا اسْمًا، وانتقلت الحركة من الانفعال بالإسلام إلى الفاعلية به، من خلال ترجمة الإيمان إلى مشاعر تُجدّد الذات، ومشاريع تجدّد المجتمع، أي أنها انتقلت من الحديث عن الإسلام إلى الحياة به.

ولا يمكن أن يصير الإسلام طاقة تُجدّد الذات وتعمر الحياة، ما لم يصل أبناؤه إلى درجة الإيمان، وهذا ما يُميّز حركة فتح الله كولن، رغم أنها تعيش في وسط بيئة صنعت بعناية لمعاداة الإيمان، لكن الإيمان العملي المنتشر في شعاب الحياة يثير الإعجاب حتى عند العلمانيين، ولاسيما إذا جاء تحت مسميات وعناوين عصرية أو وطنية أو اجتماعية أو إنسانية.

إن الإيمان هو الذي يصنع ورَثة الأرض، وورثة الأرض هم الذين يُجيدون قراءة الشريعة القرآنية، والشريعة الفطرية (آيات الأنفس والآفاق)، وهذا يعني القراءة العصرية للقرآن، مما يؤدّي إلى إظهار ثماره، واستثمار سنن الله التي ترفع من فاعلية الإنسان، وتساعد على استثمار طاقت الكون في عمارة الأرض.[٩]

ويرى كولن أن الديمقراطية التركية ساهمت في رفع القيود عن التجديد الإسلامي، سواء في دائرة الفقه أو الفكر أو التصوف أو التربية والتعليم، وأن التجديد والانبعاث المأمول في الحاضر إنما يتحقق بالجمع بين كل هذه الدوائر، مع ضرورة: "الانسلاخ من القالب إلى اللبّ، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضًا التوجّه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر"[١٠].

---

[٩] انظر: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٤-١٩.

[١٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٩.

وبعد أن يصف أهمّ علل العالم الإسلامي يقول كولن: "لذلك نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعًا إلى التجدّد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام، وممارسة الإحسان، وإثارة العشق والشوق، وتحكيم المنطق، وتعديل طريق التفكير، وأسلوب التعبير عن الذات، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال..."[١١].

"إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى انبعاث جديد"، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبتعبير أكثر حيَوية، إلى "إحياء".. إحياء يستجيب لمتطلبات جميع أصناف البشَر، ويحتضن الحياة كلّها، في كل زمان ومكان، بقدْر السعة والعالمية التي تتسع لها مرونة النصوص، مع السعي الجاد للحفاظ على أصول الدين"[١٢]. وهكذا، فإن هذا التجديد ينطلق من الإيمان، ويستفيد من أرصدته وطاقاته في تعمير الحياة، وهو مع ذلك يمتلك البوصلة التي تسمح له بالسير الآمن في مجاهل الفكر والفقه، لأنه يحمل الخارطة التي تفرق بين الثوابت والمتغيرات.

وهكذا، فإن إحدى سمات التجديد عند كولن هي إعادة الحياة إلى الإيمان، بحيث يبقى شجرة مثمرة، تتوزع ثمارها على كل شُعب الحياة وميادينها، ويبقى وثيق الصلة بعمل الصالحات، وهذا يقودنا إلى سمة جديدة.

ثالثًا: النزعة العملية وتحرّي سبل الفاعلية

في طريقه لإحياء الصحابة، وإيجاد صفة ورَثة الأرض في أتباعه، فإن فتح الله كولن لم يقف عند الوعظ والكتابة والتنظير، ولا عند إقامة الشعائر

---

[١١] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٤.

[١٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٦.

التعبدية، بل انطلق مع أصحابه لعمارة الحياة وفق منهج الله تعالى، وما وفّره العصر والتقدّم العلمي من وسائل وأساليب وخبرات، وفق حاجات المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وهم بهذا يدركون تمامًا سرّ ربط القرآن في العشرات من آياته بين الإيمان وعمل الصالحات.

ويبدأ طريق العمل الطويل، ببناء الذات وتحريرها من اللذّات، وانطلاقها لتطبيق كل ما تقوله وتدعو إليه. وفي سياق تعليقه على قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤)، أكّد فتح الله على وجوب تطبيق الإنسان أولاً ما يدعو الآخرين إليه "وألا يكون هناك تناقض بين القول والقائل"، إذ أن العيش بالإسلام عبادة وتبليغه عبادة أخرى "فمن لم يطبق كلَيهما حمل ذنبين وابتعد عن قوة التأثير بخطوتين، ومن لم يطبّق أحدهما حمل ذنبًا واحدًا وابتعد عن التأثير خطوة واحدة"، ولهذا "كان على الواعظ وعلى الناصح والمرشد والمبلّغ والكاتب والمبرمج أن يكون جادًّا في الأعمال التي يقوم بها لكي يؤخذ مأخذ الجدّ ولكي لا يلقي أيّ ظل من الشكّ على المواضيع التي يتناولها ويقدمها"[١٣].

وفي هذا السياق، سياق العروج بالأعمال نحو الفاعلية، حثّ على استنفاد الأخْذ بالأسباب في مواضع كثيرة من كتبه،[١٤] ورأى أن المعجزات نفسها -وهي خرق للقوانين والأسباب- لم تخل من نصيب للأخذ بالأسباب،

[١٣] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٦١-٦٣.

[١٤] انظر مثلاً: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٤، ٢٥؛ أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٠٨؛ الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٥٨، ٢١٢، ٢١٥.

وذلك في معرض شرحه لقصّة حمل مريم من دون زوج، وحمل زوجة زكريا عليهما السلام وهي في خريف العمر، بل وكانت عاقرًا، إذ دهش الطرفان عند البشارة لارتباطهما بعالم الأسباب التي هي جزء من منهج العبودية لله، مع إدراك أنها لا تعمل خارج إطار إرادة الله وفاعليته المطلقة.[١٥]

ولا يفتأ يربط كل الشعائر بفريضة العمل، ويشقّ الطرق نحو الفاعلية وصناعة الحياة؛ ففي ذكْر الله في القتال -مثلاً- يرى أنه صيحة متكررة: "الله، الله، الله. هذه الصيحة مهمّة لأنها تؤثر سلبيًّا على معنويات العدو، وتزيد من معنويات جبهة المسلمين حيث تبعث فيهم الشوق والحماس"[١٦]. فالذكر ليس عبادة غيبية عدمية إذًا، إنما هو مرتبط بعمارة الأرض بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وهكذا، فإن رؤية كولن للإسلام رؤية عملية، فالمرء يجد -كما يقول- "إمكانية ترجمة أفكاره -التي يؤمن بها ويضحّي في سبيلها- إلى الحياة، في أثناء أدائه هذه الوظيفة، فضلاً عن أن ما يحمله من إيمان لا يبقى فراغ؛ إذ الإسلام حقيقة هو معايشة وحياة، فلا يُفهم ما لم يكن معيشًا"[١٧]. وهو -أي الإسلام- "نظام إلهي يربط العلم بالعمل ربطًا محكمًا، ففي إحدى جانبيه الإيمان، والجانب الآخر تحويل هذا الإيمان إلى عمل وفعالية... نعم، الإسلام إيمان وعمل، فالذين يتكلّمون عن العمَل الإسلامي من دون أن يدركوا أن الإسلام إيمان وعمل كلامهم هذر ليس إلاّ"[١٨].

---

[١٥] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص: ٦٨، ١١٥، ١١٦.

[١٦] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٧٧.

[١٧] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٢٢.

[١٨] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٤.

ورغم النزعة العملية الشديدة في حركة فتح الله كولن، إلا أن عملها ليس صاخبًا، بل هو عمل هادئ، حيث يرى كولن "أن كل نشاط يجب أن يجري في سكون وصبر يحاكي سكون وصبر المرجان الذي يتكاثر بهدوء ودون ضوضاء في أكثر الأماكن هدوءا أو بعدًا عن الأنظار"[١٩]. وهذا ينقلنا إلى السمة الرابعة، حيث العمل الهادئ الذي لا يجلب الأنظار، ولا يستفزّ طاقات الخصوم أو يجلب الأعداء.

رابعًا: الإصلاحية الأفقية التحتية

بالتأكيد أن القارئ من خلال ما سبق قد لاحظ أن حركة فتح الله كولن حركة إصلاحيّة وليست ثورية، أي أنها تعترف بوجود إيجابيات كثيرة في المجتمع وتبني عليها، ولا تسعى لإحداث تغيير جذري وشامل للأوضاع. وفي ذات الوقت فإن عملية الإصلاح هذه تبدأ من تحت وليس من فوق، ولذلك ليست لها أيّ اهتمامات سياسية، وإنْ كانت تدعو أفرادها إلى أن يكونوا إيجابيّين في القضايا الرئيسية الهامة، وخاصة في الانتخابات، من دون تخندق أو تعصب، بحيث يختار كل فرد ما يراه مناسبًا لمنطقته ووطنه وعمله الدعوي والحركي، بل ومصلحته الشخصية إذا كانت جزءًا من المصلحة العامّة للمجتمع.

هذه الرؤية قادت حركة فتح الله إلى الانفتاح على المجتمع التركي برمته، بكل ما فيها من طوائف وتيارات وأقلّيات عرقية ودينية، فضلاً عن الانفتاح على عامة الشعب "فهي تهدف إلى التلاؤم مع هذا المجتمع وإلى

[١٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٠.

الإسهام فيه، وتدعو إلى الأخوّة الأبدية"[٢٠].

إنّ حركة فتح الله كولن تؤكّد، من خلال مُنظِّريها ومن خلال سلوكياتها وتصرفاتها في الواقع، أنها حركة قاعدية تحسن الظن بالجماهير، وتسعى لتجسير الْهُوَّة العملية بينهم وبين إسلامهم العظيم وتأريخهم المجيد،[٢١] بحيث تكتشف طاقاتهم لتصقلها وتوظّفها، وتكتشف ثغراتهم ونقاط ضعفهم لتسددها وتعالجها، ولهذا فهي تقوم بالبناء من تحت، ولا تحاول البناء من فوق، لأن هذا يتصادم مع نواميس الله وسننه في هذا الوجود.

وفي هذا الإطار انتقد فتح الله كولن الحركات التي لا تعمد إلى إصلاح الأوضاع من تحت، حتى قال: "وأما انتظار الدّولة والسلطة فهو سلوان كاذب لا يقوم على سند. فلا يمكن أن تتحقق الدولة والسلطة إلا بالقصد إلى فكر سام يمنحها الحياة في المجتمع، ويغذّيها، ويبرمج كل شيء بموجبه، والالتفاف كخيوط المغزل حوله.."[٢٢].

ويستدعي التغيير التحتِيّ القيام بجهود جبارة في مجالات التربية والتعليم وترميم البنى الاجتماعية المادية والمعنوية، وحراسة الثغور في جبهات عدة في آن واحد عبر جهادٍ يَعْبُرُ إلى كل الدوائر سوى دائرة العنف والقتال، ويستخدم كل الأسلحة سوى السلاح العسكري، ويستثمر كل الوسائل سوى ما يتعارض مع الإسلام وقوانين البلد وأخلاق المجتمع، وهذا بالضبط ما فعله تيار الخدمة داخل تركيا وخارجها.

---

[٢٠] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:١١١.

[٢١] انظر مثلًا: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:١٠٣، ٢٩٢.

[٢٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١١٨ (بتصرف يسير).

خامسًا: الخدمة الاجتماعية والجهاد الأبيض

استخدم القرآن مصطلح الجهاد في القرآن المكي، مثل قوله تعالى عن القرآن: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢)، أما القتال فلم يُشرع إلا في المدينة المنوّرة عندما قامت دولة المسلمين، وحاولت الحراب أن تتناوشهم من هنا وهناك، عندها نزلت آية الإذن بالقتال في السنة الثانية للهجرة، وهذا يعني أن دائرة الجهاد واسعة جدًّا، وهذا ما أبرزه فتح الله كولن في كتابه "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام".

في بداية هذا الكتاب ناقش كولن مفهوم الجهاد، وبعد أن عرَّفه من الناحية اللغوية رأى أنه -أي الجهاد- يجري في جهتين اثنتين: الأولى موجهة إلى الداخل، والأخرى موجهة إلى الخارج، ثم قال: "إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربّه. أما الجهاد الآخر المُوَجَّه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربّهم. ويطلق على الأول "الجهاد الأكبر" وعلى الثاني "الجهاد الأصغر"[٢٣].

ومن خلال قراءة حركة الخدمة فكرًا وممارسة، يجد المرء أنها حركة جهادية من طراز رفيع رغم أنها لم تطلق طلقة واحدة، ولم تُرِقْ قطرة دم واحدة؛ إذ أنها تتحرك في إطار الجهاد الأبيض الواسع وتستهلك كل طاقتها هناك، وتنجز كل عام عددًا من الفتوحات المدنية الناعمة في جبهات التربية والتعليم، عبر بناء ما يزيد عن ألفي مدرسة نموذجية في تركيا وفي مائة وستين دولة في العالم؛ وبناء أكثر من خمس عشرة جامعة ضخمة، أهمّها "جامعة الفاتح" في إسطنبول؛ وإيجاد المئات من المدن

[٢٣] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢١.

والمباني السكنية الجامعية، بحيث يمكن القول أن هناك مليونين من الطلاّب الذين يستفيدون من خدمات هذا التيار أو من جهاده الأبيض الذي يدرأ به فتنة الجهل والفقر والفرقة عن أعداد كبيرة من المسلمين كل عام.

"فالجهاد الأصغر إذًا هو تنفيذ أوامر الدين عمليًّا وأداء ما كلف به الإنسان؛ أما الجهاد الأكبر فهو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تعيقه عن الكماليات من حقد وحسد وأنانية وغرور وكبْر وفخر وأمثالها من الأمور التي جُبلت عليها النفس الأمّارة بالسوء. فهذا الجهاد عسير وشاق، ولهذا سمي بالجهاد الأكبر"[٢٤].

وفي هذا الدرب مارس تيار الخدمة إلى جانب الجهاد التربوي التعليمي، الجهاد الإعلامي، إذ عبر عشرات المجلاّت، وعشرات من دور النشر التي تطبع ملايين النسخ من عشرات الكتب سنويًّا، ويكفي أن نعرف أن صحيفة "زَمان" تطبع يوميًّا مليون نسخة، وهي الأولى على مستوى تركيا، وتوزّع في عدد من دول العالم، ولاسيما في أوربا وأمريكا ووسط آسيا.

ويركّز فتح الله -في مخاطبته للمسلمين عمومًا وأتباعه خصوصًا- على توجيههم إلى الفتوحات الناعمة والجهاد الأبيض، حيث يقول على سبيل المثال: "فمَن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أوّلاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئًا من الخارج"[٢٥]. وبهذا يصرف طاقات الشباب نحو بناء الذات وإعمار الحياة، ويَحول بهذا بينهم وبين الانجراف نحو الإرهاب المتدثر بدثار "الجهاد". فالإرهابي عند كولن ليس مسلمًا، والمسلم لا يمكن أن يكون إرهابيًّا. وهذا الاستخلاص

[٢٤] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٩.

[٢٥] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٤.

جاء نتيجة قراءة دقيقة لمقاصد الإسلام ولحقائق الواقع.

ويؤصّل كولن لبناء الذات فيقول: "إن أمّة ترزح تحت الذل والهوان لا يمكن بحال أن تمثّل الحقائق السامية، فكيف لها أن تعرض هذه الحقائق إلى غيرها؟ وأنّى لغيرها أن تتقبّل منها وهي تعاني الذلّ والهوان. لذا ينبغي أن نثبت قوّتنا وطاقاتنا على أعلى مستوى في جميع مرافق الحياة الأساسية التي توقف الأمة على قدمَيها قويّة عزيزة"[٢٦].

وفي عمليات الإصلاح التحتي الشامل التي يقوم بها تيّار الخدمة، فإن الرؤية تنطلق من أنّهم يقومون بوظيفة الجهاد، ولهذا يستخدم كولن أحيانًا المصطلحات القِتالية في التعبير عن عمليات الجهاد المدَني وحلقاته، كما يقول مثلاً: "واليوم هذا النفير التربوي بأسمائه وعناوينه المتنوعة، وهذا الجهد المنصرف إلى الحب والتسامح والحوار، همّة مهمة في سبيل لملمة شعث المجتمع وتحريك مصادر قوته المعنوية"[٢٧]، فاستعار مصطلح النفير من الميدان العسكري إلى الميدان التربوي.

وفي معرض توصيفه لإنسان الفكر والعمل الحركي الذي يريده، قال كولن: "إنه وليّ الحقّ اللدنّي، الذي يُعِدّ "قادة أركان" الروح ومهندسي العقل وعمّال الفكر، بدلاً عن استخدام القوّة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش، وينفخ بلا كلل نَفَس البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب"[٢٨].

وهكذا، فإن لبّ هذا التيار هو الجهاد المدَني الأبيض الذي يقدم الخدمات

---

[٢٦] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٩٤.

[٢٧] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٢.

[٢٨] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٧٢.

التربوية الاجتماعية والإعلامية والاقتصادية لكل أبناء المجتمع وفْق المستطاع، ومن هنا جاءت تسمية هذه الحركة بحركة -أو تيار- "الخدمة".

ومن المعلوم أن كلّ هذه الخدمات التي يقدّمها هذا التيار للمجتمع التركي، ثم لمجتمعات العالم الإسلامي، ثم إن استطاع للمجتمعات الإنسانية عامّة، لا يمكن أن تقوم إلا على عمود التضحية وهي القاسم المشترك بين أفراد الخدمة.

ونشير إلى مثال واحد وهو التربويون في هذا التيار، فهم متوزّعون في مائة وستين دولة -كما أسلفنا- بعضها دول متخلفة جدّا، وبمرتبات عادية إن لم تكن متواضعة، مع أن أغلبهم من أصحاب الدرجات العالية في الثانوية وكان بالإمكان إدخالهم في أرقى الكلّيات والوصول بهم إلى أرمق الوظائف وأرقى المراكز، ومع ذلك ضحّوا واستمرّوا. ومثلهم التجّار، والإعلاميون، والعمّال.. ولهذا فإن كولن يُطلق على هؤلاء مصطلح "الإبْراهيميّين" لأنهم هاجروا في سبيل الدعوة كما فعل إبراهيم عليه السلام[٢٩].

يقول فتح الله عن أهل الخدمة والتضحية: "ونرغب دائمًا إلى إشغال مكان بين الذين يتلقّون الحرائق بصدورهم ويولّون للمنافع الذاتية أدبارهم. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحرّكاتنا موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية المغروسة عروقها عقيدة في أرواحنا"[٣٠].

ويخاطب أتباعه في موضع آخر، داعيًا إيّاهم إلى المزيد من التضحية، فيقول بأسلوبه الأدبي الآسر للقلوب: "نحن في انتظار أن ينشقّ النهار في أمّتنا.. نعم تقيمون الليالي الطوال وتقتحمون المصاعب والعسير من

---

[٢٩] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٩٩.

[٣٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٩٧.

الأمور، وتَعْبُرون أنهار الدماء، وتدَعون وراءكم أمثال أحُد من الجبال ثم تنعمون بفتح مكّة والنصر في واقعة "جَالْدِرَان". ثم سيموت كلّ ذلك بعد شتاء قارس، وبعد ليل بهيم، بعد اختلاج آلاف الأوجاع واجتراع آلاف الآلام. ولا جرم أن لكل ولادة مخاضًا، فالذين يريدون أن يذوقوا لذّة الولادة عليهم أن يرضوا بآلام المخاض"[٣١]. ولأهمّية التضحية ضمن آليات حركة فتح الله وديناميكيتها الداخلية، فإنه كثيرًا ما يحثّ أتباعه عليها، ويصفهم بأوصاف التضحية المثالية، مثل قوله عن رجل الخدمة بأنه "كالجَواد الأصيل الذي يعدو حتى يكاد أن ينشقّ صدره، أو كالنسر الذي أفرد جناحيه للطيران"، وهكذا.[٣٢]

ولكن هل تكفي التضحية للعروج الحضاري المنشود؟ أم أنها بحاجة إلى متطلبات أخرى؟

سادسًا: العروج الحضاري بجناحَي العقل والقلب

لا شكّ أنك -عزيزي القارئ- من خلال الدعوات الإسلامية التي قرأت عنها، قد وجدت حضور العقل أو القلب في أكثرها، ولا بد أنك صادفت بعض الدعوات التي جمعت بين العقل والقلب، ولكن لا أظنّك وجدْتَ التوازن الدقيق بين الجَناحين كما هو الحال في دعوة فتح الله كولن.

صحيح أن الإسلام يقيم هذا التوازن الدقيق، ولكن في تديّن المسلمين النسبي وتفاعلهم الكسبي، كثيرًا ما يكون التعمّق في المفردات العقلية على حساب القلب والروح، وكثيرًا ما يكون التوسّع في الشؤون الروحية على

---

[٣١] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٨.

[٣٢] بتصرف كبير عن: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٣٣٨.

حساب العقل، مع وجود فوارق نسبية بين مختلف الحركات والتيارات والشخصيات.

أما في دعوة فتح الله كولن، فإن حضور الروح فيها يُظهرها لأول وهلة كأنها حركة صوفية بحتة، حيث يتّسع الحديث عن الروح أُفُقيًّا، ويتعمّق رأسيًّا في كتاباتِ ومحاضراتِ وخطبِ ومناشطِ كولن، وهذا واضح حتى من عناوين كتبه المترجمة إلى العربية، مثل: "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح"، "ونحن نقيم صرح الروح"، "القلوب الضارعة"، "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، "ترانيم روح وأشجان قلب".

وأما مكانة الفكر في دعوة فتح الله، فهو من القوّة بمكان، بحيث يجعلها اهتمامها بالفكر حركةً فكريّة من طراز رفيع، ولاسيما أن صاحبها قام بحرث الأرضية الثقافية للفكر الإسلامي، مستخرجًا منها نقاط القوة لتعزيزها وتجسيدها، ونقاط الضعف لتجاوزها أو تقويتها إن أمكن، وركز على الموضوعات التي يكثر فيها اللبس، ويشتد الفهم المغلوط فيها، مثل موضوع القدَر الذي ناقشه في كتاب كامل: "القدَر في ضوء الكتاب والسنّة"؛ وموضوع الجهاد الذي تحوّل إلى برميل بارود عند أعداد غير قليلة من المسلمين، بسبب سوء الفهم، حيث عالجه بطريقة راقية في كتاب رائع سمّاه: "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"؛ ولما كانت الداروينية هي الأرضية التي مكّنت لموجات الإلحاد التي انتشرت في أوساط شباب تركيا في العقود القليلة الماضية، فقد ألّف كتابه القيم: "حقيقة الخلق ونظريّة التطور" وناقشها نقاشا علميًّا مستفيضًا.

أما الأسئلة القلقة والموضوعات الملتبسة فقد ناقشها كولن مع تلاميذه، وجمع بعض تلاميذه خلاصة كلامه في هذه المسائل في كتاب

عنوانه "أسئلة العصر المحيِّرة".

ولأهمّية القرآن في إرساء الفهم الفكري المستنير والموقف الروحي السليم، فقد ظل كولن يدارسه مع تلاميذه، ومرة أخرى جمع تلاميذه بعض ما سجّلوه في كتاب خاص اسمه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"؛ وفعل شيئًا من هذا القبيل في كتابه الآخر "طرُق الإرشاد في الفكر والحياة"، وقريب منه كتاب "الموازين أو أضواء على الطريق".

وفي كل هذه الكتب، وفي كل المقالات والخطب والمحاضرات، نجِد الدمج الكامل بين الروح والعقل، بين الأفكار والمشاعر، بتوازن دقيق أثبت نجاعته وفاعليته، فالعقل يوضح الطريق والقلب يوفر الزاد للمسير، وكلاهما يؤدّي إلى العروج في سماء الرقي الحضاري بفاعلية مشهودة.

ونتيجة تخوف كولن من حدوث اختلال في مقادير العقل والقلب، وما ينتج عن ذلك من تداعيات، فإنه يلحّ على الدمج بين الأمرين، بحيث يجعلهما وجهين لعمْلة واحدة، بل يجعلهما جناحَين لبُراق الرقي الحضاري، ولو قرأنا كتابه "الموازين أو أضواء على الطريق"، لوجدنا مثل هذا التأكيد في عشرات المواضع.[٣٣]

وهكذا، نجح كولن في إيجاد ميزان دقيق لحركته بين العقل والقلب، بين المعرفة والعرفان، فتشكّل لهذه الحركة جناحان طارت بهما إلى آفاق العلو، وهي ما تزال تصعد بقوّة، متجاوزة العديد من الحركات التي سبقتها بسنوات طائلة. والسر الجوهري هو التوازن في كل شيء، بما في ذلك الأزمنة الثلاثة.

---

[٣٣] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٧١، ٨٠، ٩٩، ١٠٠، ١١٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٥٨، ١٦٩، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٩.

سابعًا: التوازن بين الأزمنة الثلاثة

من أهمّ سمات التجديد في حركة الخدمة التي أرسى دعائمها فتح الله كولن، التوازن بين الكثير من الدوائر الثنائية، كالتوازن بين الدنيا والآخرة، والتوازن بين المادة والروح، وكذلك بين المثالية والواقعية، وبين السببية والتوكل.

وفي هذه السمة التجديدية سنفرد الحديث عن التوازن بين الأزمنة الثلاثة في أفكار وأفعال هذه الحركة، فهي حركة سلَفية من حيث المناهج (الزمن الماضي)، وحركة عصرية (الحاضر) من حيث البرامج؛ سلَفية في الثوابت وعصرية في المتغيرات، تستظلّ تحت "راية" السلَف، وتستنير بـ"آراء" الخلَف، تعتزّ بالانتماء إلى الآباء وتنفتح على الغرباء لتستفيد وتفيد، لتأخذ وتعطي؛ تحسن قراءة الماضي، وتبني الحاضر، وتخطّط للمستقبل... وبالجملة فهي حركة سلَفية حداثية في آن واحد، استطاعت أن تمسك بأزِمّة الأزمنة الثلاثة في آن واحد، وبتوازن عجيب.

يقول فتح الله كولن: "نعم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا، فإن استطعنا أن نَعْجِنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهّزنا خميرة أبَديّتنا"[٣٤]. هذا المزج بين الأزمنة بمقادير دقيقة هو الذي نجّى هذه الحركة من الاغتراب التاريخي (التقليد) أو الاغتراب الجغرافي (التغريب)، وأعطاها خميرة الأبدية؛ لانغراسها في الحاضر واعتزازها بالماضي وسعْيها نحو المستقبل.

ويضيف كولن: "إن تماسك أجيال الغد وقوامها وسعادتها، حاصل من حواصل الأرواح والأنفس المضحّية هذا اليوم. وإن انتظار مستقبل

[٣٤] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٤٨.

متكامل ومنظّم من ركام البشَر الضجر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلا مَحْضَ وَهْمٍ وسلوان كاذب. المستقبل يتطوّر إلى براعم في رحم اليوم، ويربو برضاعِ اليوم، ليتماسك قوامُه. وكما يحمل وجودنا اليوم سمات أمسنا، بخيرها وشرّها، كذلك يكون الغد نسخة من اليوم بصورتها المطوّرة والموسعة، والمتحوّلة من الفردية إلى الاجتماعية"[٣٥].

ولهذا يبدو لنا أن هذه الحركة تسير وفق خطة حكيمة مدروسة، وقد وصف كولن "الأجيال المثالية" بأن أفرادها: "ينشغلون بحساب الغد، ويجدون في حناجرهم غصص نقل الأيام الحاضرة إلى الأيام القابلة.. يبتلعون حسابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرر من قيود الزمان.. إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل، والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان الغد منذ الآن، وفهم محتوى المستقبل روحًا ومعنى، سَمِّهِ إن شئت "مثالية"[٣٦].

والمؤمن الحق، كما يرى كولن، لا يجوز أن يقع في التشاؤم، بسبب قلّة الإمكانيات لديه، وعليه أن يكون حكيمًا في استعمالها استعمالاً دقيقًا: "أي يقوم بـ"ضرب عصفورين بحجر واحد" كما يقال في المثل الدارج! أجل على المسلم أن يخطط على الدوام ويبرمج كيف يضرب بحجر واحد مئات العصافير، مثلما نرى في العديد من الإجراءات الربّانية". فكما نحصل من بذرة واحدة نبذرها في الحقل على سبع، أو سبعين أو سبعمائة من البذور، علينا أن نخطط في كل خدمة نريد تحقيقها في سبيل الإيمان

---

[٣٥] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٣٣.

[٣٦] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٦، ١٢٧.

وفي سبيل الملّة للحصول على سبع، أو سبعين أو سبعمائة ضعف"[٣٧]. وإضافة إلى ذلك فإن التخطيط يجعل الكائن فاعلاً لا منفعلاً، يتحرك بإرادته لا كردّ فعل على تحركات الآخرين.[٣٨] وقد وصف كولن تدقيق أصحاب الخدمة -أو ما ينبغي أن يكون- بأنه الذي "يشطر الشعرة أربعين شطرا"[٣٩].

وبفضل هذا التوازن بين الأزمنة الثلاثة، فإن تيّار الخدمة أجاد قراءة الماضي دون عودة إليه، وأجاد عمارة الحاضر دون غرقٍ فيه، وأجاد استشراف المستقبل دون أن يصاب بالرُّهاب، وهكذا بين استقراء الماضي واستشراف المستقبل تمتدّ جسور الحاضر التي أجاد كولن بناءها بعقله المستنير وقلبه الرحيم ودمعه الغزير وكلماته القوية.

ثامنًا: الوحدويّة والحسّ الأخوي

من يقرأ فكر فتح الله كولن يُحسّ بحَدْبِه نحو المسلمين بل نحو الإنسانية جمعاء، فهو يعتبر جميع المسلمين إخوة في الدين، وينظر إلى جميع البشر بأنهم إخوةٌ في الإنسانية، إذ ينتمي الجميع إلى آدم وحواء، ومن هنا تأتي سمة الوحدوية في فكره وبروز الحسّ الأخويّ والجمعي في مناشطه وممارسات تيار الخدمة الذي يجسد فكره على الواقع.

إنه رجل جمَع الله شمله فانعكس ذلك على فكره الموحد، ولذلك جاءت حركة موحدة حتى ولو لم تكن حركة منظّمة كالتنظيمات المعروفة في هذا العصر، إذ حث تلاميذه على التوحد مع بقاء التنوّع، وعلى التحابب مع بقاء التعدد، بحيث تكون آراؤهم تحت راية الوحدة، وبرامجهم وفق منهج واحد.

---

[٣٧] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٥٤، ٢٥٥.

[٣٨] انظر مثلاً: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٦٥.

[٣٩] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

ففي تنظيره للخطوات التي يجب أن يسلكها وارثو الأرض جعل الخطوة السادسة: التنظيم، إذ أن طبيعة التحدّيات التي تواجه الفكر الإسلامي في هذا العصر، تُحتم وجود تيار موحد مع اجتماع أصحاب التخصصات فيه، يقول كولن: "ولن يقتدر على ذلك في هذا الزمان إلا جماعة تتحمّل دعوة مشبعة بالدهاء. وفي الواقع كانت هذه الأمور العظام تمثل في أفراد دهاة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توسع في التفريقات توسعًا يعجز الفرد الفريد عن حمل العبء، فحلّت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محلّ الدهاء"[٤٠].

لكن الوصول إلى هذه الدرجة من الشعور الجمعي لا يحتاج بالضرورة إلى تنظيم وتحزب، بل إلى تآلف القلوب، وظهور الاستعداد عند الكل لقبول الجميع، ولذلك يقول: "فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعة، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوسيلة، هذا الفناء والذوَبان في الآخرين، والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم"[٤١]. وأكّد كولن على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه حث على وجوب إقامة مؤسسات منظمة للقيام بهذا الدور، محذّرًا من أن الله سيجعل المجتمع الذي لا يقوم بذلك عاليه سافله، وأن أي أمة لا تقوم بهذا الأمر إلى زوال ولا يمكن أن يدوم لها البقاء.[٤٢]

وفي طريق إنشاء الحس الجمعي، حذّر كولن من ادّعاء أي أحد امتلاكه الحقيقة المطلقة، حيث قال: "الاحتكار الفكري وادعاء صاحبه

---

[٤٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٤٨.

[٤١] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٩٨.

[٤٢] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص:٦٩.

بأن الحق دائمًا معه، ليس إلا تعبيرًا عن عبادة الوسيلة وإشارة إلى غياب الهدف. وإلا كيف يمكن تفسير مشاعر الحقد والنفور والكراهية عند بعضهم نحو أناس يشاركونهم العقيدة والمبادئ نفسها؟!"[٤٣].

ولفت الأنظار إلى العلل النفسية التي تجعل المرء يعجز عن رؤية الهدف، ومن ثم يندفع لادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة وتسفيه الآخرين، كالكبرياء وتجاوز الحد والخطأ في زاوية النظر، وتزكية الذات، والانصراف بطاقات النقد كلها إلى الخارج دون عالمه الداخلي.[٤٤]

ولا يمكن أن يتم الوصول إلى هذا الهدف، ما لم تتسيد قيم الرحمة والتسامح وثقافة الإعذار بين المؤمنين، أي أن يصير المؤمنون أذلة لبعضهم، بحيث "لا يقابل الشتم منهم إلا بالسكوت، ولا يقابل عدوانهم إلا بالصبر، أي يضع رأسه تحت أقدام المؤمنين"[٤٥]، ويرى أن الارتباط، وبروز هذه الصفات، والتحلي بهذه الأخلاق، هو الذي سيجعل الجماعات الإسلامية تتّحد كأعضاء في جسم واحد.[٤٦]

وفي دأبه المستمر من أجل خلع الفُرقة ومحاصرة الحروب بين البشر، وتجسيد رحمة الإسلام، فإن كولن ما فتئ يدعو إلى نشر المحبة والشفقة: "إن إنساننا في هذا الوقت أحوج ما يكون إلى المحبّة والشفقة والكلام الطيب والصوت الأَنوس الحنون، بدلاً عن القسوة والعنف والضرب

---

[٤٣] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٩.

[٤٤] انظر مثلاً: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٣١؛ الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨١، ٨٢.

[٤٥] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٤٨.

[٤٦] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٩.

والقتل. فالمنتظر منّا اليوم خفض جناح الرحمة والشفقة على الجميع حتى نسمع أنّاتهم في قلوبنا، ونستشعر قلَقهم واضطرابهم في نفوسنا، فنشاركهم في الأفراح والأتراح... ومتى ما تحقق هذا، فقد تحقق إذًا عمل مهمّ تنتظره الإنسانية"[٤٧].

ويعتبر كولن أن المؤمنين فدائيّو محبّة، وهم: "الذين نذروا أنفسهم لتحبيب الله إلى الإنسانية جميعًا. لا همَّ لهم إلاّ إيجاد سبل تحبيب الله للناس وتمهيد طرق الوصول إلى الحياة الخالدة"[٤٨]. وما فتئ يحبب إلى تلاميذه قيم الشفقة والرحمة والهوادة واللين، جاهدًا لفتح قلوبهم لها، وإقناع عقولهم بها، حتى يقول: "وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه. فجبال الثلج التي لا تذوب بالشفقة والرحمة لا يُذوِّبُها شيء قطعًا. لذا إن كنتم تريدون ربط الناس بعضهم ببعض بمحبة دافئة، عليكم أن تطووهم تحت جناح الرحمة والشفقة أولاً"[٤٩].

والحقيقة أن هذا المنهج قد أخضعه كولن للتطبيق، وأثبت نجاعته الأكيدة، فقد أوصدت العلمانية المتطرّفة في تركيا كل الأبواب أمام الإسلام، لكن بالحكمة والشفقة والمداومة، استطاع "فتح الله" فتح الكثير من هذه الأبواب بتنظيراته الحكيمة وتطبيقات تلاميذه السديدة.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية اهتم كولن بإبراز مكانة الآخر في الفكر الإسلامي وفي فكر حركة الخدمة، واهتم بالجوانب ذات الصلة بإشاعة

---

[٤٧] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٣٠.

[٤٨] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٣٢.

[٤٩] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٥٩.

الحوار، واحترام آدابه، وإتقان فقه الحوار والاختلاف.[٥٠]

هذه أبرز سمات التجديد في فكر فتح الله كولن وممارسات حركة الخدمة. وهناك سمات أخرى لا تسمح طبيعة الكتاب بالإتيان بها، وهي: الذاتية والاستقلال،الدائرة العالمية والتشبع بالأخلاق والقيم الإنسانية، التحرك في كل الدوائر، ابتداءً بالدائرة الوطنية (تركيا) ثم الدائرة القومية (بلدان الأتراك وسط آسيا) مرورًا بالدائرة الإسلامية "العالم الإسلامي" وصولاً إلى الدائرة الإنسانية الرحيبة (العالم أجمع).

ولما كانت أكبر أمّة في الأرض وأقواها بل وأقربها إلى الإسلام والمسلمين هي الأمة المسيحيّة، فقد ركّز عليها كولن، إذ أقام عدة مراكز لحوار الأديان والحضارات، وأقيمت عدة مؤتمرات للحوار بين العالمين الإسلامي والمسيحي، بل قام فتح الله كولن نفسه بزيارة بابا المسيحيين في الفاتيكان، وناقش معه الكثير من القضايا التي تهم العالمين الإسلامي والمسيحي.

[٥٠] انظر مثلاً: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:٤٢-٤٥، ٥٤، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧.

الفصل الثالث
بوصلة الحكمة
والسير في دروب الفتوحات الناعمة

- أولا: فتح الله كولن: حكيم الفكر الإسلامي المعاصر
- ثانيا: كولن: "فتح الله" للفكر الإسلامي المعاصر
- ثالثا: "القطمير" والدفْع بتركيا نحو المستقبل

أولاً: فتح الله كولن: حكيم الفكر الإسلامي المعاصر

يمتلك الإسلام قوة ذاتية، لكونه الدين العالمي الخالد، مكَّنته هذه القوة من التمدّد والانتشار حتى في أحلك الظروف، فلم يشهد تاريخ الأديان والثقافات أن تقوم أمّة غالبة باتّباع دين وثقافة الأمّة المغلوبة إلا في تاريخ هذا الإسلام العظيم، كما وقع للمغول الذين غزوا بلاد المسلمين وهزموهم عسكريًّا، لكن الإسلام تَمكَّن من قلوبهم، فعادوا مسلمين.

هذه القوة الذاتية نابعة من طبيعة هذا الدين العظيم الذي يلبّي حاجات الإنسان المادية ويستوعب أشواقه الروحية، وتنفتح له أبواب العقول والقلوب للولوج إلى مملكته بسلاسة ويسر، بل بعشق وهيام.

ووهب الله هذا الدين عددًا من المنح الربانية، ومنها منحة التجديد الدوري التي يتولاّها رجال ربّانيون، اعتصموا بحبل الله المتين، وارتفعوا بإيمانهم في سماوات المجد ومجرات الفاعلية، حتى صاروا نُجُمًا تُطاول الشمس، وقناديل تبدد ظلمات الحيرة وحوالك الليالي السود.

١-نجمان في وطن واحد

تركيا بلد إسلامي لعب دورًا محوريًّا في تاريخ العالم عامّة وتاريخ المسلمين خاصة.. هذا البلد تَعرَّضَ منذ نهاية القرن التاسع عشر لرياح الخماسين وأعاصير السموم، وإذا كان العرب قد قالوا "إنّ بيت الأسد لا يخلو من العظام!"، فإن الوطن التركي رغم العقود العجاف التي عاشها،

إلا أن أرضه شهدت خلال هذا العصر ولادة نجْمَين من نجوم الفكر الإسلامي الوسطي العظيم، فساهما في إنارة الكثير من الدروب الحالكة، وهداية جمٍّ غفير من الحيارى والتائهين.

الأول: وُلد عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٣م في قرية نورس في شرق تركيا، وهو سعيد النورسي الذي أصبح أعجوبة زمانه، حتى تَظَافَرَ الناسُ على تلقيبه بـ"بديع الزمان" ليطغى هذا اللقب على اسمه الحقيقي.

وكانت حركة هذا النجم النورسي عظيمة على كل الصعد، وإنجازاته لا يكاد يأتي عليها الحصر، لكن أجلّ الخدمات التي قدّمها لأمّته كانت "رسائل النور"[1] التي مثلت قراءة عصرية للقرآن الكريم، حيث تعامل مع القرآن كأنه يتنزّل في هذا العصر، مما أدّى إلى إشاعة النور في كل زوايا تركيا، وليساعدها ذلك في الخروج من النفق المظلم وجُحْر التقليد الحضاري المقيت.

الآخر: فتح الله كولن الذي وُلد في ١١نوفمبر ١٩٣٨م في شمال شرق هضبة الأناضول التركية، ليصبح الوارث الروحي للنورسي وحكيم الفكر الإسلامي المعاصر.

٢-الطريق إلى الحكمة

كان فتْح الله صاحب همّة كبيرة، فقد حفظ القرآن الكريم وتعلّم اللغة العربية واللغة الفارسية على يد والده رامِز أفَنْدي منذ وقت مبكّر، وبدأت صلته الروحية بهذا الدين قبل وصوله إلى مرحلة البلوغ، إذ ما تعلَّم العربية إلا لأنّها لغة القرآن الكريم ووعاء التراث الإسلامي، وما تعلم الفارسية إلا لأنّها واحدة من أهمّ أوعية العلوم الإسلامية طيلة قرون من العطاء المعرفي المبارك.

---

[1] عددها ١٥٣ رسالة وكلها مطبوعة بعدد من اللغات بما فيها اللغة العربية.

وكعادة المميّزين من الجهابذة والنوابغ، فإنّ فتح الله اتصل بعلماء منطقته لينهل من جداولهم ويساعدوه على إيجاد البنيّة المعرفية المتكاملة في ذاته التائقة إلى العطاء والخدمة والتجديد، فأخذ عنهم علوم الفقه والتفسير والحديث والأصول والنحو والبلاغة، وكذا مقارنة الأديان.

وتبدو الذاتية بادية للعيان في تكوين هذا المفكر الحكيم، فقد درس "رسائل النور" للإمام النورسي، ورغم إعجابه الشديد بها، إلا أنه لم يحاول أن يكون نسخة أخرى من أستاذه، ولم ينغلق على أفكاره، بل انفتح على كل تيّارات التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي، قارئًا لها، وآخذًا منها كل ما يرى أنه مفيد لبناء مشروع النهوض الجديد في ظل الظروف التركية الخاصة والمتغيرات العالمية المتسارعة.

ولم يكتف بأن يَعُبَّ من كل التيارات الإسلامية، بل انفتح على الثقافة الغربية بعقله المنهجي والقابض باقتدار على غرْبال الحكمة، حيث اقتبس كل ما بدا له مفيدًا، وفقًا لمعرفته الواسعة بمقاصد الإسلام وحقائق الواقع، فكان فقيهًا وحكيمًا حتى وهو ينْهَلُ ويَعُبّ، لأنه جمع بين فقه الواجب وفقه الواقع.

لم يتحَوْصَل فتح الله ولم يتقوقع، بل انفتح وغربل.. اقتبس و"فَلْتَرَ".. رفض وقَبل، ولا شك أنه كان ممن أحسنوا تمثُّل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(الزُّمَر:١٨)، ومن المؤكد أنه جسَّد باقتدار المقولة الذهبية للمصطفى محمد ﷺ: «الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ الناس بها»(رواه الترمذي وابن ماجه).

٣-الحكيم الربّاني

في عام ١٩٦٠ م ترجَّل بديع الزمان النورسي عن فرسه الدنيوية ليلتحق

بالرّفيق الأعلى ﷻ.. ومثل كثير من الدعوات التي كان روّادها أصحاب شخصيات "كاريزمية" آسرة، فقد بدا بأن التيار النورسي انكفأ على ذاته، منشغلاً بشخصية المؤسِّس وأفكاره أكثر من انشغاله بمنهج هذا المصلح وأهدافه، مما أظهر للعيان مساحات فارغة في جُدُر هذه الدعوة العظيمة، لاعتقاد مجاميع من هذا التيار أن الوفاء للشيخ يقتضي مثل هذا الأمر.

في هذه الأثناء كان فتح الله قد دَلَفَ إلى العقد الثالث من عمره، حيث عمل إمامًا لأحد المساجد في مدينة أَدِرْنَة، متأمّلاً في آيات الأنفس والآفاق، سابحًا في أجواء من الزهد والتسامي، ومنشغلاً برياضة النفس وترويضها، مع استغراق عميق وواسع في القراءة الموسوعية التي لا تستثني أيّ حقل من حقول المعرفة النافعة.

وبعد عامَين ونصف من الإمامة في أحد مساجد أَدِرْنَة، انتقل إلى مدينة إِزْمِير في الغرب التركي، وهي من أهمّ معاقل العلْمانية والتغريب في البلد، وعمل فيها مدرّسًا في مدرسة لتحفيظ القرآن، ثم عمل واعظًا متجوّلاً، فبدأت شمسُه بـ"الشروق" من "غرب" تركيا، لكنه صار شمسًا متحرّكة سَبَحَت في كل أنحاء هذا القطر المترامي الأطراف.

ويبدو أن إقامة فتح الله في هذه المدينة، وتنقّله بين القرى والمدن، أشعره بفقدان المجتمع التركي لبديع الزمان النورسي، فنهض بقوة ليقوم بالواجب، ولكن من خلال عقله الذي تعبَّده الله به، مع استيعاب كافة المتغيّرات التي كانت تتسارع في هذا البلد، العظيم بأهله، العبقري بجغرافيته، العريق بتاريخه وتراثه.

٤-حكمة كولن في الموازنة بين العقل والروح

نتيجة الجَزْر الحضاري والتخلّف الثقافي اللذين كانت تركيا -كبلْدان المسلمين الأخرى- ترزح تحت وطأتهما، حدث شرخ في ذات الأمة بين العقل والروح، مما أوجد انفصامًا بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وأظهر تناقضًا بين الأفكار والمشاعر، حتى بدا الإسلام في شعور كثير من المسلمين وسلوكياتهم كأنه دين "لاهوتيٌّ" لا علاقة له بعمارة الحياة.

نجح كولن في إعادة الروح إلى العقل الإسلامي، وتمكّن من روْحَنَة العقل وعقْلَنَة الروح، بحيث أعاد طاقتَيهما إلى دائرة "التكامل" بعد أن انزلق بها التخلف إلى دائرة "التآكل"، فكانت الثمرة غثائيةً مرّغتْ وجه الأمّة في أوحال الهزائم والمذلّات.

ولأن مشاريعنا هي انعكاس لشخصياتنا، فأول ما ظهر هذا الدمج في شخصية كولن نفسه، فقد امتلك عددًا من "الموازين"[٢] الدقيقة بين مكوني الفاعلية الفردية والاجتماعية، حيث جمع بين "استنارة" المفكر و"حرارة" الداعية، وجمع بين "بصر" العقل و"بصيرة" القلب.

وبهذه المساوقة الدقيقة، امتلك هذا الرجل "فكر الإرادة" و"فعل الإدارة"، فكان في كليهما سديدًا ورشيدًا، وكلّما ضيّق المسافة بين العقل والقلب ازداد "ولوجًا" إلى عالم الإنسان، حيث حقوق الناس، ليزداد "عروجًا" في سماوات الله، لأن الله يوجد حيث البطون الجائعة والأكباد الظامئة والأجسام العليلة والأبدان العارية!

إنه مفكر عملاق وداعية عظيم، في إهاب شخص واحد متوسط

---

[٢] عنوان كتاب لكُولَن، "الموازين أو أضواء على الطريق".

الحجم، لكنه بهذا الدمج الدقيق أشاع أجواءً من المشاعر الروحية، وصنع مساحات من الأفكار، وهو في كل الأحوال لا يمل من استثارة الأفكار واستجاشة العواطف، في سياق استفزاز الأمّة للحركة والنهوض، والدفع بها من أجل العودة إلى متْن الزمن الأبيض.

إن شفافية روحه جعلته بكّاءً، حتى لقَّبه بعضُ محبيه بـ"النّاي" لكثرة معزوفاته البكائية، لكنه ليس البكاء على الأطلال، بل البكاء الذي يُحيل الانفعال إلى فاعلية، بفضل "الأفكار" الرشيدة التي وهبها من بصره وبصيرته ما صيّرها "أفعالا" سديدة، وصلت به إلى سدرة المنتهى من مجَرَّة الفاعلية.

٥-كولن في سدرة الفاعلية

منذ السبعينيات تألّق كُولَن كنجم في عموم تركيا، لكنه يشرق ولا يحرق، ينير ولا يُقير، يضيء ولا يسيء، يوحّد ولا يبدّد، يجمع ولا يقطع.

وفي عام ٢٠٠٨م أجرت مجلة "فورين بوليسي" الأمريكية الشهيرة في الأوساط الأكاديمية، بالتعاون مع مجلة "بروسبيكت" البريطانية المعروفة، استطلاعًا على مستوى العالم حول أهمّ مائة عالم في الأرض، وكانت المفاجأة أن يحتلّ كولن المركز الأول!

المفاجأة أن يأتي هذا الاصطفاء الصارخ تحت راية مجلّتين غربيتين مع ما عُرف عن الإعلام الغربي من تحامل على الإسلام ورموزه وقضاياه، أما الرجل فقد ظل طيلة ثلاثة عقود وهو في حركة لا تعرف الراحة، وفي دأب لا يعرف النّصَب، حيث ألْقى آلاف المحاضرات في شتّى صنوف المعرفة، وعقد آلاف اللقاءات وحلقات الدرس العامة والخاصة، داخل المساجد وفي المنتديات العامة، وألْقى آلاف الخطب والمواعظ في مدن

وقرى تركيا شرقًا وغربًا.

وألّف -مع ذلك- عشرات الكتب (٦٥ كتابًا) في فنون وموضوعات شتى، لكنها تدور مع الإسلام حيث دار ولا تخرج عن فلكه الوسطي المعتدل والذي كان منهجًا للرشد والراشدين في الزمن الذهبي الجميل.

٦-تيار الخدمة العريض

لم يبقَ كولن مفكّرًا فرديًّا كحال أكثر المفكّرين، ولم يكتف بأن يكون داعية محاطًا بعدد من المعجبين والمنفعلين، بل صار بعبقريته وتوفيق الله له تيارًا عظيمًا داخل تركيا وخارجها، عُرف بأنه تيّار "الخدمة"، وصار هذا التيار الخارج من تحت عباءة كُولَن، ملء السمع والبصر، إذ يملك في تركيا مئات المدارس وعشرات جامعات، ومئات المدن الجامعية، وعشرات المستوصفات والمستشفيات الطبية، وعشرات الجمعيات والمنتديات المتنوعة الأغراض.

وفي مجال الإعلام والثقافة، يمتلك تيار الخدمة عشرات المؤسسات، ومنها ثلاثون دار نشر تصدر سنويًّا مائة كتاب جديد في المتوسط، وخمس عشرة مجلة ثقافية، وتسع قنوات تلفزيونية، مع وجود أقسام للترجمة في دور النشر، أنجزت مئات الكتب المترجمة إلى عشرات اللغات في العالم، إضافة إلى عشرات المواقع الإلكترونية بعدد من اللغات.

فهل ندرك بعد ذلك: لماذا حوكم مرّات عدة؟ ولماذا هاجر إلى أمريكا منذ أكثر من عشر سنوات؟ وهل أدركنا سبب اختياره من قبل مجلتين غربيتين كأكبر مفكّر في العالم؟!

ومما يزيد في معرفة عظمة هذا الرجل أن ندرك أن تيّار الخدمة الآن

يعمل لنقل تجربته داخل تركيا إلى كثير من بلدان المسلمين، وخاصة البلدان التي تنتمي إلى القومية التركية في وسط آسيا، وقد بدأ الأمر بالتعليم، حيث تتبع هذا التيار ألفا مدرسة في العالم منثورة في مائة وستّين بلدًا.

٧-عَوْلمةُ الخدمة وأنْسَنَةُ العولمة

إن دوائر التميُّز في فكر كُولَن ومدارات التفوُّق في فعله لا تكتفي بهذا القدر من التفوّق والتألّق، والكبار لا يكُفُّون عن التعملق.

وفي هذا الزمان الذي تعَوْلَم، ونادى بعض مفكريه بـ"صِدام الحضارات" كالمفكر الأمريكي صموئيل هنْتجتُون، وبشَّر آخرون بـ"نهاية التاريخ" كالأمريكي الآخر فرانسيس فوكو ياما، مما دفع أصحاب التعصّب الديني والعرْقي إلى دقّ طبول الحرب الدينية والصدام الحضاري، في هذه الأثناء رفع كولن صوته مدويًّا في الآفاق، يصدح بالحب ويصدع بالدعوة للتسامح والسلام والأخوّة الإنسانية، بادئًا بالدعوة إلى الحوار الباحث عن المشتركات الدينية والإنسانية، والذي يراعي الاختلافات ويرعاها وينطلق منها إلى آفاق التعاون في كل ما يُحقق خيرًا للبشرية.

وكعادته لم يكتف بمجرّد الدعوة أو الكتابة، بل عزز ذلك بالعمل، حيث أوجد مع العاملين معه عددًا من المؤسسات المنحازة إلى الحوار، لتنفتح له مقراتها وقلوب أبنائها، وتُسخَّر له إمكاناتها.

وبعد أن رعى عددًا من الحوارات بين مختلف التكوينات داخل تركيا، وأشاع ثقافة اللقاء والحوار، وأصَّل لفكر التسامح والرحمة، مَدَّ جسور اللقاء مع أكبر الأمم في الأرض وهي الأمّة المسيحية، ووصل الأمر إلى أعلى المستويات، حيث زار عاصمة المسيحيين في العالم "الفاتيكان" وقابل البابا،

محاورًا إيّاه في عدد من القضايا التي تهم العالمين الإسلامي والمسيحي.

لا شك أن ما وصل إليه فتح الله كُولَن، يُشعر كل مسلم بالفخر والاعتزاز، وفي ذات الوقت فإنه يقدم له نموذجًا عمليًّا في النهوض الذي بدأ بالتقييم الصحيح لواقع الأمة وعِللها ومعضلاتها، مع التركيز في الابتداء على بناء الإنسان، ثم صناعة الحياة من خلاله، وهي تجربة ثريّة تحتاج إلى الكثير من الدراسة.

ثانيًا: كُولن: "فتحُ الله" للفكر الإسلامي المعاصر

اقتضت مشيئة الله التي أودعها في سننه الكونية والاجتماعية، أن تكون الأيام دولاً بين الناس، وفق اقترابهم أو ابتعادهم، عن سنن القوة أو الضعف، التوحد أو التفرق، التقدم أو التخلف: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عِمْرَان:١٤٠)، لكن هذه المداولة تحتاج إلى جهد البشر وتغييرهم: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرَّعْد:١١).

هذه المداولة وهذا التغيير، يؤدّيان إلى تحقيق سنّة أخرى هي المدافعة: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البَقَرَة:٢٥١).

ولهذا وصلت أمة المسلمين إلى الذروة الحضارية والكمال البشري في القرن الرابع الهجري، لكن موجات الترف المادي والثقافي أوقفت مسيرة الصعود فترة من الزمن، ثم بدأ العد التنازلي البطيء، مع وجود استثناءات في بعض الظروف، لكن أيًّا منها لم يستطع إعادة المسيرة نحو الصعود السابق.

ومع مطلع القرن العشرين الميلادي (الثالث عشر الهجري) كانت أمّة المسلمين قد سقطت إلى قعر التخلّف الحضاري، ووصل الأمر إلى سقوط آخر صورة من صور الأمة السياسية وأشكالها السيادية وهي الخلافة

العثمانية التي لفظت آخر أنفاسها عام١٩٢٤م بعد مرض عضال أصابها بالكساح ثم بالشلل التام، حتى أنها اشتهرت بلقَب "الرجل المريض" طيلة عدد من العقود، إلى أن أصيبت بـ"السكتة القلبية"!.

١-السقوط المدوي والزلزال المدمر

طيلة عقود من تاريخ الدولة العثمانية الأخيرة، كانت العلل قد تسلّلت إلى روح الدولة أولاً، ثم إلى جسْمها، لكن مبناها ظل مهيبًا إلى حدٍّ ما، وعندما قطعت الكمالية آخرَ عروقها سقطت هذه الدولة سقوطًا مدويًا، وأدّى سقوطها إلى ما يشبه الزلزال الذي أحدث الكثير من صور التدمير والفوضى في العالم الإسلامي ولاسيما في تركيا، لأنها مركز الزلزال.

ومن نتائج هذا الزلزال وصول حزب الاتّحاد والترقّي إلى مركز القيادة في تركيا، حيث أعلنها علمانية أسوأ من علمانية الغرب نفسه، إذ طبّقت تركيا النمط الأشدّ تطرّفًا من العلمانية، وهو النمط الذي يفصل الدين عن الحياة، وليس عن الدولة فحسب كما حدث في الغرب، لدرجة أن القوانين أوجبت منع أي طالبة تضع الحجاب على رأسها من الدراسة في المدارس والجامعات الرسمية، وفصل أي ضابط من الجيش أو الأمن إذا ثبت أن زوجته ترتدي هذا الحجاب.

ورافق هذه التداعيات سقوط تركيا في أوحال التخلّف، دون أن يَسْلم أي مجال من مجالات الحياة، حتى صارت تركيا قزمًا في السياسة الدولية، رغم مكانتها الكبيرة تأريخيًا، ومساحتها العريضة جغرافيًا، وموقعها "الجيو-استراتيجي" الخطير، وامتلاكها لإمكانات كبيرة، وإرث عريق.

٢-موت وحياة

في تلك الأثناء كان أحد عمالقة الفكر الإسلامي في تركيا يجاهد بكلّ ما أوتي من قوّة دون جدوى لإيقاف تداعيات الزلزال، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وهو بديع الزمان النُّورْسي (١٨٧٣- ١٩٦٠)، إذ رغْم علمه الغزير الذي جعل الناس يطلقون عليه لقب "بديع الزمان" و"سعيد المشهور" وهو ما زال شابًّا يافعًا، إلا أنه لم ينجح في إيقاف زحف الظلام، لكنه نجح في إبقاء جذوة الإيمان متّقدة في قلوب مئات الآلاف من الأتراك، وكانت تركيا أحوج ما تكون إلى من يملك القدرة الخارقة التي تنجح في تحويل القلوب المستنيرة إلى قناديل تضيء للأتراك طرقهم، حيث دخلوا في مرحلة تيه حضاري، بعد أن فقدوا خصائصهم من أجل أن تقبل بهم أوربا، لكنها لم تقبل، وبهذا استمروا لعقود بدون هوية، إذ لم يصبحوا أوربيين، ولم يستطيعوا العودة إلى جلدهم.

وفي نوفمبر ١٩٣٨م شهدت تركيا ولادة طفل سمّاه أبوه محمّد فتح الله كولن، وهو الذي ستثبت أحداث المستقبل أنه سيلعب الدور الكبير في إعادة تركيا إلى ربيعها، ووضع قطارها في غير الاتّجاه الحضاري الذي وضعه فيه عشاق التغريب.

هذا الطفل أصبح اليوم ملء بصر تركيا وسمْعها، وانتقلت ريحُه الطيّبة في السنوات الأخيرة إلى كثير من أصقاع العالم، كأحد اللواقح الحضارية في العالم وكأحد المجدّدين الكبار للفكر الإسلامي المعاصر على مستوى العالم الإسلامي، أما في تركيا فهو المجدد الأكبر في هذا العصر؛ لأنه جمع بين الحكمة والخدمة.

٣-"الحكمة" هي الطريق إلى "الخدمة"

لا شكّ أن المؤثرين في مجرى الحياة هم من الأذكياء جدًّا، الذكاء الذي يقترب من العبقرية، وفتح الله كولن كان له من هذا الذكاء نصيب وافر.

لقد كان جوهرة نادرة، لكن ولادته في أسرة امتلكت قدرًا كبيرًا من التديّن الإيجابي، صقل هذه الجوهرة وزادها تألّقًا ولمعانا؛ كما قال ﷺ: «فأبَوَاه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه»[٣]!

ورغم الدور الكبير الذي لعبته الأسرة في تزكية هذا الطفل العملاق، إلا أن شخصيته الذاتية لعبت دورًا أكبر في التزكّي والعروج نحو كمالات الشخصية الفاعلة؛ فقد انخرط في التعليم الديني التقليدي، ولم تسمح له الأوضاع بالالتحاق بالتعليم النظامي، لكنه نجح في بناء جامعة ذاتية لنفسه، جامعة كان أساتذتها هم عمالقة الأمّة في كل الأزمان، حيث قرأ الحديث والسيرة والتاريخ والفلسفة وعلم الكلام والفقه وأصوله، ودرس العربية حتى أتقنها، وكان من مدرّسيه في هذه الجامعة عمالقة الأمة: أبو حامد الغزالي، وابن تيمية، والشاطبي، وأئمّة المذاهب الأربعة، وجلال الدين الرومي؛ ومن المعاصرين: النورسي، وحسن البنّا، وسيّد قطب، وأبو الأعلى المودودي، ومحمد الغزالي، وأبو الحسن الندوي، وغيرهم.

وفي كل الأحوال كان يأخذ ويردّ، يتفق ويختلف، فقد مارس القراءة النقدية بأفضل مستوياتها، ويبدو من كتبه أن أقرب العلماء إليه كانا عالمين تُركيين، الأول قديم وهو: جلال الدين الرومي، والآخر حديث وهو: بديع الزمان النورسي. فهو شديد الوَلَه بهما والثناء عليهما، كثير الاستشهاد بأقوالهما.

---

[٣] البخاري، ص:٣٨١؛ مسلم، ص:١٨١٦.

وعندما تعَلّم العربية والفارسية إنما أراد أن يتعلم بها العلوم النافعة، فالقرآن لا يمكن الخوض في بحاره بدون قوارب العربية، وكذلك كثير من علوم الإسلام، إضافة إلى السنة النبوية. أما الفارسية فهي ربما كانت أوسع أوعية العلوم الإسلامية بعد اللغة العربية، إذ أُلّفت بها الكثير من الكنوز المعرفية، ولذلك هي محلّ اهتمام وسط النخب المتديّنة في إيران وتركيا وشبه القارة الهندية.

ولأن الرجل شديد النهم للعلم، شديد الانفتاح على الآخر ومعرفة ما عنده، وخاصة بعد أن وصل إلى ذروة القراءة النقدية، فقد قرأ المؤلفات المترجمة من اللغات الغربية، ومن خلالها انفتح على الثقافة الغربية وعلوم العصر الحديث، حيث قرأ فلاسفة الغرب ومفكريه، واطّلع على علومه الطبيعية.

هذا الذكاء المتّقد، وهذه الأسرة المتديّنة، وهذه البيئة التركية بخصائصها المتفوّقة وظروفها المميّزة، كلها تضافرت على صناعة سفينة شخصيته التي أوصلته إلى شاطئ الوسطية وبَرِّ التوازن، ولاسيما فيما يرتبط بالعلاقة بين العقل والقلب، فقد امتلك "إرادة الفكر" و"إدارة الفعل" عبر قلب شديد اليقظة والحساسية، لتثبت الأيام أن الرجل قد دلف إلى بيت الحكمة، وهي الهبة الربّانية الأغلى والمشروطة بالمراقبة العقلية والمجاهدة القلبية، حتى صار بالفعل حكيم الفكر الإسلامي المعاصر: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقَرة: ٢٦٩).

هذه الحكمة هي التي مكَّنته من الحضور في الزمان والمكان المناسبين، حاملاً الأوّلويات والآليات المناسبة، حيث أسَّس تيّارًا عريضًا في تركيا، فرض "معناه" أن يكون "عنوانه": "تيّار الخدمة"، ليصير كولن

عبر هذا التيّار "فتح الله" وهبته للفكر الإسلامي في تركيا، وهو الآن بصدد الانتقال إلى شتّى أصقاع العالم الإسلامي، ولكن.. أليس من المبالغة أن نعتبره "فتح الله" للفكر الإسلامي في هذا العصر؟

هذا ما سنحاول معرفته باختصار في المجالات التربوية والاجتماعية والثقافية والإعلامية، ولكن بعد أن نؤكّد أن فتوحات الإسلام لم تكن عسكرية، حتى في المناطق التي دخلتها جيوش المسلمين، فإن الشعوب اعتنقت الإسلام نتيجة القوة الناعمة التي امتلكها، عندما أحسن المسلمون تمثل قيم هذا الدين، فقدموه بأحسن الطرق كحلّ لمشاكل الناس النفسية والروحية والاقتصادية والاجتماعية، إذ رأى فيه الناس خلاصهم من مشاكل المعاش والمعاد (الدنيا والآخرة).

هذه القوة الناعمة هي أصل أصيل في هذا الدين، فقد فُتحت عاصمة الخلافة الراشدة "المدينة المنورة" بالقرآن كما قالت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأصبحت كثير من الشعوب في شرق آسيا وجنوب شرقها وشرق قارة أفريقيا مسلمة بسبب هذه القوّة الناعمة الخارجة من حسن تفهم القرآن وتنزيله وتطبيقه في الحياة العملية، ولذلك قال الله لرسوله ﷺ آمرًا: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفُرْقَان:٥٢) هذا القرآن الذي فتح العقول والقلوب في إندونيسيا وماليزيا والصومال وتنزانيا وكينيا -على سبيل المثال- على أيدي العلماء والتجّار الذين وفدوا من بلاد المسلمين، إلى تلك البلدان، ولاسيما من حضرموت، إذ لعبت مدينة تريم دورًا كبيرًا في هذا المضمار، ولذلك صارت عام ٢٠١٠ م عاصمة الثقافة الإسلامية، حيث كانت كتائب القوّة الناعمة تخرج منها بعد أن تنوّرت بالقرآن وتشبّعت بفقه الحكمة اليمانية، ولذلك نجحت في ترك بصماتها وسط

تلك الشعوب العظيمة إلى يومنا هذا.

٤-الفتح التربوي

ظل همّ كولن الأكبر كيف يفهم المسلمون القرآن، وكيف ينزلونه على الواقع. ومن متطلبات تنزيله الصحيح على الواقع حسن قراءة هذا الواقع، بدراسة عوامل الضعف وأسباب الغثائية، ثم البحث لها عن الأدوية المناسبة من صيدلية القرآن الكريم، حيث الدواء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!.

ومن القراءة المتأنّية للواقع التركي خلال القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر، لاحظ كُولَن ضعف التعليم الإسلامي مقابل حضور التعليم الغربي الذي حقن أجيال المسلمين بجراثيم (القابلية للاستعمار)، إذ أدرك أنّ المدارس الفرنسية وحْدها وصلت في الدولة العثمانية إلى نحو ألفي مدرسة في القرن التاسع عشر.

في ذات الوقت الذي كان فيه يُشَرِّح ويحلل، كان يمارس الوعظ المؤثر على تلاميذه، واصِلاً بهم إلى قمّة الانفعال والشعور بالأسى الشديد لواقع الأمّة، وعندما تساءل تلاميذه: ما العمل؟ رأى أن الوقت مناسب للبدء بالمشروع التربويّ المضاد للمشروع التغريبي الذي أوهن فاعلية تركيا، ولذلك كان جوابه بناء أول مدرسة لإيجاد "الإنسان الجديد"، الإنسان الخالي من مفردات الوهن وعوامل الغثائية التي تضافرت على صناعة "القابلية للاستعمار" فيه.

لقد جمع كولن مائة وخمسين من التجّار المتأثّرين به واتّفق معهم على بناء أوّل مدرسة نموذجية، معتبرًا إياها "معركة بدْريّة"، ولكنها عين

"بدر" التي تسيل بماء القوّة الناعمة، أو بدر التي ستوجِد الحصان الذي يقود العربة الحضارية، بدلاً من التعليم التقليدي الذي نجح بامتياز في وضع العربة قبل الحصان!!.

هذا الأمر بدأ في السبعينيات، ويبدو أن كولن بدأ منذ عام١٩٧٣م بتكوين معاهد تتولّى تحضير الطلاب لدخول الجامعات، والتي اكتسبت مع مدارس التيّار سُمعة مميزة، سرعان ما تصاعدت مع حرص القائمين عليها على الجودة، بحيث ارتقت بجودة التعليم التركي النظامي بصورة غير مباشرة، نتيجة عوامل المدافعة، وتحوّل الاهتمام بالتعليم إلى ثقافة في أوساط أكثر الأسر التركية خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

٥-محمد الفاتح

مضت الأيام ليزداد الاهتمام بجودة التعليم، حيث أنشأ التيار عام ١٩٨٢م (مدارس الفاتح) نسبة إلى القائد العثماني الشهير محمد الفاتح الذي نجح في فتح القسطنطينية (عاصمة الدولة البيزنطية)، ولتصبح عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانية، وليتغير اسمها إلى "إسلام بول"، حتى يوازي تغيير الاسم تغيير المسمّى.

وكأن محمد الفاتح في هذه الحالة هو محمد فتح الله، غير أن فتوحاته غير عسكرية وغير خشنة، إذ حرص على إيجاد "الإنسان الجديد" في هذه المدارس، بحيث يصير المتخرج منها رقمًا صحيحًا، وذلك من خلال توفير عناصر العملية التربوية الناجحة، وأهمها:

١-النظرية التربوية التي تستوعب حقيقة الفكرة الإسلامية بدون شعارات ومسميات إسلامية، مع ترجمتها إلى مناهج وبرامج وأنشطة تتضافر للقيام

بدور فعال في تزكية الطالب في سبيلي التخلية (التطهير) والتحلية (النموّ).

٢-التمويل المالي الذي يوفر متطلبات العملية التربوية الناجحة، من مناهج ووسائل وملاعب ومعامل ومناشط، وقد تداعى كثير من رجال الأعمال لإيجاد شركات وقفية تقوم بهذه المهمات، حتى نجح التيار في إيجاد أعداد من المدارس النموذجية، امتلك بعضُها إمكانات ضخمة تضاهي مدارس أوربا وأمريكا واليابان، وامتلك التيار مطابع ضخمة تكفلت بطباعة مناهج مدارس التيار، بل ودخلت عالم الاستثمار حيث طبعت خلال بضع سنوات خمسة مليون كتاب لصالح وزارة التربية والتعليم التركية.

٣-العنصر البشري (المدرس والإدارة) وهو حجر الزاوية في العملية التربوية، وبداية التفوق لهذا التيار في العمل التربوي، حيث اختير أكثر الطلاب ذكاء وإخلاصًا للدخول إلى كليات التربية، مما لفت الأنظار إلى تميز هذا الكادر، ومع مرور السنوات وتراكم الخبرات ظهر نظام الزُّمر وسط هؤلاء المعلمين لتكامل المعارف وتلاقح الأفكار وتبادل الخبرات.

وبهذا المثلّث التربوي حققت مدارس تيار الخدمة نجاحات كبيرة، واحتل خرّيجوها مراكز مرموقة، ونجح طلابها في تحقيق إنجازات كبرى في الكثير من المسابقات والمنتديات الدولية، مما أدّى إلى تحوّل الشعب التركي بأغلبيته إلى حاضنة ومشجع لهذه المدارس، وصارت محل ترحيب في سائر دول العالم.

وظل الهرم التعليمي لهذا التيار يتعاظم حتى وصل إلى الجامعات، ووضع تيار الخدمة لنفسه "استراتيجية" تهدف إلى إيجاد خمسين جامعة، تحقّق منها حتى الآن خمس عشرة جامعة على رأسها جامعة "الفاتح" في إسطنبول التي صارت واحدة من أهم الجامعات التركية في سمعتها ومخرجاتها.

هذا التفوّق والتألّق لمنظومة التعليم، منحها جاذبية لا تقاوم، تجاوزت هذه الجاذبية الشعب التركي إلى كثير من دول العالم، إذ يوجد فيها طلاب ينتمون إلى ثمانين بلدًا في العالم.

هذه الجهود الجبّارة ترمي إلى إحياء الصحابة من جديد، بمعنى إيجاد الإنسان الجديد الذي يحسن قراءة آيات القرآن وآيات الزمان، والجمع بينهما في صياغة ورثة الأرض الصالحين لعمارتها حتى تعود شمس الحضارة إلى سماء المسلمين! أليس هذا فتحًا مبينًا لهذا الدين ولفكره الإسلامي في هذا العصر؟!

٦-الفتح الاجتماعي

أسّس فتح الله تيارًا سماه "تيار الخدمة"، فهل طابق حضورُه الاجتماعي هذا الاسم؟

أعتقد أن أكبر خدمة يقدّمها هذا التيار للمجتمع التركي ومجتمعات المسلمين الأخرى هي التربية الراقية، ومع ذلك فإنّ التيار يُقدِّمُ بالفعل خدمات اجتماعية راقية وعريضة، ومنها رعاية الفقراء والمساكين وأصحاب الاحتياجات الخاصة عبر العشرات من الجمعيات الخيرية داخل تركيا وخارجها.

ومن ذلك توزيع الأضاحي وكسوة العيد على المحتاجين، وبناء وإدارة عدد غير قليل من المستشفيات والمصحات النموذجية، وعلى رأسها مستشفى "سَمَا" في إسطنبول، وإيجاد مئات المدن الجامعية لتسكين الطلاب، وتعليم المتفوّقين من أبناء الفقراء تعليمًا راقيًا ومجّانيًّا، وإن استدعى الأمر الابتعاث إلى أرقى الجامعات في العالم.

ويولي تيار الخدمة اهتمامًا بالغًا برجال الأعمال، حيث يقيم لهم عشرات الجمعيات الخاصة بهم، ويستخدم خبرته العالمية لخدمتهم في تسويق بضائعهم في الدول التي يتواجد فيها أبناء هذا التيار، وأعتقد أن تيار الخدمة لعب ويلعب دورًا كبيرًا في رفع مستوى التبادل التجاري بين تركيا والعالم الإسلامي.

وقد نجح تيار الخدمة في المبتدأ باستقبال وإيواء ثلاثين ألف أسرة جاءت من وسط آسيا بعد سقوط الاتّحاد السوفييتي، حيث قاد كولن بنفسه حملة عريضة لإنجاد ما سماهم بـ"إخوة الدمّ والدين"، لأنهم ينتمون إلى أصول تركية وإلى الإسلام، ثم انتقلت بعدها مدارس التيار وجمعياته إلى الجمهوريات الإسلامية الستّ في وسط آسيا، ليصبح لها الحضور العريض والمكلَّل بالمجد والفخار في أوساط الأتراك وأبناء تلك الشعوب.

٧-ساموراي تركيا

من المعروف أن "الساموراي" جملة باللغة اليابانية، وتعني: "الذي يضع نفسه في الخدمة" وتضمّ الفرسان والشرفاء والمقاتلين الأشداء، وقد اشتهروا بالشرف حتى أن انتهاكه كان مدعاة للانتحار الجماعي، واشتهروا أيضًا بالفروسية حتى أصبحوا في بعض الفترات أشهر مقاتلي العالم، ويبدو أن تيّار الخدمة في تركيا هم الـ"ساموراي" هناك، مع فارق أن خدمتهم ومرابطتهم تتّجه نحو الجهاد السلمي، من خلال الجهاد بالقرآن لأسلمة الشعب التركي في سائر شُعَب الإيمان وشتّى ميادين الحياة، عبر تعليمهم وتقديم الخدمة الراقية لهم.

وكأن أفراد هذا التيار قد انطلقوا من الحديث الشريف: «الناس عيال

الله، وأحبُّهم إليه أنفعُهم لعياله أو لخلقه» أو كما قال ﷺ، وكذلك من المثل القائل: «سَيِّدُ القوم خادمُهم»، ولانشغال مؤسّس التيار بهذه الخدمة فقد فاته قطار الزواج، ولم يبنِ له بيتًا حتى أنه عندما اقتيد مرة للتحقيق معه في إحدى الإدارات التابعة للحكومة التركية، طلبوا منه عنوانه، فالتفت إلى تلاميذه يسألهم عن عنوانه، إذ لم يكن له عنوان، لعدم امتلاكه منْزلاً، ولعدم وجود أسرة له، ولتنقّله الدائم في أنحاء القطر التركي.

ولأن الله يوجد حيث يوجد الفقراء والمرضى والمساكين والمحتاجون، فقد وجد فتح الله وتلاميذه الله هناك، فكأنه تعالى قد رضي عنهم، ولا نُزَكي على الله أحدًا، لكن كل هذا التوفيق والتفوُّق في إدارة شؤون الخدمة تشيران إلى رضى الله عنهم، ولاسيما ما يرتبط بالمكانة الاجتماعية المرموقة التي احتلّوها وسط المجتمع التركي رغم الواقع الشديد التغرُّب، والشديد الحساسية من كل ما له صلة بالإسلام وماضي تركيا العثماني!.

تقول حقائق الواقع إن الخدمة أورثت هؤلاء رضا الله، حيث بارك عملهم وألهمهم رشدهم، وأعلى ذكرهم، كأن الخدمة سُلَّم صعب الصعود، من وصل إلى قمته، وصل إلى قلوب الناس فَسَيَّدوه عليهم، وإن لم يمسك بأي منصب!!.

٨-الفتح الثقافي والإعلامي

رغم أن عُمْر تيار الخدمة في تركيا لم يتجاوز أربعة عقود منذ بداية ظهوره، ورغم أن تركيا عاشت في خريف ثقافي وشتاء فكري بالنسبة للفكر الإسلامي، إلا أن إرادة هذا التيار وإخلاصه لقيا توفيقًا من الله الذي يستطيع أن يحيل الخريف إلى ربيع إذا أراد، ولأن مشيئة الله قضت بأن الله لا يُغَيِّر إلا إذا تغَيَّر البشر واستنفدوا طاقاتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرَّعْد:١١)، وكما قال الشاعر التونسي الكبير أبو القاسم الشابي رحمه الله:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدَر

لهذا فقد بدأ وجْهُ تركيا بالتغيُّر، لأن عزائم الرجال فعلت الأعاجيب، وسنترك بعض الأرقام تتحدث في هذا السياق، فهي لا تحابي أحدًا.

يمتلك تيار الخدمة أكثر من ثلاثين دار نشر، تُصدر سنويا ما متوسطه مائة كتاب جديد، غير الكتب التراثية، وغير الكتب التي تعاد طباعتها. وتوجد أقسام للترجمة من وإلى اثنتين وأربعين لغة، تشمل أهمّ لغات العالم الكبرى وفي مقدمتها أهمّ لغات العالم الإسلامي، ومنها بالطبع اللغة العربية، حيث ترجمت الكثير من كتب أعلام الفكر الإسلامي العرب إلى التركية، وترجمت بعض الكتب التركية إلى اللغة العربية، ومنها بعض كتب فتح الله كولن نفسه، إذ تُرجم خمسة عشر كتابًا من ضمن كتبه الخمسة والستين إلى العربية، والتي تُرجمت إلى ما يزيد عن أربعين لغة.

ويمتلك التيار أكثر من عشر مجلّات ثقافية وعددًا من الصحف حيث صارت إحداها الأكثر انتشارًا ومبيعًا في تركيا، ويمتلك مطابع ضخمة لطباعة أرقى الكتب بعدد من اللغات.

وفي المجال الإعلامي امتلك تيار الخدمة حتى الآن تسع قنوات فضائية متنوّعة ومتخصصة في المرأة والطفل والقضايا الثقافية والفكرية والاجتماعية، وامتلك عشرات البرامج الإذاعية ووكالة أنباء تدعى "جيهان" هي الأكبر في تركيا.

وامتلك أيضًا عشرات المجلات والمواقع الإلكترونية بعدد كبير من أهمّ لغات العالم، وقبل ذلك وبعده أقام التيار عشرات المؤتمرات الدولية

ومئات الندوات والورش الثقافية والفكرية في تركيا وخارجها.

٩-الجسر المعلّق بين تركيا والوطن العربي

كانت إحدى معالم التغريب والأَتْرَكَة عند النخب العلمانية في تركيا الابتعاد عن العروبة والعرب شكلاً ومضمونًا، ولذلك أُلغيت الحروف العربية من اللغة التركية، فأفاق الأتراك وهم أُمّيون، ونشطت عاصفة شعوبية ضد العروبة، حيث حوربت كل المظاهر ذات الصلة بالعربية والعرب، بما فيها الأذان وخطبة الجمعة، إذ أوجب النظام أن يكونا باللغة التركية التي أصبحت تُكتب بحروف لاتينية.

وبهذا قطع العلمانيّون صلة الأجيال الجديدة بتراث تركيا العلمي المكتوب بالعربية أو بالتركية ذات الحروف العربية. وفي ذات الوقت أدار النظام التركي ظهره للعرب حتى على المستوى السياسي، ويمَّمَ وجهه شطر أوربا التي رفضت انضمام تركيا إليها لأنها مسلمة كما قالت تَانْسُو تشيلّر ذاتها، وهي رئيسة الحكومة التركية الأسبق، ولأن الاتّحاد الأوربي تجمّع مسيحي كما صرّح بعض الساسة الأوربيين. وقد ردّ القوميون العرب بالمثل على تعصُّب الطورانية الأتاتوركية؛ مما أوجد هُوَّة واسعة بين أعظم قوميتين في العالم الإسلامي.

لكن الإسلاميين الأتراك خلال العقود الثلاثة الأخيرة عملوا بجدّ من أجل إعادة الاعتبار للعروبة والعرب، فهناك مئات الآلاف من الأتراك الذين صاروا يتكلّمون العربية، سواء من المنتمين إلى تيار الخدمة "كولن" أو إلى التيار النورسي (بديع الزمان سعيد النورسي) أو إلى الحركة الإسلامية المنظمة ذات البعد السياسي (نجم الدين أربكان ثم رجب

طيب أردوغان). والآن نشهد ثمار هذا العمل الكبير من خلال النظام التركي الحاكم الذي وَثَّق علاقاته مع العرب، حتى أن رئيس الحكومة التركي رجَب طيّب أردوغان وقَّع اتفاقيات "استراتيجية" مع عدد من الدول العربية، وصرّح في قمة "سرت" العربية في ليبيا بأن مصير تركيا مرتبط بمصير العرب، وأن العالم لا معنى له بدون العرب.

وفي الطرف الآخر رفض ضرب العراق من الأراضي التركية رغم أن تركيا هي القوة الثانية في حلف شمال الأطلسي، وللولايات المتحدة قاعدة ضخمة في "أَضَنَة" التي تقع في جنوب تركيا، ولعب دورًا ضخمًا في دعم صمود الفلسطينيين ولاسيما في غزّة، وربط حبال الودّ بين رجال الأعمال العرب والأتراك، حتى صار حجم الاستثمارات وحجم السلع المتبادلة بين الطرفَين بعشرات المليارات من الدولارات.

ولكن: ما علاقة ذلك بتيار الخدمة؟ تيار الخدمة هو أحد المساهمين في خلق الأرضية المناسبة وسط الشعب التركي من أجل السماح بتحويل وجه تركيا نحو الوطن العربي.

وبالمناسبة فإن تيار الخدمة هو أوّل تيار تركي في هذا العصر قام بإصدار مجلّة تركية ناطقة باللغة العربية الفصحى وهي مجلة "حراء". هذه المجلة التي استكتبت كبار المفكّرين العرب ولعبت دورًا سيذكره التاريخ في صفحاته الذهبية وذلك في التقريب بين العرب وتركيا. فقد أقامت عددًا من المؤتمرات والندوات الدولية باللغة العربية في: تركيا ومصر والمغرب والأردن واليمن والسودان والجزائر وأماكن أخرى. ونظمت زيارات لمئات المفكّرين والأكاديميين ورجال الأعمال العرب إلى تركيا، والعكس صحيح.

والحقيقة أنني عندما أدركتُ حقيقة الدور الذي تقوم به مجلة "حراء"

الصادرة في إسطنبول قلتُ في إحدى الندوات: إن إسطنبول لا تمتلك فقط جسرها المعلّق الذي يربط الشطر الآسيوي من المدينة بالشطر الأوربي، بل تمتلك أعجوبة أكبر وهي مجلة "حراء" التي ربطت بين إسطنبول -ومن خلفها تركيا- وبين الوطن العربي.

ولم تنجح في تحولها إلى جسر ممتد بين العرب والأتراك إلا بتميّزها وفاعليتها، حيث استمالت كبار المفكّرين العرب لأنها صارت جسرًا بين العقل والقلب، بين الفكر والأدب، وجمعت بين الإقناع والإمتاع، وهي بالجملة إحدى أرقى المجلات الإسلامية مبنى ومعنى، إن لم تثبت الأيام أنها أرقاها على الإطلاق.

ويرأس تحرير هذه المجلة العملاقة الأستاذ المفكّر نَوْزاد صَوَاش، وهو في نفس الوقت رئيس القسم العربي في الأكاديمية الدولية في إسطنبول، وقد قابلتُه بضع مرات واشتركتُ معه في عدد من المؤتمرات أو الندوات الدولية، فوجدته شديد الاعتزاز بالعربية والعرب، وهو يجيد العربية أفضل من معظم علماء العربية العرب الذين أعرفهم، حتى أنني في ندوة في عمان "الأردن" ذكرت أنني أشعر بالخجل لأننا معاشر العرب نتحدث لغة أقرب إلى "الفُصْعى" -بالعين- بينما يتكلم أخونا نوزاد التركي العربية الفصحى.

١٠-الوصول إلى الذروة

رغم أن تيار الخدمة يرفض ممارسة العمل السياسي، بل ويرفض التحزّب، ويقول إنه غير منظم، وإنما هو تيار من المتطوّعين للخدمة الذين يحبّون تركيا ويحبّون الإسلام والمسلمين، بل ويحبّون إخوة الإنسانية من كل الديانات، إلا أنهم صاروا أكبر وأقوى من أكثر التنظيمات، وهو ينتشر

بسرعة وقوة في وسط آسيا بعد تركيا، ومنذ بضع سنوات الْتَفَت إلى الوطن العربي، وهو ينتشر بفاعلية، وفق "استراتيجية" واضحة للمُتابع النّابه.

ولهذا التيار حضور قويّ في أوربا وأمريكا وسط الجاليات التركية خاصة والإسلامية عامة، ولاسيما في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية التي يقيم فيها المفكر فتح الله كولن منذ أكثر من عشر سنوات كما أسلفنا.

وقد اتّضح هذا الحضور وتلك الفاعلية عام ٢٠٠٨م عندما قامت مجلة "فورين بوليسي" الأمريكية الشهيرة في الأوساط الأكاديمية باستبيان بالتعاون مع مجلة "بروسبيكت" البريطانية عن أعظم مائة عالم على مستوى الكرة الأرضية، وكانت المفاجأة أن يحتلّ فتح الله كولن المركز الأول على مستوى العالم كله. وقد أُقيمت عنه مؤتمرات وندوات دولية في عدد من عواصم العالم الهامة، إضافة إلى إنشاء كراسي باسمه في بعض الجامعات الغربية.

١١-العالمية في مواجهة العولمة

مما يجدر ذكره أن عام ٢٠٠٨م ذاته شهد سقوط آخر دعوى كيدية ضدّ كولن في تركيا، إذ برّأته المحكمة من التّهم المنسوبة إليه، وكان قبل صدور الحكم وبعده قد حظي بشهادات وإشادات من ساسة ومفكّرين علمانيين كبار، من بينهم أكثر رؤساء الجمهورية والحكومة في تركيا خلال العقود الثلاثة.

وحظي في الغرب باهتمام شديد من عدد كبير من المفكّرين والمثقّفين والباحثين حتى عَدَّه أحدُهم "مارتن لوثر" الإسلام في هذا العصر.

هذا الاحتفاء لم يأت من فراغ، بل جاء لأن فتح الله شجرة باسقة أصلها

ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ومن ذلك دعوته إلى الحب والتسامح والحوار بين البشر، وكان قد ترجم هذه الدعوة إلى مؤسسة كبيرة في تركيا للحوار بين سائر التيارات والمكونات الفاعلة، ثم أنشأت هذه المؤسسة فروعًا أو مؤسسات شبيهة لها في بعض البلدان الغربية، وهي تقوم اليوم بدور مشهود في الحوار بين المسلمين والغرب، حيث يقوم فتح الله بدور مقدر في إعلاء الدعوة إلى حوار الحضارت وتبادل المنافع والأفكار بالتي هي أحسن، إذ قدم "العالمية" في مقابل تيار "العولمة" الداعي إلى صدام الحضارات، والذي يمثله ساسة ومفكرون، مثل: صموئيل هنتجتون وفرانسيس فوكوياما في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوَّج فتح الله هذا الدور بزيارته للفاتيكان ومحاورته للبابا.

وبعد هذه الجولة الخاطفة مع حكمة كولن هل أنت معي عزيزي القارئ في أنه "فتحٌ من الله" للفكر الإسلامي المعاصر في تركيا؟.. وهل ترى أن اسمه تطابق مع مسمّاه؟!.

ثالثًا: "القطمير".. والدفع بتركيا نحو المستقبل

المستقرئ لقصص النهوض وتجارب الوثوب الحضاري عامة، يلاحظ أن ما من تجربة ناجحة إلا وكان الفكر حاديها وكانت التربية حاضنتها. حدث هذا في حضارات المسلمين، وفي حضارات أوربا قديما، وفي العصر الحديث كانت عربة الحضارة الغربية قد قادها حصان التربية، وهذا ما حدث لتجارب النهوض في اليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا.

وتشهد تركيا الآن بداية إقلاع حضاري، يرى الناس سنابله السياسية والاقتصادية ولا يركز كثير منهم على جذوره الفكرية والتربوية، التي تولى

بذرها ورعايتها عدد من كبار المفكّرين والدعاة، يتقدمهم خلال العقود الأخيرة المفكر والداعية الكبير محمد فتح الله كولن، الذي اجتمعت له من الخصال والفِعال ما لم تجتمع إلا للنزر اليسير من المصلحين؛ فالفقه أبرز صفاته كمفكّر، والإخلاص أبرز خصائصه كداعية، والعملية أبرز خصائصه كمربّي.

وبسبب هذا التشابك المتكامل بين أدواره الثلاثة فقد حقّق نجاحًا منقطع النظير في الدمج الحكيم بين العقل والقلب، مما آتى أطيب الثمر، وحقق أفضل النتائج.

ومن خصاله المشهورة تواضعه الشديد، وإنكاره لذاته، وضغطه على نفسه، وتفانيه في دعوته، ولا بد أن هذا الإنكار الشديد لذاته هو السبب الأول الذي منح شخصيته الجاذبية الآسرة لتلاميذه، وجعل هؤلاء وغيرهم من القراء ينظرون بإجلال إلى هذه الشخصية، ولهذا أقدم صاحب هذا الكتاب على الكتابة عن هذا الرجل بتقدير بالغ، رغم استيائه الشديد للمدح والملق وتحذيره الأكيد من الشخصنة والاختزال.

١-تواضع السُّنبلة

من المعلوم أن السنابل المثقلة بالخير تهبط نزولاً، بينما تصعد الفارغة إلى أعلى، وهذا ديدن العلماء العاملين، الذين لا يزيدهم علمهم وأعمالهم إلا تواضعًا، لأن الثمرة الأولى للعلم أنه يعرّفهم بضآلة ذواتهم، ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، ونقل عن الإمام سفيان الثوري قوله: "إنما العلم الخشية!".

وقد بدا للعيان أن كُولَن من هذا الصنف من العلماء، حيث بلغ إنكاره

لذاته وتفانيه في دعوته، وتضحيته في سبيلها، حدّ أنه لم يكن له عنوان، بسبب أنه لم يمتلك بيتًا، ولم يتزوّج امرأة، ولم يحُزْ من حطام الدنيا شيئًا، بل ظلّ دائم الهمّ، دائب السفر للدعوة والتربية، حتى داهمتْه الأمراض، وأثقلته الأوجاع.

وصار كلما زاد تفانيًا وتضحية يزداد تواضعا حتى أنه أطلق على نفسه اسم "القطْمِير" وهو اسم كلْب أهل الكهف، فقد تذكّر كلبَه عندما كان طفلاً ودعا الله قائلاً: "اللهم كما كنتُ صديقًا لذلك الكلب لإخلاصه، فاغفر لهذا القطمير الواقف على بابك، والذي لم ينظر إلى باب غيرك.. اغفر له وارحمه"[٤].

إن هذا الواقف بباب الله هو الذي تُفتح له اليوم أبواب تركيا حبًّا وتحنانًا، والذي يتذلّل أمام الله هو الذي يتذلّل إليه الملايين من التلاميذ والمحبّين والمعجَبين في تركيا وبلدان المسلمين، بل وسائر أقطار العالم، حتى أنه حصل على المركز الأول بين علماء العالم في استفتاء أجرته مجلة أمريكية عام ٢٠٠٨م، كما أسلفنا.

إن حب الملايين لهذا الداعية المفكر لم يزده إلا تواضعًا وحسّاسية، وأذكر أنا كنا في مؤتمر في عمَّان عام ٢٠١٠ عن تجاربه الإصلاحية، فدخل علينا رئيس الوفد التركي، ليقول لنا إنه اتّصل للتوّ بـ"فتح الله كولن" وأخبره عن احتشاد عشرات المفكّرين والباحثين لدراسة فكره، لكنه أبدى خجله، وطلب منه أن يركزوا على دراسة سيرة المصطفى ﷺ، وأبدى تخوّفه من غيْرة الله.

---

[٤] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٧٥.

٢-النزول إلى الميدان

هذا الرجل الذي زهد بالدنيا، وتضاءل أمام خالقه حتى شبَّه نفسه أمام باب الله بكلْب أصحاب الكهف (القطْمير)، قد عظَّمه الخالق أمام الناس حتى صار له كل هذا الدوي رغم صمته، وكل هذا الصيت رغم تضاؤله، لأنه أدرك أن كل ما يملكه هو هبات من الله يجب أن يوظّفها في مرضاته، فانطلق إلى خلقه خادمًا فسيَّدوه، أنكر ذاته فضخّموها، قزَّم قامته فعمْلقوها، أخفَّ وزْنه فأثقلوه، أحبّهم فعشِقوه.

لقد أجاد الدخول من أبواب متفرقة إلى أفئدتهم بعد أن نزل إليهم وأقام معهم، فهو لا يمارس دور الزعيم، بل يشاور ويحاور، ويجادل بالتي هي أحسن، ويتراجع عن أفكاره وآرائه لصالح الغالبية، وينهي عن ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، حيث يرى أن قصور الإنسان يحول دون رؤية الحقيقة كاملة،[٥] ويرى أن احتكار الحقيقة تعبير عن عبادة الوسيلة وإشارة إلى غياب الهدف.[٦]

ويُعظِّم العلم الذي يزيد الناس تواضعًا إذا أُخذ وفق المنهج النبوي، ويحث على الاستزادة من القراءة، ويؤكد على ضرورة التخلق بأخلاق الرسول العظيم، ولاسيما أخلاق المسامحة واللين والرحمة والحب، مع ممارسة أقصى درجات نقد الذات في مقابل البحث عن أعذار للآخرين.

لقد "نزل" إلى الناس فـ"ارتفع" ذكره، وهذه سنة الله في أن مَن يتواضع له يرفعه، وهذا كان ديدن السلف الصالح.

---

[٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣١.

[٦] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٩.

٣-جامعة "فتح الله كولن"

لقد غذَّ كولن السير في طريق الفكر والتربية، مستخدمًا كل الوسائط والوسائل المشروعة، حتى صار جامعة فاقت كل الجامعات.

وبـ"التربية الإسلامية" أوجد جيلاً ذهبيًّا استفاد من كل المواد الدراسية في مدرسته الفكرية العملاقة، حيث تعلّم هؤلاء القراءة الحصيفة "للتاريخ" والاستثمار الأمثل لعبقرية "الجغرافيا" في تركيا، فعزفوا أنشودة "التربية الوطنية" وبَنَتْ عقولهم "الثقافة" المتسامحة.

درسوا في جامعة كولن "كيمياء" الامتزاج بالناس، وأتقنوا "هندسة" التعامل مع "الأحياء" و"جبْر" القلوب، بجمع الأرواح، وطرح الإحن، وضرب الأنانية، وقسمة المعروف والفضل بين جميع الخلق، وهذا كله عبر رصيد ضخم من "الأخلاق" التي لا تنفد و"اللغة" التي لا تعجز.

وقد نجحت هذه الجامعة إلى حد كبير في إيجاد أطبّاء العقل، وصيادلة القلب، ومهندسي الروح، وحكماء النفس، وخبراء التربية، وزُرَّاع الأفكار، وتجّار الخير، وفرسان الخدمة، وجنود الحق، وأدباء الأخلاق، ومحامي الدفاع عن الآخرين وصنع الأعذار لهم، ومجاهدي السلوك الأقوم والسيرة الحسنة.

في هذه الجامعة علّمهم كيف يعزفون ترانيم الروح وتراتيل الفؤاد، وكيف يلبّون أشجان القلب، وكيف يصنعون الموازين التي تزن رؤيتهم للأفكار والأشياء والأشخاص في ضوء القرآن، وكيف يجيبون عن أسئلة العصر المحيرة، وكيف يقيمون صروح الأرواح في بيئات مادية معادية وأرض جرز، وكيف يمدّونها بأسباب الحياة حتى لا تجفّ ولا تيبس.

وأتقنوا في هذه الجامعة مهارة التعامل مع الزمن، حيث الاستفادة من الماضي دون الالتفات إليه، وعمارة الحاضر دون الغرق فيه، والتخطيط

للمستقبل دون الركون إليه أو التوجّس منه.

٤-مُعَلِّم العصر ومربّي "الجيل الذهبي"

شهدت تركيا منذ عقود جهودًا جبارة لكُولَن وأقرانه وأشباهه في سبيل بناء الفرد التركي الصحيح، واستنهاض الوطن التركي لإعادته إلى "المتن" بعد أن تدحرج إلى "الهامش"، وبواكير النجاح الفائق بادية للعيان.

لقد ربَّى تلاميذه على الدوران حول المقاصد، فلا استهداف إلا للمقاصد، ولا دوران إلا حول الكلّيات، ولا تمركز إلا حول الأصول، وكذا على التنافس للإبداع والتكامل في المتغيّرات، مع امتحان الوسائل وتجديد الأساليب وابتكار الآليات.

ربّاهم على الحركية والفكر واستكشاف خط السير قبل الخطو، والتخطيط لقادم الأيام، واستشراف المستقبل، والتحكم به وصولاً إلى صناعته.. ربّاهم على احترام التخصصات، وتقدير الخبرات، وتنمية المواهب، والاستفادة من التجارب، وعلى الهجرة من الفوضى إلى النظام، ومن التواكل إلى التوكّل، ومن الارتجال إلى التخطيط، ومن الخلط إلى المرحلية.

ومع مرور السنوات صارت دعوة كولن ملء السمع والبصر، وأثمرت ثمارًا يانعة، لأنها قامت على الإيمان في المنطلق، والشمول في الرؤية، والتوسط في الحركة، واليسر في الدعوة، ولأنها استهدفت التجديد، وتوسّلت بالتخطيط، وسارت في دروب المرحلية وسياسة النفس الطويل، ونأت بنفسها عن سُبل العجلة وإحراق المراحل وطيّ المسافات، ولم تقفز فوق الواقع، وحرصت على لجم العواطف، وضبط الانفعالات،

وتجنّب مواطن الزلل وردود الأفعال، وابتعدت عن سياسية السير على الحرف حتى لا تنجرف إلى الهاوية!.

لقد ظلّ ديدنه وشغله الشاغل بناء "الإنسان الجديد" وإيجاد "الجيل الذهبي" بإكساب هذا الجيل "بوصلة" العقل وتمتين صروح الروح.

ومن يقرأ -مثلاً- ما كتبه حول صفات وارثي الأرض، سيجد أنه يركّز على إيجاد "الإنسان الكامل" ومن أجل ذلك استخرج من الوحي وَصْفَة "الإيمان الكامل" وملأ القلوب بـ"العشق الكامل" وبنى العقول بـ"التوجه الكامل" نحو العلم و"القراءة الكاملة" للكون والإنسان والحياة، وربّا تلاميذه على "الحرّية الكاملة" في التفكير، و"الائتلاف الكامل" مع مكونات مجتمعهم، و"الإتقان الكامل" للعلوم، ولاسيما الفكر الرياضي.

٥-أستاذ العبور إلى المستقبل

ظل كولن يدرّب تلاميذه على المحاورة والمشاورة، ويحذّرهم من مسالك الاستبداد بالرأي واحتكار الحقيقة المطلقة، ويدفعهم نحو الالتفات إلى عالمهم الداخلي، بتركيز طاقة الإصلاح والنقد على الداخل، وبالقراءة الشاملة وتنظيم الأفكار، بشحن الهمّة وشحذ العزيمة وتقوية الإرادة، بتجديد النيّة وإشعال جذوة الفاعلية.

لقد علّمهم الانطلاق من الأفكار إلى الأفعال، ومن "الأيديولوجيا" إلى "التكنولوجيا"، ومن "الميتافيزيقيا" إلى "الفيزياء"، ومن القلوب إلى القوالب، ومن الآني إلى الآتي، والسير في كل ذلك بالتوسط بين التعجّل والإبطاء، ووضع الرؤية بين التهوين والتهويل، مع النظر بالأبصار والبصائر، والإقلاع عن دنيا الواقعية إلى ذرى المثالية دون تجاهل للفروق

الفردية، ومع البحث للضعفاء والمتساقطين عن أعذار.

صار كولن بحقّ أستاذ العبور إلى المستقبل، حيث جعل من نفسه ومن تياره جسرًا لعبور تركيا إلى فضاء التقدم، بتجسير الكثير من القيم التي بدت في عقود التخلّف متباعدة إلى حد التناقض، فقد علّم تلاميذه كيف يبنون جسورًا بين العقل والقلب، بين العلم والعرفان، بين الطين والروح، بين الفكر والفعل، بين الوطن والدين، بين الجمعة والجماعة، بين الوحدانية والوحدة، بين السلفية والمستقبل أو بين الأصالة والمعاصرة، بين المثالية والواقعية، بين الحديث والحداثة.

إن الوقائع تثبت اليوم أن تيار الخدمة مع أقرانه من التيارات الإصلاحية يبنون تركيا بالتراحم والتلاحم، بالقوة واللين، بالموضوعية والإعذار، بالتكافل والتكامل، بالتعاون والتعاضد، بالتلاقح والتسامح، بالصفا والوفاء.. بتوزيع الشفقة والنفقة، بتعميم الأمل والعمل، بالترقية الفكرية والتزكية الروحية والتربية العملية، ببناء العالم الداخلي وتعميق العالم الروحي والاندماج في العالم الخارجي.

إن هذا التيار يدفع الأتراك إلى الفضائل ويدفعهم عن الرذائل، يحثّهم على الأخذ بالأسباب ومدافعة الأقدار بالأقدار، مع مداومة التوكل واستكمال متطلباته.

إنه يُعبِّد طرق الرقي أمام الأتراك؛ باقتلاع الأشواك واستزراع الأشواق، يفتح لهم أفضل المسالك ويدفعهم بعيدًا عن المهالك!.

فيا له من رجل، وهنيئًا لأبناء الخدمة بفتح الله كولن، وهنيئًا لتركيا بتيار الخدمة، وهنيئًا للمسلمين بتركيا.

الفصل الرابع
الإبراهيميون الجدد والهجرة إلى الخدمة

- أولا: الانغماس في تبر الخدمة
- ثانيا: الانغراس في ثغور التربية والتعليم
- ثالثا: التفاني في الدعوة والجهاد الأبيض
- رابعا: اعتماد منهج الحوار في سبيل الحق والخلق
- خامسا: التحلي بالفضائل العابرة للقلوب
- سادسا: التغرب والرحلة لخدمة الخلق
- سابعا: الترقي في معارج الأسوة الحسنة
- ثامنا: النضج الفكري والتأهل لعطية الرشد
- تاسعا: عشق الوطن وحب الناس
- عاشرا: تحول نار العلمانية إلى برد وسلام

لم يُنجز فتح الله وتلاميذه من أبناء الخدمة كل تلك الفتوحات الناعمة في جبهة الجهاد الأبيض إلا بعناية الله وتوفيقه الذي منحهم الحكمة، بما فيها من استيعاب لمقاصد الشرع وسنن الكون، وحقائق المجتمع، وطبائع الناس، ومتغيرات الحياة... فقد انطلقوا من عالم "الأفكار" إلى عالم "الأفعال" عبر جسور الحكمة، بكل ما آتاهم الله من مواهب وطاقات.. فالفتوحات "الناعمة" إذًا هي ثمرة العمل "الخشن" الذي يتم على حساب راحة أصحابه وملذّاتهم، ولاسيما ما يرتبط بمفارقة الأرض والوطن والأهل والمال، والذهاب إلى شتّى أصقاع العالم بأقلّ الإمكانيات وفي مختلف الظروف، مع ما في ذلك من مكابدة للأشواق، ومعاناة من الأشواك التي تملأ طرق فاعلي الخير في هذا الزمن الأجدب.

ولما كان نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام ينحدر من الأرض التي تتوزع اليوم بين شمال العراق وجنوب تركيا، فقد كان أسوة مضاعفة لأهل الخدمة الذين نبتوا في بلاد تركيا في الليالي السود، وخرجوا منها كالعنقاء، حيث بدا أنهم حاولوا التأسي به واقتفاء آثاره في أمور كثيرة، ولذلك أطلقنا عليهم مصطلح "الإبراهيميّين" في هذا المقام.

إن الإبراهيمية واضحة في أفكار وأفعال أبناء الخدمة بسفورٍ شديد لمن كان له بصر أو بصيرة، فإن هذه القضية حاضرة بقوة في تكوينهم، وليست مجرد تأثر غير واع، فها هو مؤسّس ومُوَجِّه هذا التيار ومنذ

وقت مبكر يلفت أنظارهم إليها، حيث تَحدّث عن بطولات الصحابة الكرام وتضحياتهم في سبيل هداية الناس، عبر حملهم رحمة الإسلام إلى العالمين من خلال فتح القلوب "بجمال الإسلام وكونه مطابقًا للفطرة والعقل"، ولا ينسى أن يلفت الأنظار في هذا السياق إلى المنهج الإبراهيمي، إذ وصف هؤلاء الصحابة الفاتحين بأنّهم: "كانوا يتمتّعون بروح إبراهيمية وفهم إبراهيمي، لذا تركوا حتى زوجاتهم ونساءهم.... بمثل هذه الروحية نظموا أيامهم وأوقاتهم وزمانهم. وعندما جاء يوم التضحية لم يتردّدوا في التضحية بكل شيء، وقاموا بعمل ما يجب عليهم على الوجه الصحيح. وقد أنعم الله عليهم فيما بعد من الناحية المادية والمعنوية بأضعاف ما ضحَّوا به آنذاك"[١].

ولقد كرر كولن دومًا أن المخرج من مشاكل أمّة المسلمين في هذا الزمن هو إعادة الصحابة من جديد، بإيجاد "الجيل الذهبي"، وفي سياق حديثه عن الصحابة يلفت أنظار المدعوين لوراثة الصحابة إلى الأخلاق الإبراهيمية القائمة على الهجرة، والتضحية في سبيل المبادئ بكل شيء.

وما فتئ يؤكد على الأخلاق الإبراهيمية ودورها في الوصول بالخدمة في تركيا إلى ربيعها المزهر الجميل، معيدًا الفضل في ذلك إلى البذرة التي وضعها بديع الزمان النورسي والذي أشار إليه من خلال وصفه بـ"المؤمن العملاق"[٢].

ورغم البذل الكريم الذي اتسم به أبناء الخدمة إلا أنه حثهم على المزيد في هذا السبيل: "فالشيء المناسب لنا هو التحلي بالروح الإبراهيمي الخليلي، أي كما ترك إبراهيم الخليل عليه السلام زوجته وابنه وذهب دون أن

---

[١] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٩٩-٣٠٠.

[٢] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٠٢.

ينظر خلفه، فهذا هو ما يليق بنا، والرسول ﷺ يقول: «لو كنتُ متّخذًا من أمّتي خليلاً لاتّخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي» (رواه البخاري).

هكذا أحرز أبو بكر هذه المرتبة الرفيعة، فكما كان إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، كذلك كان أبو بكر رضي الله عنه خليل رسول الله..."[٣].

ومع إقراره بأن الخدمة في تركيا تعيش في ربيعها الزاهي إلا أنه يستمر في تعبئة أبناء الخدمة، طامعًا في المزيد، رابطًا كل ذلك بقضيّة الإيمان الجوهرية: "أجل فما نقدّمه من عمل ومن تضحية ومن كرم وبذل، مرتبطٌ بمدى إيماننا وبقوّة هذا الإيمان. وما بذله المسلمون حتى الآن من سخاء وكرم، يزيد من أملنا في أنهم يستطيعون إنجاز أعمال أكبر"[٤].

ويؤكد لهم أن زيادة التضحيات تقرب زمن تحقق الأهداف: "أجل فكلما بذل خدّام الإسلام مما يملكون، وكلما زادت شهامتهم وتضحياتهم في هذا السبيل، كلما اقتربنا من الهدف المرسوم بسرعة أكبر وبصورة أفضل"[٥].

إن المتأمّل في خصال خليل الله إبراهيم عليه السلام كما أوردها القرآن وكما أكّدها التاريخ الصحيح، والمقارن إياها بخصائص تيار الخدمة، يلاحظ بدون أدنى عناء وجود تشابه كبير بينهما في كثير من الموضوعات والمفردات، ويمكن إجمال أهم أوجه التشابه في النقاط الآتية:

أولاً: الانغماس في تِبْر الخدمة

ليست الخدمة جوهر التيار الذي أسّسه كولن فحسب، بل هي عنوانه

---

[٣] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٠١.

[٤] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٠٣.

[٥] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٠٣.

منذ البداية، حيث أن حضور هذا التيار الكبير في الشارع التركي تم دون اسم كبير أو عنوان عريض، كما هي عادة الحركات والتيارات الإسلامية في هذا العصر الذي طغت فيه العناوين على المضامين، واهتم المسلمون فيه بالشعارات أكثر من الأعمال، وبالانفعالات على حساب الفاعليات، إذا استثنينا حركة الإخوان المسلمين. واكتفى مؤسس هذا التيار فتح الله كُولَن باعتبار تلاميذه خدّامًا لدينهم ووطنهم وأمّتهم وإخوانهم في الإنسانية جمعاء، ولهذا عُرف هذا التيار بـ"تيار الخدمة"، وهو أكثر الأسماء تعبيرًا عن مضمونه في هذا العصر الذي فقدت فيه حتى اللغة مدلولاتها، حيث طغت ظاهرة الانفصام بين العناوين والمضامين، أو بين المباني والمعاني، فـ"الأسماء" عادة ما تكون كبيرة، لكن "الأفعال" صغيرة، ويبرز جمال المباني فيفضحها قبح المعاني التي بداخلها.

هذا العنوان (الخدمة) بقدر ما يدلّ على تواضع كُولَن، فإنّه يدلّ على جدّيته الكاملة؛ فالسنبلة الممتلئة لا تشمخ بأنفها إلى السماء وإنما تنحني تواضعًا بعكس السنبلة الفارغة، والإناء الفارغ أكبر ضجة وأعلى صوتًا من الإناء الممتلئ.

ويبدو أن خصلة التواضع استفادها كولن من اتصاله الوثيق بالصوفية، واستمداده منها الزاد الروحي، وهي الصوفية الحقّة التي كان عليها سلَف الأمّة العظام.

روي عن أبي سليمان الداراني قوله: "مَن رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة"[٦]. وكأن كُولَن أقوى مَن استوعب هذه العبارة الصوفية وجسَّدها

---

[٦] الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري (ت/٤٦٥هـ)، ص:٨٤.

في حياته وحركته التي حملت اسم الخدمة ومضمونها، ووصل "التفاني" في هذه الخدمة إلى حد "الفناء" فيها، لأنها أنكرت ذاتها، واحتقرت ما تقدّمه لأمّتها، بسبب إخلاصها وتركيزها الدائم على ما يجب أن يكون وليس على ما كان، أي أنهم لا يستحضرون ما فعلوا، ولكن ما يجب أن يفعلوا مما تحتاج إليه مجتمعاتهم لكي تسعد في دنياها وتفوز في أخراها.

وقد حضر أهل الخدمة بفاعلية في ميادين الخدمات التي تحتاجها مجتمعاتهم؛ سواء في الميدان الاجتماعي الخيري، أو الميدان الفكري الثقافي، أو الميدان التربوي التعليمي، أو الميدان المالي الاقتصادي، أو الميدان الإعلامي الفني، فكانوا أعلامًا مبرزين في كل هذه الميادين، مع وجود بعض التفاوت النسبي بينها، وحقّقوا أرقامًا مدهشة ومنجزات مبهرة، تفوق بكثير المدخلات التي يملكونها، لكنها بركة الإخلاص والتدقيق والشورى.

ومع أنهم لم يخوضوا غمار العمل السياسي، تاركين هذا الأمر لغيرهم، إلا أنهم لم يمارسوا السلبية في هذا المجال بتاتًا، حيث مارسوا العمل السياسي المطلوب من أفراد المجتمع العاديين، كمعاقرة الانتخابات والدفع بمن هو أصلح لتركيا إلى مقاعد المسؤولية وصناعة القرار.

فإن كولن يرى أن الاهتمام بالشأن السياسي بهذا المفهوم ذو صلة بخدمة الوطن والأمّة، حيث يقول: "من المقاييس والموازين عندنا أن القول: "إنني لا أتدخّل في السياسة، ولا تتدخل أنت في السياسة" يعني: "إنني لا أتدخل في شؤون الوطن والأمّة، ولا أتدخل في حياة وبقاء الأمّة، ولا تتدخل أنت كذلك"[٧].

---

[٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٧٣.

لقد تفوق أهل الخدمة في الفاعلية التي عُرفت عنهم واشتهروا بها، وذلك بسبب التوسع الأفقي والعمق الرأسي في هذه الخدمات، حيث خاضوا كل مجالات الخدمة، وجمعوا في كل مجال منها بين الإخلاص الدعوي والإتقان المهني، ولذلك تسابق الناس على الاستفادة من خدماتهم مع أن عددًا من هذه الخدمات تأخذ رسومًا مقابلها، كالخدمات التعليمية والطبية، فقد قدّمت خدمة راقية تفوّقت فيها على المحترفين وأهل الصنعة والخبرة والدراية فيها مع قلّة الرسوم المطلوبة فيها، بجانب حضور الحسّ الرسالي والنَّفَس الروحي والذي لا يفصل أي أمر دنيوي عن الآخرة، ولا يُخرج أي خدمة أو متعة من دائرة العبودية لله تعالى.

إن حجر الزاوية في هذه الفاعلية التي اتّسم بها أهل الخدمة وتفوَّقوا بها على نظرائهم هي اليقين بأن الخدمة جوهر العبودية التي خُلق من أجلها الإنسان، ولهذا ظل كولن يوصي أتباعه بأهمية ووجوب "الاستجابة للحق في خدمة الخلق". وظل يحثّهم على استحضار هذه النية، جاعلاً إياها فيصلاً بين "من يهدف إلى خدمة الإنسان وبين حياة المتوحشين البدائيين المملوءة بكل الرغبات الجامحة"[٨].

وللأهمية البالغة لهذه الخدمة في مضمار العبودية الكاملة لله تعالى، وهي بدورها تمثل الطريق الوحيد لاستعادة الأمّة أمجادها وتحقيق التمكين الحضاري المنشود، فإنه يجعل الخدمة الخالصة من المنافع والشوائب هي الغاية العظمى التي لا يمكن التفريط بها، ولهذا فإن دستور رجل الدعوة يتمحور حولها.[٩]

---

[٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣١.

[٩] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٦.

إنه يعد أهل الخدمة أصحابًا للروح المثالية والقلوب الكبيرة "وهم مثل ملائكة الرحمة وملائكة الحفظ والصيانة في المجتمع الذي يعيشون فيه، يتصارعون مع مصاعب المجتمع ومصائبه، ويتصدون للرياح وللعواصف ولإطفاء الحرائق، وهم على أهبة الاستعداد لكل طارئ"[١٠].

ويمدح كولن أهل الخدمة بكل ما يحتويه قاموسه الضخم من مفردات الجمال والجلال، فهم الثمينون الذين لا يمكن شراؤهم بملء الأرض ذهبًا وجواهرًا، وهم "كأمثال الغيوم المحملة بالأمطار، محملون على الدوام بالمبادئ العالية وبالفضائل السامية. وسواء أعَرفوا ذلك أم لم يعرفوا فكل أرض يطأوها تخضرُّ من بعدهم"[١١].

ويعتبر كولن أن همة كل شخص وشهامته تكون حسب درجة علوّه، ولا يمل من التأكيد على الأهمية البالغة للخدمة في كل المناسبات، حيث ينطلق من القاعدة المبدئية التي وضعها لأتباعه في هذا المجال والتي لخّصها بقوله: "والطريق المؤدّي إلى الإنسانية يمر عبر تفكير الإنسان بالآخرين واستعداده إن اقتضى الأمر لإهمال نفسه في سبيل الآخرين"[١٢]، ولاهتمامه بتقديم الخدمة لكل بني الإنسان مهما كانت أديانهم، فإنه لا يبخل بها حتى على الغربيين الذين غزوا بلاد المسلمين وتركوا فيها جراحات غائرة ومرارات طافحة، ومع ذلك فإنه لا يرى في الغرب دار حرب أو دار كفر، بل "دار خدمة".

ومع جمال وعظمة ما قاله كولن عن الخدمة، إلا أن ما أنجزه في

---

[١٠] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٨.

[١١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٧.

[١٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤٣.

هذا المجال هو أجمل وأعظم، حيث نزل أبناء الخدمة بكل ما يملكون من مواهب وطاقات إلى المجتمع التركي لخدمته منذ السبعينيات، وبعد عقدين انطلقوا إلى وسط آسيا، حيث تفانوا في تقديم الخدمات المتنوعة لإخوانهم الذين خرجوا من الاحتلال الروسي لبلدانهم والذي استمر عقودًا طويلة فصلتهم عن ثقافتهم وتاريخهم وأمّتهم، ومع دخول الألفية الثالثة وَلَجوا إلى رحاب العالمية بخدمات تربوية وإعلامية وإغاثية وفكرية.

إنهم دائمو النزول إلى المجتمع، دائبو العمل لتقديم الخدمات لهم، لكن وصية أستاذهم لا تبارحهم في عدم نسيان رسالة الهداية وواجب الارتفاع بالناس إلى المستوى اللائق بإنسانيتهم كما قرر ذلك الإسلام، فقد ذكر أحد تلامذته في أحد المؤتمرات أنه قال لهم: "إذا ظللتم تنزلون إلى مستوى الناس فستنتهون؛ لأنكم سترتطمون بالأرض"!!

وبسبب عشق كولن للخدمة ودخوله إلى رحاب العبودية من أبوابها الواسعة، وحرصه على تحلي تلاميذه ومحبيه وكل المسلمين بما يحبّه لنفسه ويحرص عليه، فإنه ما برح ينقي العقول والقلوب والسلوكيات من الشوائب التي تُشَوِّه جمالها، وتقيّد حركتها وانطلاقها، ولهذا فهو يكره الأنانية ويُحذِّر من الوقوع في دوامتها،[١٣] ويدفع نحو الإعلاء من قيمة الإنسانية في النفس، بحيث يحب كل أحد للآخرين ما يحبه لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لذاته،[١٤] ويحث على التلقائية والبساطة والتحلي بخلق التواضع الجمّ،[١٥] ويدعو إلى الخروج من شرنقة الذات والتّمحْور حول

[١٣] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٥١-٥٣.

[١٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٥٧، ٥٨.

[١٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٥٤-٥٦.

الأمة بالسعي الدائم والدائب لجلب المنافع لها، ودفع المضار عنها،[١٦] واستحضار المشتركات ونقاط الالتقاء والاتحاد مع الآخرين، والتعاون معهم لتحقيقها من أجل الصالح العام.[١٧]

وفي ذات السياق دعا إلى الإعلاء من قيمة الصداقة والإخاء،[١٨] وحثّ على خدمة حقوق الوالدين وحقوق الأطفال، كواجب ديني وأخلاقي وواقعي،[١٩] وحَضَّ على اجتذاب الشباب بأفضل السبل وأنجع الوسائل، من أجل تربيتهم ودفعهم إلى الخدمة،[٢٠] واهتمّ اهتمامًا بالغًا بتربية الكوادر، التربية التي تصقل إنسان الخدمة، وتؤهله للتضحية بوقته وطاقته وماله في سبيل الآخرين، رغبة بما عند الله من الثواب العظيم.[٢١]

الجدير بالتذكير أن نبيّ الله إبراهيم عليه السلام مثل سائر الأنبياء والمرسلين، إنما جاؤوا لخدمة الخلق ورحمة من الله بهم، فإن كل الرسالات السماوية جاءت من أجل الإنسان لتوفير معاشه الدنيوي وسعادته المادية، وتحقيق فوزه الأخروي الذي لا يتم إلا بإشباع حاجاته الروحية والنفسية في الدنيا، غير أن إبراهيم عليه السلام تفوَّق على أكثر الأنبياء في هذا الأمر؛ لأنه أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، فكيف لا وهو خليل الله، ويعرف تمامًا أن الطريق إلى الله يمرّ عبر خلقه؟!

وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى من نقاط التشابه بين نبي الله إبراهيم عليه السلام

---

[١٦] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٥، ٩٦، ١٤٢.
[١٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٧٩-٩٤.
[١٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٦٠-٦٢.
[١٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٦٣-٦٦.
[٢٠] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٠٤-١٠٧.
[٢١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٩-١٠١.

وتيّار الخدمة الذي انغمس في خدمة الخلق، لكن ذلك لم يشغله عن الانغراس في التربية والتعليم، لأن الخدمة لا تفرق بين قبضة الطين ونفخة الروح، بين الماديات والروحيات، ولا تفصل بين الدنيا والآخرة، وهذا هو مضمون الفقرة الآتية.

ثانيًا: الانغراس في ثغور التربية والتعليم

خليل الله إبراهيم عليه السلام هو أب الأنبياء ومرسي دعائم ملّة الإسلام الحنيفية، فقد دعاه الله إلى الإسلام، فاستسلم على الفور، واعتنق الإسلام بكُلّيته: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:١٣١). وعلى الفور دعا إبراهيم عليه السلام أهله وأحباءه ومعارفه إلى هذا الدين وربّاهم عليه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٢).

وما بعث الله النبيين إلا مبشرين ومنذرين، معلمين ومربين: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(النّحل:٣٦)، فكيف بخليل الرحمن عليه السلام وأبي الأنبياء؟!

ولم ينحصر الاهتمام التربوي عند إبراهيم عليه السلام على من عاصرهم، بل كان مهمومًا بالأجيال القادمة التي يراها من وراء حجب الغيب، حيث دعا الله بأن يهيّئ لها من يدعوها ويعلمها ويربيها، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٢٩)، وتلاوة الآيات هي الدعوة والهداية، وتعليم الآيات من الواضح أنه التعليم، أما التزكية فهي التربية، لأنها تشمل مرحلتي التربية، وهي التخلية والتحلية، فالتزكية تأتي

بمعنى التطهير وبمعنى الزيادة.

أما بالنسبة للإبراهيميين الجدد فإن شغلهم الشاغل هو التربية والتعليم، ولخطورة هذا الأمر فإنهم يجعلونه الفيصل في تحديد مستقبل بلادهم وبلدان المسلمين، كما يقول الأستاذ فتح الله كولن: "وإذ ندخل إلى عتبات القرن الحادي والعشرين، فإن مستقبل بلادنا والبلاد المرتبطة بشؤوننا منوط بعُقبان النور ذات أجنحة الضياء الذين يُعَدُّون ممثلين سامقين للعلم والفضيلة والأخلاق في أيامنا، والذين نذر أكثرهم نفسه للتربية والتعليم. وستكون هذه الأجيال المباركة الرائدة -إن شاء الله تعالى- أصواتًا من النور وأفكارًا من الضياء تصفي حساب شعبنا مع العصر، زيادة على ريادتها في اكتساب قيمنا التاريخية مجددًا"[٢٢].

ورؤية كولن للتربية عميقٌ غورُها، فهي الوسيلة الرئيسة لتخلية الفرد من شوائب الطين ووافدات الأفكار الدخيلة على فطرة الإنسان المسلم وثقافته الأصيلة، ولهذا نجده يحث على تفعيل التربية في مواجهة الإلحاد الذي غزا تركيا في عقود خلت.[٢٣]

ومن يقرأ أدبيات هذا المربّي العملاق حول التربية يعتقد أنها الإكسير الذي سيعيد الحياة إلى هذه الأمة العليلة.[٢٤]

ومع الأهمية البالغة للمعرفة والقراءة إلا أنها لا تغني شيئًا بدون تربية، يقول كولن: "مع أهمية انتشار القراءة والكتابة ودورهما الكبيران في رقي المجتمعات إلا أنه إن لم يتم تربية الأجيال بثقافتها الذاتية وحسب اتجاه

---

[٢٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

[٢٣] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٥.

[٢٤] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٩-١٠١.

معلوم فمِن الصعب نيل النتائج المرجوّة"[٢٥].

ولهذا صارت التربية والتعليم الشغل الشاغل لأبناء الخدمة داخل وخارج تركيا، سواء عبر الأطر النظامية ممثلة بالمدارس والجامعات أو عبر الاجتماعات التربوية التي يسمونها "صُحْبة" وهي تشمل كافة أبناء الخدمة، أما المموّلون الذين يتولون الإنفاق على مشاريع الخدمة فإن اجتماعاتهم لها طابع تربوي روحي أيضًا.

وقد تفوَّق أبناء الخدمة في التربية والتعليم، مما أدى إلى انتشار مدارسهم وجامعاتهم في شتى مناطق تركيا بل وكثير من أصقاع العالم. وقد وصل عدد المدارس إلى ألفي مدرسة متوزعة على مائة وستين دولة في العالم، يتسابق عليها الطلاب، ولا يدخلها إلا الفائزون في مسابقات صعبة، نظرًا لكثرة الراغبين في ارتيادها، حيث حققت مراكز مرموقة في كثير من المسابقات الدولية والإقليمية والوطنية، ولا تخلو أي مدرسة منها من الكؤوس والميداليات والدروع والجوائز التي تؤكد تفوق طلابها ونبوغ أساتذتها، ونجاعة مناهجها، ورسالية القائمين عليها.

ويسير أبناء الخدمة في نفس الدرب بالنسبة للجامعات التي وصلت إلى أكثر من خمس عشرة جامعة داخل تركيا، وهناك غيرها في بلاد البلقان وفي أواسط آسيا، وينطلق هؤلاء من "استراتيجية" تغُذُّ الخطى نحو إيجاد خمسين جامعة خلال السنوات القليلة القادمة، ونرجو أن يتحقق هذا الهدف "الكمي" الكبير دون أن يؤثر على "الكيف" والنوعيات المتفوقة التي تصنعها هذه الجامعات.

---

[٢٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١١٦.

ولكل مدرسة في تركيا من مدارس الخدمة ثلاث توائم: واحدة في نفس مدينتها، والثانية في شرق تركيا، وهي منطقة كردية تتسم بالفقر مقارنة ببقية تركيا، والثالثة تكون في بلد خارج تركيا؛ هذه التوأمة تؤدّي إلى تحقيق التكامل في الخبرات والمنافع، وإلى تمتين أواصر الأخوة والتعاضد، حيث تدعم المدارسُ الغنيةُ المدارسَ الفقيرة.

ومن خلال معرفتنا بهذه المدارس، فقد بدا واضحًا للعيان أن نقطة تفوقها الجوهرية هي امتلاكها للكادر الرسالي، الذي لا يؤدي عمله كمهني متخصص فحسب، بل كصاحب دعوة ورسالة أيضًا، حيث يعتبرون هذه المدارس محطّات لبثّ أنوار الهداية، ومصانع لإعادة بناء الإنسان، ويتولى إيجاد الجيل الذهبي، الجيل الذي ينتشل أمّته من "الهامش"، معيدًا إياها إلى "متن" الحضارة وصناعة الحياة.

ثالثًا: التفاني في الدعوة والجهاد الأبيض

كان الخليل إبراهيم عليه السلام نبيًّا ورسولاً، وكان داعية كبيرًا ومصلحًا عظيمًا، مارس الجهاد بكل صوره السلمية البيضاء، تحمل المسؤولية نحو الناس، وبدأ بالأقربين، كأبيه الذي أصرَّ على كفره، فحاول معه مرارًا، مستخدمًا كل الأساليب المؤثرة التي تبرز مدى حبه له وإشفاقه عليه، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(مَرْيَم:٤١-٤٥).

وقد تفانى إبراهيم عليه السلام في دعوته إلى ربه تعالى وجهاده في سبيله في بلاد الرافدين رَدْحًا من الزمن، حتى ضاق قومه به ذرعًا، وطغى عليه ملِكُهم النمرود بن كنعان، فتمالؤوا عليه وأوقدوا له نيرانًا عظيمة، ورموه فيها، لكن الله أنجاه منها، فرحل بعدها من العراق، وهاجر إلى فلسطين، وتنقَّل بين طرفي الأرض المقدسة: مكة وبيت المقدس، وبنى الكعبة المشرفة مع ابنه إسماعيل بأمر من الله،[٢٦] وبعدها بأربعين عامًا كما جاء في الحديث الصحيح بنى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وخلال هذه الفترة سافر إلى مصر، وكانت له قصة مع فرعونها.

وصفوة القول إن إبراهيم عليه السلام كان أحد أولي العزم من الرسل، فمارس كل أنواع الدعوة وكل صنوف الجهاد الأبيض حتى أتاه اليقين، وببركة دعوته وجهاده أفاض الله على آله بالنبوة والملك وهما خيرا الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(النِّساء: ٥٤).

واقتداء بالخليل إبراهيم عليه السلام، تولى فتح الله تعليم تلاميذه التضحية في طريق نشر النور، ولاسيما في العقود الأولى من دعوته، إذ كانت ظروف تركيا الكمالية لا تسمح إلا بالقبض على الجمر، فحملوها ليضيئوا العتمة للأتراك، فكانت النار لهم والنور للشعب، ونالهم "الغرم" خلال سنوات العلقم ووزعوا على الناس "الغُنم"، وقد أعانهم على القبض على الجمر يقينهم أنها ستنجيهم من جمر الجحيم وسوادها، وستدفع بهم نحو الولوج إلى جنان الله الوارفة الظلال.

وقد مرت تركيا بظروف عصيبة ومحن سوداء، حيث شاعت العلمانية

---

[٢٦] ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(البَقَرَة ١٢٥).

المتطرفة التي أوصلت كثيرين إلى لُجَّات من الإلحاد، وأمام موجات الإلحاد أجاد كولن صناعة قوارب النجاة لاستنقاذ المؤمنين من الغرق فيها، حاملين إياهم إلى جزر الإسلام وشواطئ السلامة واليقين.

وكان يحث تلاميذه على ممارسة الإصلاح والبناء، فها هو يخاطبهم قائلاً على سبيل المثال: "ولننتبه إلى هذا أيضًا: أننا إن لم نملأ هذا الفراغ ولم نصدع بالحق بوجه الإلحاد والإرهاب والفوضى بأعلى صوتنا ولم نقل لهم: هذا الطريق مسدود لا يمكنكم عبوره، فلا يبقى أي معنى للجهاد الذي بذله أجدادنا لصدِّ الروس واليونان والفرنسيين والإنجليز وأمثالهم من فرق الصليبيين عن حدود البلاد"[٢٧].

هذا الجهاد السلمي الأبيض هو من أعظم الجهاد في سبيل الله، لأنه يقوم بحراسة ثغور مهمة وخطيرة، ولهذا واصل كولن حث أتباعه على المرابطة في الثغور التربوية: "نعم "المرابط" الذي نذر نفسه في سبيل الحق، ولا يفكر في شيء غير دعوته، وجعل غاية حياته سد الثغرات التي قد تتسرب منها المهالك والمخاطر إلى بلاده، ويعدّ تبليغ ما منّ الله عليه من يُمن وبركة إلى الآخرين أعظم وظيفة"[٢٨].

وما فتئ يبين لتلاميذه أن القاعدة التي يقوم عليها هذا الجهاد الشامل والثقيل هي القلب، ومن ثم ركز على إصلاحه وتنقيته وبنائه بناءً سليمًا.[٢٩] كما فعل إبراهيم عليه السلام الذي جاء ربه بقلب سليم.

ومن مواصفات القلب السليم أن يكون شديد اليقظة والحساسية إزاء

---

[٢٧] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٤٧.

[٢٨] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٦١.

[٢٩] انظر مثلاً: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٦١.

ما يعتمل في بلاده: "فإنْ كنا لا نسارع للجهاد من أجل إعلاء الدين الإسلامي المبين أو لا نستطيع ذلك، وإذا كنا لا نصاب بالأرق من جراء انسحاقنا تحت صولة الكفر ومن جراء غلبة الباطل على الحق ولا نحس بألَم عميق.. فليس هناك من يجب إلقاء اللوم عليه إلا أنفسنا. لذا يجب على كل منّا أن يعيب نفسه ويتهمها"[٣٠].

والجهاد بهذا المفهوم هو رسالة محمد ﷺ، فهو الذي بلّغ الإنسانية جمعاء نظرة الإسلام في "أن الحفاظ على العرض والشرف وعلى الوطن والأمة وحراستها والكفاح في سبيلها جهاد، وأن الجهاد أسمى ذروة في سلّم أداء وظيفة العبودية لله تعالى"[٣١].

وبسبب اختلاط الكثير من المفاهيم والتباسها في هذا العصر بسبب التخلّف الفكري وضغوطات الاستبداد السياسي والقمع العسكري، فقد شدد كُولَن على وجوب التفريق بين الجهاد والإرهاب، والتأكيد على أن البلاغ يقوم على احترام الحرّيات وليس على القَسْر والإكراه والإرهاب، حيث قال: "تؤدّى هذه الوظيفة المقدسة ضمن منهج الأفراد والأمم والدول، إذ المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا نظام في عالم ليس فيه مسلم، كذلك لا إرهاب ولا فوضى في المواضع التي يوجد فيها مسلم. وهذا منوط بقيام المسلم بوظيفته وأدائها حق الأداء"[٣٢].

ولأهمية المساجد في الدعوة، فقد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام وعهد إليه ببناء المساجد وتنظيفها وتهْيئتها للقيام بهذه الوظيفة (كما في

---

[٣٠] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١٦.

[٣١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٦١.

[٣٢] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٧٦.

الآية ١٢٥ من سورة البقرة)، وهذا ما يحث عليه كُولَن في محاضراته وخطاباته وكتاباته، فهو ينظر إلى المساجد على أنها أماكن لتناول المسائل القرآنية، وللتذاكر، وأماكن مباركة للعلم والعرفان، ولممارسة الذكر والفكر ومراسيم العبودية، وأنها مجالس للشورى بين رجال الدولة، ومناقشة المسائل التي تنظم حياة المؤمنين.[٣٣]

وبسبب هذه الوظائف الجليلة والخطيرة للمساجد، فقد جعل الله تعالى تعطيلها من أجرم الجرائم وأظلم الظلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾(البَقَرَة:١١٤)، وهذا ما يؤكد عليه كُولَن في تعليقه على هذه الآية القرآنية.[٣٤]

وقد أرسى القرآن الكريم قاعدة الدعوة إلى الله بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النَّحل:١٢٥)، وهذا موضوع الفقرة الآتية.

رابعًا: اعتماد منهج الحوار في سبيل الحق والخلق

أبرز القرآن الكريم خليل الله إبراهيم عليه السلام في مجال محاورة قومه ومناظرتهم، بحيث فاق كل الأنبياء في هذا المجال، إذ استخدم الحجج العقلية والأدلّة الفطرية والمشاعر القلبية لإقناع الخصوم والمجادلين بما يريد إيصاله إليهم من وحدانية الله، ووجوب الإيمان به وعبادته.

ومن ذلك محاججته لأحد كبار الطغاة في تاريخ البشر، ممن ادّعوا الألوهية صراحة، وهو النمرود بن كنعان، قال تعالى معجّبًا نبيَّه محمدًا

---

[٣٣] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٦٥.

[٣٤] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٧٤، ٧٥.

ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(البَقَرَة:٢٥٨).

ولأهمّية الكلمة الطيبة، ولتفوُّق إبراهيم عليه السلام فيها واستخدامه لها ببراعة كاملة في المناظرات وإقناع الخصوم، فقد نوَّه الله في سورة "إبراهيم" بقيمة الكلمة الطيبة وشبَّهها بالشجرة الطيبة،[٣٥] وحذَّر من الكلمة الخبيثة، وشبهها بالشجرة الخبيثة.[٣٦]

وهذا ما سار عليه فتح الله كولن، فقد ظلت الكلمة عدَّته الثمينة، فهي سهمه الأخطر الذي نَفَذَ به إلى القلوب، وسلاحه الأقوى الذي دمّر به الموانع التي حالت دون اهتداء كثير من الجوعى إلى بستان هذا الدين.

وقد اهتمّ كولن بالأدب، وبالغ في مدحه، وحث على الاستفادة منه في الجهاد الأبيض ومعركة التبليغ وإيصال رحمة الله إلى الناس.[٣٧] وكذلك الشعر كوسيلة من وسائل البلاغة والبيان وإيصال الهداية عبر قوالب الكلمة الجميلة الساحرة.[٣٨]

ويمكن معرفة اعتداده بالشعر من خلال تعريفه له، حيث يقول: "الشعر هو حركة قلب وانفعال روح ودمعة عين. والحقيقة أن دموع العين ليست إلا شعرًا صافيًا تحدت الكلمات. الشعر زهور وورود لا تذبل للشاعر،

---

[٣٥] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(إبراهيم:٢٤-٢٥).

[٣٦] ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾(إبراهيم:٢٦).

[٣٧] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٨-١٥٢.

[٣٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٥٣-١٥٧.

وعطر لهذه الزهور والورود منتشرة حواليها، فإذا كانت تربيتها صالحة وماؤها نقيًّا وبذورها معلومة فلا يمكن للإنسان أن يشبع من ألوانها وعطورها"[٣٩].

ولأن الكلام سلاح ذو حدّين، فإنه يُحذر من الثرثرة والكلام غير النافع، ويحث على الصمت إن لم يكن الكلام مفيدًا.[٤٠]

وعلى العموم فإنه يولي الكلمة عناية فائقة، حيث يقول عنها: "الكلمة أهمّ واسطة لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر، ومن قلب إلى آخر. والذين يحسنون استعمال هذه الواسطة من أرباب الفكر، يستطيعون جمع أنصار عديدين للأفكار التي يريدون إيداعها في القلوب والأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود"[٤١].

وقد عُرف عن كولن إتقانه للغة، وتفوّقه في سائر آدابها وفنونها؛ فهو خطيب مُصْقِع، ومتحدث بارع، ومحاور مقنع، وكاتب أخّاذ. ودرّب تلاميذه على التفوّق في هذا المضمار، مع التحلّي بآداب الحوار، والتسلح بالتواضع، وعدم الاقتراب تحت أي ظرف من الشجرة الخبيثة التي تسمى "احتكار الحقيقة"، ودفعهم إلى إيجاد مؤسسات في هذا السياق.

وفي هذا الدرب قام كُولَن بزيارة الفنّانين والرياضيين ومشاهير المجتمع وصُنَّاع الوعي فيه ابتداءً من عام ١٩٩٠م، ومحاورتهم في كل ما يهمّ المجتمع التركي، ثم قام بدعوة هؤلاء المتنافرين إلى موائد الطعام في بيوت تلاميذه، وهناك بدأ الحوار يتم بين مختلف الفرقاء، وفي عام ١٩٩٤م قام بتأسيس

---

[٣٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٥٥.

[٤٠] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٨.

[٤١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٨.

"وقف الصحفيّين والكتّاب" بالتعاون مع مجموعة من الكتاب والصحفيّين والأكاديميين لكي يكون محضنًا ثابتًا ومنظمًا لمثل هذه الحوارات، ومن رحم هذا الوقف الولود وُلدت حتى ٢٠١٠ تسعة منتديات حوارية متخصصة في القضايا التي تهم المجتمع التركي ثم الإقليمي ثم الدولي.

وقامت هذه المنتديات بأنشطة حوارية ضخمة، جسَّدت ثقافة الحوار وكرّست قيم التعايش والتسامح، منها عشرات المؤتمرات ومئات الندوات والمحاضرات، إضافة إلى إصدار الكتب والصحف والمجلات والدوريات التي تخدم ذات الهدف، وكذلك الأفلام الوثائقية والسينمائية التي بدأت بالظهور خلال السنوات الأخيرة.

وأوجد أبناء الخدمة محضنًا آخر للحوار، وتبادل الرؤى، وتلاقح الأفكار، وهو وسائل الإعلام، إذ امتلكوا عددًا كبيرًا من وسائل الإعلام ذات التأثير الجماهيري العريض كالقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت والصحف العامة، بجانب الصحف المتخصصة في قضايا: المرأة، والطفل، والمعوقين، وكذا الصحف والمجلات العلمية والأدبية والفنية والرياضية والمهنية.

ورغم حداثة التجربة الإعلامية للخدمة نسبيًا إلا أنها أبهرت المتابعين للشأن الإعلامي داخل تركيا وخارجه، ولاسيما أن بعضها نجح في تجاوز القومية إلى العالمية، كجريدة "زمان" التي تجاوزت المليون نسخة في اليوم، وتُطبع بعدد من اللغات في نفس الوقت في خمسة عشر مركزًا داخل وخارج تركيا.

ويزيد من غرابة تفوُّق هذه الجريدة على مثيلاتها، عندما نعرف أنها تمثل تيار الإصلاح والبناء والإيجابية، وهو -كما نعلم- تيار فكري

اجتماعي حضاري وليس متخصصًا في العمل السياسي، وقد يكون هذا عامل قوة، لا عامل ضعف كما يُفترض؛ لأنها تتبنّى قضايا المجتمع، وتصبح محلّ ثقة مختلف أطراف العمل السياسي.

وفي لقاء لنا عام ٢٠١٠م في مقر هذه الجريدة مع مستشار الجريدة ورئيس تحريرها السابق أعاد أهمّ عامل في نجاح هذه الجريدة واحتلالها المركز الأول في تركيا بدون مُنازع إلى تبنّيها لقضايا الناس مقابل تبني الصحف الأخرى لنفسها أو أحزابها وجماعاتها.

مما يجدر ذكره أن كُولَن أوصى تلاميذه بالانفتاح على الجميع، حيث نقلوا عنه وصيّته لهم بأن لا يستثنوا أحدًا في الحوار.

ولما كان الحوار المؤدَّب، والتعامل الحسن مع الآخر، والصبر الجميل عليه إذا تجاوز أو أخطأ، بحاجة إلى ثروة أخلاقية كبيرة، فإن هذه الأخلاق هي نقطة التشابه الخامسة بين أبناء الخدمة وخليل الله إبراهيم عليه السلام.

خامسًا: التحلّي بالفضائل العابرة للقلوب

كل الأنبياء اصطفاهم الله، وأدَّبهم فأحسن تأديبهم، وكانوا منارات سامقة في الأخلاق، وخليل الله إبراهيم عليه السلام من أعظمهم في هذا المجال؛ ففي خلق الطاعة دَلَفَ إلى محراب التضحية، فاستجاب لرؤيا منامية تأمره بذبح فلذة كبده "إسماعيل" الذي جاء في خريف العمر بعد انتظار طال أمده، حيث اسْتَلَّ ولَدَه من حضن أمّه وذهب به إلى الرمال الحارقة خارج مكة، وأعدَّ كل شيء لإتمام عملية الذبح، حتى إذا هوى بسكّينه فوق رقبة ابنه الوحيد وتأكد نجاحه في الابتلاء، جاء الفداء الربّاني بكبش "عظيم"، كما أورد القرآن، ليكافئ تلك التضحية "العظيمة".

ومع الابتلاءات التي تقلَّب فيها بين السّرّاء والضّرّاء، فقد كان صابرًا محتسبًا في الضراء -كما أسلفنا آنفًا- وصار شاكرًا لأنعُم الله في السراء، كما وصفه ربه بقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النّحل: ١٢١).

وعن خلق الكرم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾(الذّاريات: ٢٤-٢٧).

ورغم عدم تفصيل الآيات للحدث إلا أن المتدبر يلمس الكرم طافحًا من ثنايا التعبير القرآني، فقد:

- استقبلهم بحفاوة رغم أنهم منْكَرون بالنسبة له أي غير معروفين عنده.
- تسلل خفية عندما خرج من جانبهم للمجيء بالطعام، حتى فاجأهم به مسرعًا.
- قدَّم لهم عجلاً سمينًا وهو أفخر اللحم وأغلى الطعام، رغم فقره، إذ كان يعيش في بيئة فقيرة الموارد.
- استخدم أقصى درجات الحفاوة والتلطف معهم، حيث لم يدْعُهُم إلى الطعام، بل عرض عليهم الأمر بأدب: ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ بعد أن أصبح العجل أمامهم بالفعل. وعن كرمه عليه السلام روي أنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف.

أما عن حلمه عليه السلام، فقد وصفه الله بالحلم في موضعين من القرآن، وأورد عددًا من قصص حلمه وعطفه على الناس حتى لو كانوا كافرين، ومن ذلك مراجعته للملائكة الذين مرّوا عليه قبل ذهابهم إلى قوم لوط عليه السلام لإنزال العذاب الاستئصالي بهم بعد كفرهم وفسادهم، وكذلك دعاؤه لمن سيأتي بعده من ذريته، ومن الطبيعي أن يكون فيهم الصالح

والطالح. وفي المقابل فقد بشّره الله بغلام حليم كما في سورة الصافات [الآية: ١٠١].

وقد فاق حلمُه على أبيه كل حلم، حيث ظل يدعوه ويدعو له، ويستغفر الله من أجله، مع مداومة المحاولة لاستنقاذه من الكفر بشتى الوسائل والأساليب العقلية والعاطفية، ومع ذلك واجهه أبوه بالصّدّ والتجهم والتهجم، بل والتهديد، كما في قوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(مَرْيَم:٤٦)، ومع ذلك كان ردّه بلْسمًا: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مَرْيَم:٤٧).

وبالجملة فإن دين إبراهيم عليه السلام كله مجموعة من القيم التي ورثها محمد ﷺ عنه، كما قال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأَنْعَام:١٦١)، وزاد الله عليها ما يتناسب مع خلود الإسلام إلى قيام الساعة.

ومن يتمعن اليوم في الدعوات الإسلامية المتعددة، ومع أنها تنهل جميعها من ذات المنهل الإبراهيمي المحمدي وهو منهل الإسلام بأخلاقه الرفيعة، إلا أن أكثرها قربًا كما بدا لي هي دعوة الخدمة التي تقدم اليوم أفضل تجسيد لأخلاق وقيم الإسلام، مما مكّنها من الولوج إلى قلوب الملايين خلال فترة زمنية وجيزة.

فالأخلاق عمومًا عند فتح الله كولن "هي التي تُحوّل الصدئ.. إلى معدن ثمين ومفيد كالذهب"[٤٢].

وحول الأخلاق سطَّر أحرفًا من لؤلؤ وصاغ كلمات من ذهب، كما في

---

[٤٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١١٠؛ وعن حثّه على التحلي بالفضائل، انظر: ص:١١٢-١١٤.

خلق المسامحة والصفح والعفو،[٤٣] حيث يقول مثلاً: "وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه. فجبال الثلج التي لا تُذوَّب بالشفقة والرحمة لا يُذوِّبها شيء قطعًا"[٤٤]، وحتى لا تكون التعابير الجميلة مجرد إنشاء لا يستقيم عوده، ولا يصير له ظل من الحقيقة، فقد أوضح مقياس العفو والسماح وحدودهما عند المسلم.[٤٥]

وعند تفسيره للآية ٤٥ من سورة المائدة، جسَّد كولن منهجه التسامحي العظيم، الذي يجمع ولا يفرق، ويضمّ ولا يشتت، وبدا من كلامه أنه عمل جاهدًا كي يصوغ حركةً تُجسِّد قيم الحب للمؤمنين، والذل بين أيديهم، والسعي لخدمتهم، بحيث تكون ممن عنَتْهم، وبشرتْ بهم هذه الآية.[٤٦]

ولأنه مهموم بالمستقبل، فإنه يعرف أن عالم الضياء الذي ينشده لا يمكن أن ينشأ إلا في ظل التآلف والتسامح ولا يمكن أن يكون إلا ثمرة الحب، ولأن فاقد الشيء لا يعطيه، فإنه يعرف أن هذا العالم الوضيء لا يمكن أن يُنشئه إلا المحبّون، ولذلك وصف الساعين لبناء هذا العالم الجميل بـ"فدائيّي المحبة"[٤٧]. فالمحبّة تحتاج إلى تضحية وفداء.

ومما نقله عنه أبطال المحبة -أي تلاميذه- وسمعناه منهم قوله -وهو يربيهم ويعلمهم في بستان الحب-: "لِيَجِد الجميع كراسي لهم في قلوبكم كما هم"، "وجدنا أن الرحمة تذيب جليد الأحقاد"، "لا بد أن نتنَفَّسَ

---

[٤٣] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤-٢٦.

[٤٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٥٩.

[٤٥] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٣٨-٢٤٠.

[٤٦] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٤٥-١٥٠.

[٤٧] انظر مثلاً: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٧.

محبةً"، "ينبغي أن تخصّصوا مقعدًا في صدوركم لكلّ أحد. هذا هو الإكسير الذي يمكن أن يطفئ نار جهنم"!.

هذا بالنسبة للعطاء العاطفي والروحي، أما بالنسبة للعطاء المادي، فإنه سبب رئيسي في النجاح المادي لهذه الدعوة ومراكمتها لتلك الإنجازات الضخمة في مجال التعليم والتطبيب والإعلام والاقتصاد والعمل الخيري والإغاثي، مما يحتاج لميزانية تفوق ميزانية بعض الدول الفقيرة.

إنه منذ البداية يربيهم على العطاء ويقتل فيهم الشُّحَّ والزهد الأخرق، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾(المؤمنون:٤)، فإنهم ينقلون عنه تفسيرًا أبلغ من التفسير المعروف الذي يعني أنهم يؤدون الزكاة، فهو يرى أن أهل المحبة والدعوة يعملون بجد لتحصيل الأموال التي تؤهلهم لإخراج الزكاة، بمعنى أنهم زاهدون في ذواتهم، ويكفيهم القليل وهو دون النصاب المطلوب لإخراج الزكاة، لكن حرصهم على إخراج الزكاة هو الذي يجعلهم يَجِدُّون ويجتهدون ويطرقون أسباب الرزق الحلال، داخلين عليه من كل باب.

وفي جلسات جلسناها مع بعض كبار التجّار الذين تربّوا على يديه، وأصبحوا من "المتولّين" لمشروعات الخدمة أو ما يسمونهم بـ"الآبِهَات" أدركنا أنهم تحلَّوا بأخلاق المتّقين، الذين وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذّاريَات:١٩)، فهو حق مطلق وليس معلومًا كالزكاة، فقد أقنعهم بأن الزكاة التي تساوي ٢,٥٪ هي عطاء البخلاء، أما الكرماء الأسخياء فإنهم كالصحابة الكرام، فيهم من ينفق ماله كله أو ثلثَيه أو نصفه أو ثلثه أو ربعه أو نحو ذلك.

وقد علَّل كولن ذلك بأنهم يعيشون الفترة المكِّية، ومن ثم لا بد لهم

أن يشدُّوا الهمم ويطبّقوا أحكام الإحسان، وهو الذروة العالية من الإيمان، ولهذا يُسمُّون فترات جمع الأموال والتبرعات بـ"مواسم الهمَّة"، والمجلس الذي يُجمع فيه المال للدعوة يسمى "مجلس هِمَّة"، والتسابق بين التجار غالبًا ما يكون على إعطاء المنح الدراسية وبناء المساكن الطلابية. وفي تنافس كبار التجار الذي يتكرر مرات في العام الواحد، لا يقل نصيب الواحد من هؤلاء عن تسع وتسعين منحة، تبركًا بأسماء الله الحسنى.

وبجانب ذلك سمعنا قصصًا عجيبة عن الإنفاق من إملاق، وعن ترقي المنفقين في دنيا المال حتى صاروا من كبار التجّار ورجال الأعمال على مستوى إسطنبول وتركيا، وعلى أثرها ذهب بعض العرب إلى أنها تُذكِّرهم بقصص الصحابة.

والسر في ذلك أن كُولَن لا يكتفي بالحثّ والحضّ، ولا يتوقف عند البكاء ومخاطبة شغاف القلوب مع أهمّية ذلك، بل يدرّبهم تدريبًا على العطاء حتى يتذوّقوا طعم الإنفاق اللذيذ. وفي هذا السياق ذكر أحد التجار في لقائنا معه ذات مرة أنه أخرج في أول الأمر بضعة آلاف من الدولارات مكرهًا، نتيجة حيائه من الحضور، وشعر حينها كأن قطعةً قد نُزعت من جسمه، لكنه بعد التدرب والترقّي في هذا الطريق صار يتلذذ بالإنفاق، وذكر أنه وأمثاله لو دعاهم كُولَن لإنفاق أموالهم كلها لما ترددوا!

تقول حقائق الواقع إن الأسخياء سادة الدنيا حتى لو لم يكونوا مؤمنين، فكيف بمن مزجوا ذلك بمحاسن الأخلاق، وأوْغلوا في التبسط والنزول إلى المجتمع وخدمته، والتذلل بين يديه، والتنفس محبة في وجهه، أفلا يوفر ذلك كله جوازات مرور لهم إلى قلوب الناس؟!

سادسًا: التغرُّب والرحلة لخدمة الخلق

من المعلوم أن خليل الله إبراهيم عليه السلام عندما عجز عن تعبيد الناس للحق وخدمة الخلق في بلاد الرافدين، أطلق صيحته المدوية، كما سجّلها القرآن الكريم بأحرف من نور: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الصافات:٩٩)، هذا الذهاب هو الهجرة في سبيل الله إلى بلاد الشام وجزيرة العرب، وهو ما عبَّرت عنه الآية القرآنية التي تقول: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(العنكبوت:٢٦).

وعند هجرة رسول الله إبراهيم عليه السلام من بلاد الرافدين لا شك أنه شعر بعلقم الفراق وقساوة الحرمان، وفي الشام بدأ دعوته من جديد دون أن يكون له أي نصير، ولذلك وصفه الله بأنه أمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(النحل:١٢٠).

إن فتح الله كُولَن صاحب فكر عالمي ينافس العولمة الغربية التي تقوم على الأثرة والجباية والاستغلال، وعلى الإكراه والقسْر والإلحاق، تحت شعارات برّاقة مخاتلة.

وبسبب هذا الفكر الثاقب الذي أحسن قراءة الإسلام وأجاد تمثله، ولمعرفته بتشابك العالم، وحاجة الناس إلى كثير من الكنوز التي يمتلكها الإسلام في عصر الجدب القيمي والإدقاع الروحي، فإن كُولَن شديد الحرص على إيجاد ما يسمّيه بالتوازن العالمي، حتى وهو يقرأ قصة الملك الصالح -ذي القرنين- في سورة الكهف.[٤٨]

وبسبب ما يعانيه البشر من ويلات وخاصة المسلمين، فقد استشعر

---

[٤٨] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٣٣-٢٣٥.

كولن المسؤولية، وأعد تلاميذه الإبراهيميّين للمساهمة في بلْسَمة الجروح، ورَتْق الفتوق، وجَبْر الكسور، وتربية العقول، وإصلاح مناهج التفكير، وإصلاح ذات البين، وإغاثة الملهوفين، ومساعدة المحتاجين، وإيواء المشردين، ومداواة المكلومين.

لهذا كله هاجرت كتائب الخدمة من تركيا إلى أكثر أصقاع العالم، يحدوها الأمل في أن تساهم في الإجابة عن أسئلة الحيارى، وفي البحث عن مخارج للمآزق الاجتماعية المختلفة، وفي تبديد الظلمات الحالكات بمصابيح الهدى وقناديل الإيمان.

ورغم تغرب أبناء الخدمة عن بلدهم الجميل في مجاهل آسيا وأدغال إفريقيا، وفي صقائع أوربا ومفاتن أمريكا، إلا أنهم لا يشعرون بالغربة. فقد علَّمهم أستاذهم أن الغريب ليس الذي ابتعد عن وطنه وبيته وأصدقائه وأحبّائه، بل هو الذي لا يفهم الناسُ مَبادءَه العالية وتضحياته الغالية، والذي يقع كثيرًا في تناقض مع قوانين مجتمعه؛ بسبب همّته العالية، فيتعرض للأذى واللوم والاستنكار.[٤٩]

وقد قرر كُولَن بهذا الصدد أن "من كانت هِمَّتُه أُمَّتَه فهو لوحده أُمّة". ولذلك لم يجد عشرات الآلاف من ورود تركيا غضاضةً في الانتقال إلى بلدان مليئة بلأعاصير وبالأشواك من مختلف الأصناف، وأقل هذه الأشواك مكابدة الأشواق.

الجدير بالذكر أن تيّار الخدمة يعمل في الولايات المتحدة في إطار أنشطة مدنية عديدة لخدمة الأتراك خصوصًا والمسلمين عمومًا، وبعضها

---

[٤٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٤.

لخدمة الأمريكان أنفسهم. ومنها قنوات فضائية ومدارس ومراكز بحث وجمعيات إغاثة ومؤسسات حوار، وتكفي الإشارة إلى وجود أكثر من ثلاثين مدرسة في ولاية تكساس وحدها، كما ذكرت د. باكينام الشرقاوي في محاضرة لها في إحدى الورش الفكرية عن فتح الله كولن في مدينة إسطنبول (في شعبان ١٤٣٢هـ).

وتمثل هذه الخدمة انعكاسًا أمينًا لفكر كولن الإسلامي الأصيل، فهو ينظر إلى الغرب كشريك لا كنقيض، ويرى أنه دار خدمة وليس دار حرب أو كفر، مؤكدًا أن رؤيته هذه مأخوذة من صميم الإسلام الذي وصفه أنه مفتوح ومناهض للانغلاق.

ولكن ما هي أهم الخدمات التي يقدمها مهاجرو الخدمة إلى الناس في أصقاع العالم التي هاجروا إليها؟

هي خدمات كثيرة ومتنوعة، يمكن اختصار أهمها على النحو الآتي:

١- الخدمات التعليمية

سبقت الإشارة إلى التعليم، وكيف أن مدارس الخدمة وجدت محاضن دافئة لها في مائة وستّين دولة في العالم، حيث وصلت في عام ٢٠١١م إلى حوالي ألفي مدرسة، وخاصة في وسط آسيا ومنطقة البلقان ثم أوربا عمومًا.

وبدأ الأمر ينتقل إلى الجامعات التي بدأت بالظهور في بعض البلدان، كألبانيا وأسيا الوسطى، فضلاً عن تقديم جامعات الخدمة في تركيا لمئات المنح سنويًّا لطلاّب من شتّى بلدان العالم.

وبفضل النماذج الراقية التي قدّمتها مدارس الخدمة، وبفضل الروائح

الزكية والسمعة الطيبة التي حققتها في تلك البلدان، فقد ظهر منافسون جدد في تركيا على هذا المشروع، حيث أصبح افتتاح المدارس التركية خارج تركيا مشروعًا وطنيًّا يتسابق عليه كبار رجال الأعمال وشركات مشهورة، من كافة الاتجاهات.

ووصل الحماس بمموّلي مشاريع الخدمة إلى الهجرة لبلدان بعيدة؛ لمباشرة مشاريعهم بأنفسهم ومتابعتها عن كثب، كما فعل أحدُهم عندما سافر إلى جنوب إفريقيا بهذا الشأن، بعد أن قدّم خدمات جليلة للتعليم في تركيا، وافتتح هذه الخدمات بواحدة من أروع مدارس الخدمة في إسطنبول وتقع في تلة "تشاملجا" المطلّة على ضفاف البسفور الساحر.

٢- الخدمات الإعلامية

بجانب إعلام الخدمة المنغرس في تركيا، والذي استطاع بعضه أن يعبر القارات، كالقنوات الفضائيّة والمواقع الإلكترونية، وصحيفة "زمان"، هناك وسائل إعلام ظهرت في تلك البلدان، كقنوات "أَبْرُو" في الولايات المتحدة الأمريكية، وقناة "دُنْيا" باللغة الكردية، وقناة أخرى في شرق إفريقيا وبالتحديد في كينيا، بجانب قنوات أخرى يتم الإعداد لها بلغات عدّة ومنها اللغة العربية.

وهناك صحف ومجلات تصدر بعدد من اللغات في بلدان المهجر أو تصدر في تركيا بغير اللغة التركية وتوزع في بلدانها، كمجلة "حراء" الصادرة باللغة العربية في إسطنبول، وهي المجلة التي انتصبت جسرًا معلّقًا بين تركيا والوطن العربي.

وتوجد مجلاّت بعدد من اللغات الأخرى، أهمّها الإنجليزية والروسية والألمانية والفرنسية وغيرها.

٣- الخدمات الثقافية

يمتلك أبناء الخدمة مؤسّسات وأقسامًا للترجمة والتأليف والنشر والتوزيع للكتب باثنتين وأربعين لغة حيّة، ومازال يحثّهم كُولَن على المزيد، حيث قال لهم: "لا تكبحوا على الفرامل، فهناك لغات عالمية كثيرة بحاجة إليكم"؛ ولهذا فإنهم يطمحون بالوصول إلى مائة لغة.

وقد ترجمت وصدرت بالفعل مئات الكتب بعشرات اللغات الحية، ومنها أكثر من خمسين كتابًا بالإسبانية. أما كتب "فتح الله كولن" و"بديع الزمان النورسي" وبعض الكتب التراثية فقد تُرجمت إلى عشرات اللغات.

وقد حرص أبناء الخدمة على توسيع مساحات الوعي في أوساط المسلمين في الغرب، وعلى سبيل المثال عندما جاؤوا إلى بريطانيا وجدوا الجاليات المسلمة تتسابق فقط على بناء المساجد حتى زاد عددها عن ألف وخمسمائة مسجد، مما يعني أنه صار لكل ألف وخمسمائة مسلم مسجد، غير أن أبناء الخدمة لفتوا أنظار المسلمين إلى أهمّية المدارس، وبدؤوا ببنائها وتشغيلها، وأسهموا بفاعلية في توفير المفاهيم الإسلامية الصحيحة التي تخلّصهم من الغثائية، وتجعلهم فاعلين كما أراد لهم الإسلام، لا التقاليد المغلوطة والتدين المغشوش.

٤- الخدمات الاقتصادية

مثَّلت المدارس بداية عالمية الخدمة، وقد أطلق عليها كُولَن "جُزُر السلام"، وأطلق عليها تلاميذه النوابغ: "جسور التّجارة"؛ لأنها ساهمت بقوة في الترويج للتجارة بين تركيا والبلدان التي وُجدت فيها هذه المدارس.

وبعد سنوات من هذه الخدمات والأنشطة التجارية المصاحبة لها أو المتسببة بها، ظهر رجال أعمال كثيرون ينتمون إلى الخدمة أو يحبّونها، وقد اجتمع هؤلاء وكوّنوا أكبر جمعية رجال أعمال في تركيا وتضم حوالي خمسين ألفًا من رجال الأعمال، وتسمى بالتركية "تُوسْكُون"، وهي تقدّم خدمات اقتصادية جليلة لتركيا وشركائها، بجانب اشتراكها في أنشطة الخدمة التعليمية والخدمية الأخرى.

٥- الخدمات الإغاثية

تتبع تيار الخدمة إحدى أكبر المؤسسات الإغاثية في تركيا، وهي مؤسسة "هل مِن مُغيث؟"، وقد خرجت من إطار المحلّية إلى العالمية قبل سنوات، وصارت بصماتها الإيجابية واضحة في كثير من الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية.

وبدأت الخدمة العابرة للحدود والقارات بعد سقوط الاتّحاد السوفييتي عام ١٩٩٠م، حيث بدأت الجمهوريات الإسلامية بالتحرر من القبضة الحديدية للشيوعيين، واتضح أن أبناءها يعانون من مشاكل جمة، مما دفع بـ"كُولَن" إلى إصدار صرخة وقيادة حملة لإغاثة "أخوّة الدم والدين"، وأفتى المَيْسُورين بأن إنفاق المال لإغاثة المحتاجين هناك أولى من تكرار الحج والعمرة؛ فاتجهت قوافل من الحجاج والمعتمرين إلى هناك لإغاثة الملهوفين ومساعدة المحتاجين.

وحضرت هذه الجمعية العالمية في إغاثة المسلمين في بلدان كثيرة، كالسودان، وإندونيسيا، وأفغانستان، وقرغيزستان، وأوزبكستان، وغيرها، إضافة إلى إغاثتها لغير المسلمين، كما في زلزال اليابان وعواصف الفيليبين.

وهكذا، فإن أبناء الخدمة مقابل تضحياتهم واغترابهم عن بلدانهم، استفادوا من خبرات ومعارف كثيرة، واستفادوا من إيجابيات الآخرين دامجين إيّاها في مشروعهم الحضاري، كما فعلوا مع الغرب، حيث استفادوا منه الكثير، ومما يبدو لي أنهم استفادوه من الأمريكيين فكرة صغيرة، لكن آثارها على المدى البعيد ستصبح كبيرة، وهي فكرة "الزائر الدولي" التي تتولى الولايات المتحدة الأمريكية تنظيمها سنويًّا للآلاف حول العالم إلى أمريكا على حسابها الخاص، من أجل التعريف بثقافتها ومنجزاتها، وهذا ما أصبحت تفعله كثير من مؤسسات الخدمة التي تستضيف سنويًّا الآلاف من شتّى بقاع العالم، حيث تقوم بتعريفهم بمنجزات الخدمة ومؤسساتها، فيعودون منبهرين، ويعود بعضهم متعاطفين مع المشروع.

سابعًا: الترقي في معارج الأُسْوة الحسنة

مازال الخليل إبراهيم عليه السلام يرتقي سُلَّم المثابرة حتى وصل إلى ذروة الفاعلية، ومازال يترقى في معراج الصلاح حتى وصل إلى قمة الأسوة الحسنة، ولذلك صار أسوة حسنة للمسلمين أجمعين حتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾(الْمُمْتَحَنَة:٤).

وقد عاب الله حدوث انفصام بين الأقوال والأفعال، بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البَقَرَة:٤٤)، وعلَّق كولن على هذه الآية، فقال: ".. الحال والقال أو القول والفعل لغة بجبهتين لنصرة الحق وتمثيله. فإن تكلّمت هذه اللغة ذات الصورتين والمظهرين باسم الحق وصرخت به كان تأثيرها عظيمًا؛ لأنه يجب على الإنسان أن يطبق على نفسه أولاً ما يدعو الآخرين إليه،

وألا يكون هناك تناقض بين أقواله وأفعاله، وبين مظهره ومخبره"[٥٠].

وعلَّل السر في فاعلية أقوال من يُطبق ما يقول، فقال: "لأن الله تعالى ربط -لحكمةٍ ما- قوة تأثير ما يقال بطراز تصرّف القائل (...)، لذا كان على الواعظ وعلى الناصح والمرشد والمبلِّغ والكاتب والمبرمج أن يكون جادًّا في الأعمال التي يقوم بها لكي يؤخذ مأخذ الجد ولكي لا يلقي أي ظل من الشك على المواضيع التي يتناولها ويقدمها، وألا يبقى -بتصرفاته العوجاء في مجال الإرشاد- مغلوبًا على أمره أمام الكلمات المنمَّقة للداعين إلى طريق الضلالة"[٥١].

ويؤكد هذا الأمر قائلاً: "إن الأفكار التي لا تجد مجالاً لتطبيقها على صاحبها، لا تجد القبول المطلوب لدى الناس مهما كانت جاذبة وضرورية للحياة؛ إذ الكلمات لم تنطلق من وجدان القائل، ومن المحال طلب استقرار فكر لم يستقر بعدُ في وجدان صاحبه"[٥٢].

ويعيد عدم تأثير النصائح في هذا العصر على الناس كما كانت تفعل في الماضي إلى عدم تطبيقها وتمثلها والعيش بها في هذا الزمن.[٥٣]

وقد نقل عنه تلاميذه الكثير من الدرر والجواهر في هذا السياق، ومن ذلك قوله: "الآذان شبعت والعيون جَوْعَى"، أي أن الناس بحاجة إلى رؤيةِ سلوكياتٍ تتجسّد في الواقع، وليسوا بحاجة إلى مزيد من الأقوال والتنظيرات والنصائح.

وقال: "الجوعة الشديدة عند الآخر ينبغي أن تلتقي مع التمثيل الراقي

---

[٥٠] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٦١.

[٥١] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، نفسه: ص:٦٢، ٦٣.

[٥٢] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٢٣.

[٥٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤٩.

للإسلام، وهذا لم يحدث بعد"، وقال أيضًا: "أَرُوني شخصًا أَسْلَمَ عشرةٌ بسبب سلوكه، وسأُقَبِّلُ قدميه".

ولهذا ظل يدعو بحرقة إلى تجسير المسافة بين الأقوال والأفعال في كل شيء، فالدولة -مثلاً- لا يمكن أن تكتسب التوقير والاحترام والمهابة إلا إذا كان موظّفوها قدوة حسنة.[٥٤] والمصلحون الذين يحاولون إصلاح العالم لا يمكن أن يجدوا آذانًا صاغية ما لم يُصلحوا أنفسهم أولاً.[٥٥]

واجتهد في تأصيل هذه القضية وربطها بقضية العبودية لله، فقد رأى أن القرآن رسم صورة مثالية للمؤمن بحيث "أن الإيمان وحدةُ القول والعمل وتكاملهما. والمحافظة على هذا التوازن سبب مهم للتأثير"[٥٦].

وفي تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(فصلت:٣٠)، اختزل الاستقامة في تطبيق الأوامر واجتناب النواهي،[٥٧] وهذا التطبيق هو الجسر الذي يردم الهُوَّة بين الأقوال والأفعال، ومن ثم ينقل الإيمان من قمقم المبنى إلى فضاء المعنى.

وللأهمية البالغة لتطبيق الأقوال وتجسيد الشعارات، ودور ذلك في صناعة الأسوة الحسنة، فقد شن الغارة على من لم يقم بذلك من الدعاة وخاصة العلماء، ولهذا أطلق على العلماء الذين لا يتمثلون ما يقولون مصطلح: "الثقوب السوداء"، وهو مصطلح علمي مستعار من علم الفلك،

---

[٥٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٦٦.

[٥٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٨.

[٥٦] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٠.

[٥٧] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٢٩-٣٣٣.

حيث توجد ثقوب سوداء في الفضاء تبتلع الضوء؛ وعلَّل تسميته لهؤلاء العلماء بـ"الثقوب السوداء" بأنهم لا يعكسون نورًا إلى شيء "فلا يُستفاد من طاقاتهم الضوئية"[٥٨].

وبفضل هذا التركيز الشديد على المزاوجة بين الأقوال والأفعال نجح كُولَن في إيجاد مشاريع عظيمة لتيّار الخدمة، أهمّها المشروع التربوي لإيجاد الإنسان الجديد الذي بفضله سيتكوّن "الجيل الذهبي" وهو جيل التمكين الحضاري المرتقب، وبهذا نجح في تجسير المسافة بين الأقوال والأفعال، بين الشعارات والسلوكيات، بين العناوين والمضامين، مما أكسب حركته قدرًا كبيرًا من الفاعلية رغم عملها الإصلاحي الهادئ المتدرج.

ولنجاحه في تحويل المعرفة إلى سلوك بشكل ملفت للنظر، فقد اهتم المفكر الجزائري د. محمد باباعمي بدراسة الطرائق المحققة لذلك في فصل كامل تحت عنوان: "المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك في البراديم كولن" في كتاب له عن كُولَن، والمراحل هي: معرفة الحق سبحانه حق المعرفة، انتقال المعرفة من المداخل إلى المخارج عبر العقل، حركية من اللسان مباشرة إلى الجنان والقلب، تحرُّك آلة السلوك والجوارح، تحوُّل السلوك والأحوال إلى لسان ناطق بتصديق الحق، بُدُوُّ ذلك في الأسلوب الإيماني الإيجابي للفرد والمجتمع، ميلاد حضارة إسلامية هي حضارتنا الذاتية.[٥٩]

ومن عجائب هذا العصر أن المجتمع الأكثر علمانية في العالم

---

[٥٨] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٢.

[٥٩] راجع تفاصيل هذه المراحل في: فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد، د. محمد بابا عمي، ص:٨٩-١٠٥.

الإسلامي هو الذي صار يُعلِّم العرب اليوم كيفية تجسير الهُوَّة بين الإيمان وعمل الصالحات، رغم أنهم الحاملون الأصليّون لهذا الدين، وهم أكثر الأمم الإسلامية رفعًا لشعارات الإسلام والدعوة إليه، لكن هذا الخلل جعل تديُّن كثيرين منهم يبدو كأنه تديُّن "لاهوتي" يتمحور حول حقوق الله وبعض الواجبات الفردية المتعدية، بينما اهتم الأتراك بالتدين "الناسوتي" الذي يقيم حقوق الإنسان في شتّى ميادين الحياة.

لقد أثبت هذا العصر أن العرب يتحدثون عن الإسلام، بينما يتمثله الأتراك بصمت وبدون شعارات، ومن الطرائف التي تُجسد هذه المفارقة أننا كنا في ورشة فكرية في إسطنبول لدراسة فكر فتح الله كولن، فأصرَّت د. باكينام الشرقاوي -الأستاذة في جامعة القاهرة- على ضرورة اختيار اسم واحد يعبر عن كل مناشط تيار الخدمة في الولايات المتحدة وأوربا، فَرَدَّ أحد أبناء الخدمة بالقول: "نحن سنعمل وأنتم تُسَمُّون"، ويقصد هنا بالطبع العرب.

ولا شك أن تيار الخدمة بهذا الصنيع قد ارتقى مرتقىً صعبًا يدل على نضجه ورشد أبنائه، وهذا ينقلنا إلى الفقرة الآتية.

ثامنًا: النضج الفكري والتأهُّل لعَطِيَّة الرشد

هذه هي النقطة الثامنة من نقاط التشابه بين الخليل إبراهيم عليه السلام وتيار الخدمة بفكره الثاقب وآرائه السديدة وأفعاله الرشيدة.

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٥١)، والرشد هو عكس الغيّ كما قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦)، وقد فسَّر القدامى الرشد بأنه:

"إصابة الخير"، و"الدليل على الهدى"، وأنه "الإيمان المخالف للغيّ".[٦٠]

والذكْر من أهم المداخل إلى الرشد، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾(الكهف:٢٤). ولما كان كُولَن قد تربّى في أحضان الصوفية المستنيرة، فقد ظل دائم الذكر لله تعالى مما ورَّثه هذا الرشد، ومما قاله في تفسير هذه الآية: "وهكذا وبمثل هذا الذكر لله والوصول إلى المستوى الرفيع لأصحاب الكهف المشحونين بذكر الله يظهر -بلطف من الله تعالى- أقصر طريق للوصول إلى وجدان المجتمع، ويدخل النجاح ضمن دائرة الصلاح وهذا ما تشير إليه خاتمة هذه الآية"[٦١].

ومن الرشد رعاية الأسباب دون الركون إليها، وهذا ما اتسم به الخليل إبراهيم عليه السلام، فقد كان يعبد الله من خلال رعايته لهذه الأسباب، ولذلك عندما بشره الله بالغلام وكان قد بلغ من العمر عتيًّا وكانت زوجته عقيمًا؛ استغرب هذا الأمر، كما في القرآن الكريم.[٦٢]

وهذا هو ديدن كُولَن وتلاميذه، فإن ارتباطهم الوثيق بالصوفية، وروحانيتهم العالية جدًّا لم يؤثرا بتاتًا على معانقة الأسباب، مما أبرز الوجه الراشد لهذا التيار وأبناء الخدمة.

ولاهتمام تلاميذ كُولَن بالأسباب مع مداومة التوكل على الله، فإن مفكرًا من الخدمة يؤكّد باختصار أن العمل التربوي للخدمة "لا توجد فيه أسرار بل أسباب للنجاح".

ويؤكد المفكر في هذا التيار أ. مصطفى أُوزْجان نفس الرؤية، فقد

---

[٦٠] فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد، د. محمد بابا عمي، ص:٩٢.

[٦١] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٢٨.

[٦٢] سورة الحجر، ٥٣-٥٦.

تحدث في إحدى المحاضرات بأن الشعارات لا تُغْني شيئًا بدون الاجتهاد في عالم الأسباب، وضرب المثل برجل فتح محلاً سمّاه "الإخلاص"، فإن هذا الاسم لا يمكن أن يأتي بالإخلاص في الواقع، ما لم يجتهد صاحبه في تحري الإخلاص، ومثْلُ هذا العنوان "الإحسان" وسائر العناوين والمفاهيم والقيم.

وكان الإكسير الذي نجح كُولَن بواسطته في إحياء تيار ضخم في واقع شتوي قارس، هو نقله لتلاميذه من الإيمان الغيبي العاطفي إلى الإيمان الواقعي العملي، عبر ترجمة هذا الإيمان إلى أعمال صالحة تُحيي الإنسان وتعمر الأرض، من خلال مؤسسات كثيرة شملت سائر مجالات الحياة، عبر عملية عريضة يمكن عَنْوَنتُها بـ"مأْسَسَةُ الإيمان".

وأوْلى كولن في هذا الصدد اهتمامًا خاصًا بالقوانين الاجتماعية: "المسألة الأساسية هي إنشاء التجديد على أساس من المبادئ السليمة والقوية التي لا تشيخ ولا تهتزّ. لأنه إن لم تُعرف القوانين الاجتماعية حق المعرفة، وإن لم يتم العلاج بشكل علمي، فإن كل شيء سينقلب رأسًا على عقب"[٦٣].

ويمكن ملاحظة امتلاك كولن للرؤية الراشدة من اهتمامه بالتدقيق والتخطيط، وبالعلوم والتكنولوجيا، وسائر القيم الضرورية لإقامة نهضة شاملة، كما في قوله على سبيل المثال: "إن قضيتنا وغايتنا في الصيرورة والتواجد لا تماس لها ولا تلامس مع القوة العمياء مطلقًا. فنحن بملاحظتنا لحكمة وجود القوة المستسلمة للحق، لنا مفهوم لإحقاق الحق يتفق مع فكرنا الذاتي الرحب، ومتلقياتنا الفنية الأنْفَس من النفيس، وتدقيقنا

[٦٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٧٩.

الأدق الذي يشطر الشعرة أربعين شطرًا. هذا إلى جانب احترامنا لضرورة التكنيك والتكنولوجيا، وألْزَمية الصناعة وعاجليتها، وعلو قيمة العلم فوق القيم، وإيماننا بالأهمية المطلقة لتغذية وطننا بكل ذلك، وبضرورة تحفيزه وإعانته في هذه المهمة الصعبة. ولذلك نحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى مرشدين ذوي أدمغة متأهلة وأفكار رحيبة وآفاق واسعة، يقيمون هذه الموازنات لإنساننا، ويرتقون بشعبنا إلى ذرى الفكر، ويقودوننا إلى جذور معنوياتنا الذاتية، ويطلقون أرواحنا المشتاقة إلى المعالي نحو اللاّنهاية"[٦٤].

ويمكن القول إن الرشد هنا يرادف معنى الحكمة، فقد اتصف هذا الرجل بالحكمة وتحلّت حركته بالرشد، مما دفع بالدكتور محمد بابا عمي إلى تأليف أحد كتبه تحت عنوان: "البراديم كولن: فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد"، حيث أصَّل لنموذج الرشد والمنظومة المعرفية الرشيدة، ثم درس فكر الخدمة وسلوكياتها في ضوء نموذج الرشد، مبرزًا الوجه الراشد لتيار الخدمة في دائرتي الفكر والفعل، لتظهر دعوة كولن وتيار الخدمة في أبهى صورة وأجمل حُلَّة.

ومن رشد تيار الخدمة حبه لوطنه وأهله والناس بدون تعصب، كما هو مضمون الفقرة الآتية.

تاسعًا: عشق الوطن وحب الناس

هذه هي النقطة قبل الأخيرة من نقاط التشابه بين الخليل إبراهيم عليه السلام وبين أتباعه من أبناء الخدمة الذين انحدروا في هذا الزمن من ذات الوطن الذي انحدر منه الخليل إبراهيم عليه السلام، وتأسّوا به في حب الوطن والناس.

---

[٦٤] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٤، ١٢٥.

والوطن هو الناس بالدرجة الأولى، مع ترتيب الناس حسب الأولوية، فالأقربون أولى بالحب، ولهذا سجلت آيات عديدة من السورة القرآنية التي سميت باسم "إبراهيم" مشاهد من حبه للناس وعشقه للوطن.

لقد دعا خليلُ الله إبراهيمُ ربَّه بأن يجعل وطنه -البلد الأمين مكة المكرمة- بلدًا آمنًا وأن يجنّبه وأبناءه عبادة الأصنام [الآية: ٣٥]، وبيَّن أن هذه الأصنام أضلّت كثيرًا من الناس، وبقدر ما دعا لأبنائه وأحفاده بأن يُجَنّبهم عبادة الأصنام فإنه يدعو الله -بطريقة غير مباشرة احترامًا لوحدانيته- بأن يغفر لهؤلاء ويرحمهم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(إبراهيم:٣٦).

ويدعو بعد ذلك لذرّيته جيلاً بعد جيل بصلاح الدين عبر إقامة عموده وهو الصلاة، وصلاح الدنيا عبر إيجاد التجمع الذي هو مظنة الأمن ثم سَوْق الثمرات الذي هو مظنة الشبع ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم:٣٧).

ولشعوره بنعمة الولد ودور هذه النعمة في إشباع شهوة الأبناء وتحقيق الاستقرار العاطفي، فقد شكر الله على هذه النعمة: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(إبراهيم:٣٩). وعاد للإلحاح على ربه بأن يوفّقه هو وذريته لإقامة الصلاة ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾(إبراهيم:٤٠). ثم ختم بدعوته تعالى بأن يغفر له ولوالديه بل ولعموم المؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(إبراهيم:٤١).

وتكررت مشاهد في سور عدة تشي بمدى حب إبراهيم عليه السلام لوطنه

وأهله، حيث دعا لهم بصلاح الدين والدنيا، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البَقَرَة:١٢٦).

أما عن وطنية فتح الله كولن قولاً وفعلاً فإنها ستتضح في ثنايا هذا الكتاب، وهي تتجسد في مؤسسات عملاقة قدمت خدمات جليلة لتركيا إنسانًا وأرضًا، اجتماعًا واقتصادًا، ثقافة وفكرًا إعلامًا وأدبًا.

وما فتئ يُذكِّر بأمجاد الوطن التركي أيام السلطنة العثمانية التي اعتزت بالإسلام وأعزت الأتراك، وما برح يُظهر حبه لسلاطين هذه الدولة وخاصة محمد الفاتح وعبد الحميد الثاني، ولمدن هذه الدولة ولاسيما العاصمة إسطنبول ذات الأربعة آلاف مسجد.[٦٥]

ولتأكيد حب كُولَن لوطنه وأهله وأمّته والإنسانية جمعاء سنكتفي بنقل هذه العبارات المغموسة بالحب والموشاة بالذهب: "إن رجل الفكر بطلٌ للحب قبل كل شيء. فهو يحب الله حبًّا كحبّ مجنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشائج وثيقة تربطه مع الكائنات. فيحضن بشفقة كل إنسان، وكل شيء.. ويضم إلى صدره إنسان الوطن بحب يبلغ حد العشق.. ويداعب ويشم الأطفال كبراعم للمستقبل.. وينفث في الشباب الاستحالة إلى إنسان مثالي، إذ يباريهم في بلوغ المقاصد السامية.. ويُشرِّف الشيب بأخلص التوقير والاحترام.. ويفتح سبيلاً للحوار مع الجميع.. ويقارب بين شرائح المجتمع المختلفة بمد جسور مبتكرة فوق المهاوي السحيقة الفاصلة بينها، ويضطرم حرًّا من أجل الملائمة التامة

---

[٦٥] عن حبه لإسطنبول، انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٩١؛ وعن دفاعه عن السلطان عبد الحميد وحبّه له، انظر: أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٩٤-١٩٩.

بين الشرائح المتوافقة نسبيًّا"[٦٦].

وقد تُرجم هذا الحب إلى تضحيات ضخمة انغرست في تربة الوطن والأمّة والإنسانية، فنمت أشجار باسقة ودوحات عظيمة، آتت أطايب الطعام وأينع الثمار، مما انتفعت به البلاد وتمتّع به العباد، ومما أسلفنا في ذكر بعضه في مقامات عدة.

عاشرًا: تحوُّل نار العلمانية إلى برد وسلام

اقتضت مشيئة الله أن لا يُضيع أجر مَن أحسن عملاً، وأن المقدمات الطيبة لا بد أن تثمر نتائج طيبة، وأن المدخلات الحسنة لا بد أن يكون حصادها حسنًا، حتى ولو تدخلت كفُّ القدر عندما تقْصُر الأسباب عن تحقيق النتائج المرجوة.

ونحن في مسك الختام لهذه المقارنة الطيبة بين سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام وواقع أبناء الخدمة في تركيا المعاصرة، فإن من المعلوم أن الأنبياء وهبوا طاقاتهم وأوقاتهم وأموالهم لطاعة الخالق في خدمة خلقه، وضحّوا في هذا الطريق بكل غال ونفيس، ومع ذلك وُجوه الرسل جميعُهم بالصدّ والكيد والختل والمحاربة، لكن عناية الله اكتنفت رسله دائمًا ووقفت بالمرصاد لأعدائهم.

وهذا ما حدث لخليل الله إبراهيم عليه السلام الذي واجه واحدًا من أشرّ وأشرس طغاة الأرض وأكثرهم تكبرًا وتجبرًا، وهو النمرود بن كنعان الذي أمر بجمع أكوام من الحطب وإضرام النيران فيها، ثم أمر بقذف إبراهيم فيها، لكن كفَّ اللطف الرباني تَدَخَّل عبر "كُنْ" الإلهية التي توقف

---

[٦٦] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٨، ١٢٩.

الأسباب وتُبطل خصائص الأشياء، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:٦٩-٧١).

وفي العصر الحديث لقي الدعاة والمربّون والمفكرون الكثير من صنوف العنت وصور الإيذاء، على أيدي أنظمة الجور وسلطات الطغيان، ولما كانت تركيا من أكثر الدول تطبيقًا للعلمانية المتطرفة، ومن أكثرها شراسةً في دفع قطار تركيا بعيدًا عن سِكَّة ماضيها المجيد، فقد سُلطت نيران الإيذاء على أبناء الخدمة وأستاذهم فتح الله، لكن رحمة الله وعنايته بهذا الدين جعلت من هذه النيران بردًا وسلامًا على تيار الخدمة، حيث ساهمت في إنضاجه وامتلاكه البوصلة الفكرية السليمة.

لقد تحولت نيران العلمانية إلى برد وسلام بفضل العناية الإلهية واللطف الرباني، حيث وضعت في لُبّ "المحن" عددًا من "المنح"، يمكن إجمالها أهمها في هذه النقاط:

١- التخلص من الشوائب، وتقارب الذَّرّات

من المعلوم أن البشر مخلوقون من الطين قبل أن ينفخ الرحمن فيهم من روحه، ولذا فإن تكوينهم المادي يشتمل على كل عناصر الأرض ومعادنها الرديئة والثمينة، ومن ثم فإن تسليط النيران على هذه الكتلة المتنوعة يذيب المعادن الرديئة ويكشف عن العناصر الأصلية ويهيل التراب عن معدن الإنسان النفيس.

وقد أدّت نار العلمانية المتطرفة إلى تطهير تيار الخدمة من الشوائب الطبيعية، ومكّنته من الوصول إلى الرؤية المستبصرة والمراجعات القوية.

وبجانب إحراق النيران للزوائد التي تمنع ائتلاف الصفوف، فإنها أذابت الفوارق غير الطبيعية، وأدى ذلك إلى تقارب أبناء الخدمة، وائتلافهم على الحب وحبهم للائتلاف.

وهذا وذاك ساهما بقوة في تحقيق النضج الفكري وتسهيل الترقي في عالم الفاعلية وصناعة الحياة.

٢- اكتشاف الذات وانتزاع المستقبل

إن كثرة المحن وقوة النقم عندما تنزلان على كيان ما، فإن ذلك يؤدي إلى استفزاز طاقاته الكامنة، واستثارة مشاعره العميقة واستخراج فاعلياته المخبوءة. ويرى علماء الحضارات أن التحدي المناسب أحد الشروط الرئيسة لحدوث أي نهضة. وهذا ما فعلته العلمانية بتيار الخدمة إلى حد كبير.

وسنترك كولن يشرح بنفسه دور "محن" العلمانية في استنزال هذه "المنحة"، حيث يقول: "والآن هناك الكثير من الضغوط وأنواع من الإكراه والظلم والتحكم والاستبداد، مما يسَّر لنا إمكانية اكتشاف ذاتنا. أجل!.. فكما يشعر من يحمل في كل عضو من أعضائه جرحًا أو ألمًا شعورًا قويًّا وحادًّا من الألم، أي يشعر بالألم في كيانه كله، كذلك حالنا نحن الذين نعيش منذ سنوات عهدًا من الظلم والتحكم والطغيان والغدر، فقد أدّى هذا إلى انتشار وعي صامت ولكنه عميق.. وعي تدريجي ولكنه مستمر وقوي ومتصف بالعزم بأن الحق لا يُهدى ولا يُتفضل به، ولا يُتصدق به من قبل أحدهم. لذا نمدّ إلى شهر رمضان أيدينا في جوّ من الإشراق الروحي لكي يفتح لنا بابًا نحو أيام جديدة مضيئة للمستقبل، ولكي نتوجه ونرجع إلى ذاتنا وهويتنا بشكل يشبع العين والقلب، وبصمت الأنهار

الجارية بهدوء وبمهابة، وبرقة النسائم المنعشة التي تهبّ بكل رفق"[٦٧].

٣- تقوية جهاز المناعة وتعظيم الفاعلية

من المعروف علميًّا أن المضادات الحيوية التي تصنعها شركات الأدوية لتقوية جهاز المناعة الطبيعي في جسم الإنسان ما هي إلا مجموعة من الجراثيم التي تُدخَل إلى جسم الإنسان بكميات مقدَّرة حتى تستفز الدفاعات الكامنة في جسم الإنسان، فتنهض من مكامنها لتدافع عن الجسم أمام غزو الأمراض.

ولأن الكائنات الإنسانية تُشْبه الكيانات الاجتماعية في أشياء كثيرة، فإن كثرة التحديات التي أطلقتها العلمانية ضد الخدمة في تركيا أدّت إلى انطلاق جهاز المناعة للعمل بأقصى إمكاناته، مما أبرز فاعلية كيان الخدمة، فقد مضت سنن الحياة -التي أوجدتها مشيئة الله- بأن لكل فعل ردّ فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه.

ومن هذا الباب فإن الشيطان في عداوته للإنسان يقوم بمثل هذا الدور، ويرى فتح الله كولن في هذا السياق أن الشيطان "لا يُنكَر أثره في توسيع الكثير من قابليات واستعدادات الإنسان وتطويرها، وفي تصفية المعادن الصلبة الموجودة في فطرة الإنسان وفي ظهورها، بل حتى في بقاء الروح والقلب على أهبة الحذر والاستعداد على الدوام"[٦٨].

ووضح أن الشيطان ينشر بذوره السامة في نفوس الناس، ويحاول جعلها مزرعة للآثام، وأمام هذه الجهود المبذولة "تستيقظ المشاعر المعنوية لدى الإنسان، وتصبح في حالة تأهب، تمامًا مثلما تتأهب وسائل

---

[٦٧] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٨٥.

[٦٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٥٢.

الدفاع في الجسم ضد الجراثيم (...)، وكم أدى هذا إلى تصفية معادن ثمينة وظهور أولياء أبطال مجاهدين للنفس"[٦٩].

وهذا هو بالضبط ما فعلته العلمانية بكُولن وتلاميذه من تيار الخدمة، حيث خلقت فيهم روح التحدي، وأطلقت فاعلياتهم، وَهَدَتْهم إلى أقوم السبل وأرشد الأفكار، ودفعتهم إلى إيثار العمل الهادئ، والحذر من الوقوع أو الاصطدام أو الانحراف.

ولأن التحدي كان قويًّا فقد كانت الاستجابة قوية، فإن "المغارم" القوية تثمر "مغانم" قوية، وهذا ما أشار إليه كولن وأكّده بقوله: "لأننا في الوقت الذي نستطيع فيه تجاوز هذه المصاعب تكون مكاسبنا كبيرة بنفس النسبة"[٧٠].

٤- تمتين البناء

عندما يصبح أي مبنى عرضة للاعتداء من الخارج، فإن هذا لا شك يدفع أصحابه إلى تمتين البناء الداخلي، حتى يصمد أمام أعتى الرياح وأقسى الأعداء، وذلك بسد الثغرات، وغلق الفجوات، واستبعاد اللبنات الضعيفة أو تقويتها بالوسائل الممكنة.

وعندما أوجد كولن تيار الخدمة، كانت تتوزع جهودَه الكثيرُ من الجبهات والجهات التي تحتاج إلى عمل، وقد استغرقت المواعظ التي استهدف بها عامة الناس جزءًا كبيرًا من وقته وطاقته، ولا شكّ أن هذا سيكون له بعض التأثيرات غير المستحبة على تلاميذه الحقيقيين الذين سيُكوِّنون مدماك هذا التيار ويتحملون أعباءه الجسام، وقد لا يستطيع

---

[٦٩] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٥٢.

[٧٠] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٧٥.

بعضهم حمل المسؤولية بمنتهى الكفاءة، فيتعثر أو يسقط.

ولهذا "مَنَحَ" الله هذا التيار فرصة لتمتين البناء، وجاءت الفرصة على صورة "محنة"، عندما حدث الانقلاب العسكري سنة ١٩٨٠م تحت قيادة الجنرال كنعان إيفْرِين، فقد كان كولن أحد المطلوبين للقبض عليه، لكنه اختفى بين تلاميذه، فتفرَّغ لتنميتهم وتزكيتهم، والعروج بهم في سماوات الفاعلية، طيلة ست سنوات كاملة.

٥- تركيز الطاقات وتحديد الأولويات

لقد خلق الاستهداف العلماني الشامل عند أبناء الخدمة قدرًا كبيرًا من اليقظة والحذر والتَّوثُّب، وإلى هذا يشير كولن بقوله: "... نقوم نحن بإنشاء بناء لبنة لبنة وحجرًا حجرًا، كما نقوم بحراسة الجزء المشيد من البناية"[٧١]. قال هذا الكلام بعد شرحه لما يلقونه من صنوف الإيذاء والحرب التي تلاقيها دعوتهم من الأوضاع المنحرفة التي خلقتها العلمانية المتطرفة.

ورغم اقتران العلمانية عادة بالديمقراطية التي يتفق جوهرها مع إطلاق الحريات إلى أبعد مدى، إلا أن العلمانية التركية أوجدت قوانين جديدة وجائرة ضد الدين والمتدينين، هذه القوانين خفضت سقف الحركة المسموح لهم بالتحرك تحته، وربما شكَّل هذا الأمر دافعًا لأبناء الخدمة لتركيز طاقاتهم -التي كان يمكن أن يتوسعوا بها أفقيًّا- على تعميق حضورهم الرأسي، مما أدّى بهم إلى الانغراس في قلب العصر وفي عقول ووجدان الأتراك.

وتركزت هذه الطاقات مرة أخرى في ميادين المعاني أكثر من المباني،

---

[٧١] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٧١.

وفي الألباب أكثر من الأشكال، وفي المضامين أكثر من الأسماء، ولهذا لم يجدوا فراغًا للحديث عن الإسلام، إذ سخَّروا كل الطاقات المتوفرة من أجل العمل بالإسلام، والدعوة إليه بالسلوكيات المستقيمة وصناعة الأسوة الحسنة.

٦- تنزيل اللطف الإلهي

إن المحن تستجلب المنح، والنقم تستمْطر النعم، واشتداد البلاء يرفع الدرجات ويضاعف الأجور.

لقد تعرض المسلمون الأتراك لضغوطات تنوء عن حملها الجبال، فصبروا وفازوا، فإن الأجواء المملوءة بغيوم الابتلاءات وأعاصير المحن تستنزل أمطار اللطف الإلهي.

وهذا ما أكده تاريخ الخدمة في تركيا بلسان الحال، بل ما أكده كولن بلسان المقال: "لذا يتعرض الذين تعهدوا هذه الوظيفة الجسيمة -أي التبليغ- في يومنا هذا إلى مضايقات ومشقات أشد ممن تعرضوا لها في العصور السابقة. فهذه الظروف العسيرة جدًّا هي التي تؤهل مرشدي عصرنا ومبلِّغي الدعوة فيه أن يسبقوا الذين أتوا من قبلهم، ونأمل أن يتسنموا موضعًا خلف الصحابة الكرام مباشرة. فالنفس مهما كانت أدنى من الكل إلا أن الوظيفة أسمى من الكل. واللطف الإلهي سبحانه يَرِد بقدر حاجة الناس. وعندما تُقسم الرحمة الإلهية إلى الناس كافة توزع على الأغلب بنسبة متعاكسة مع اقتدار الشخص؛ فمن كان أعجز وأضعف فالله سبحانه أرحم به"[٧٢].

---

[٧٢] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٢٥.

وهكذا أحال الله تعالى بلطفه وكرمه "رزايا" العلمانية التركية إلى "مزايا" لتيار الخدمة، فكانت نيرانها بردًا وسلامًا على أبناء الخدمة، كما كانت نار النمرود بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام.

الفصل الخامس
كولن وصياغة فقه الائتلاف

- أولا: أسس فقه الائتلاف
  - ١- الإيمان الجامع بين العلم والإخلاص
  - ٢- الأخوة بدوائرها الأربع
  - ٣- الإيجابية الفاعلة
  - ٤- الاعتراف بحق الآخر في التميز والاختلاف
  - ٥- الدوران حول المقاصد وتجفيف منابع التفرق
- ثانيا: وسائل تجسيد فقه الائتلاف
  - ١- التحلي بآداب الحوار والخلاف
  - ٢- الامتناع عن ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة
  - ٣- التخطيط الكلّي والتدرج المرحلي
  - ٤- تركيز طاقة النقد على الذات وإعذار الآخرين
  - ٥- التلطف والرحمة والحب

من المعلوم أن إحدى المعضلات الرئيسة التي تعاني منها أمة المسلمين اليوم: الفرقة، وهي عند فتح الله كولن إحدى زوايا مثلث التخلف الحضاري الذي يضم أيضا "الجهل" و"الفقر".

ولأن تيار الخدمة قد نذر نفسه لمحاربة هذا الثالوث، فسنسلط الضوء في هذا الفصل على دور كولن في محاربة الفرقة بطريقة إيجابية من خلال إشاعة فقه الائتلاف.

وسنركز كتابتنا في هذا الفصل على عنوانين اثنين، هما: أسس فقه الائتلاف، ووسائل تجسيد فقه الائتلاف.

أولاً: أسس فقه الائتلاف

رغم أن كولن برز كواعظ وداعية ولاسيما في الشطر الأول من حياته، إلا أنه مفكر وحركي أيضًا، ولذا لم يكتف بإثارة العواطف ومداعبة الوجدان من أجل بيان أخطار الفُرقة بين مكونات المسلمين، وتوضيح أهمية الائتلاف، بل أقام هذا الائتلاف على عدد من الأسس التي تجمع بين الفكر والوجدان، بين العلم والعرفان، ويمكن تلخيص هذه الأسس في خمس نقاط:

١- الإيمان الجامع بين العلم والإخلاص

من المؤكد أن الإيمان هو خلاصة التفاعل الإيجابي بين العلم الدقيق والإخلاص الوثيق، لكن عهود التخلف والانحطاط التي مرّ بها المسلمون

شوّهت مفهوم الإيمان فجعلته أعورًا، حتى بدا كأنه إخلاص بلا علم، وتوكل بلا أسباب، بل بدا عند آخرين كأنه اسم بلا مسمى، وأماني بلا ظل من الحقيقة أو تأييد من الواقع. ولذلك اهتم كولن بإحياء مفهوم الإيمان بجناحي العلم والإخلاص، حيث دمج بتوازن دقيق بين العقل والروح، ولأن الله يوفق دعاته منذ الصغر، فقد نشأ كولن على هذا التوازن، حيث حرص منذ طفولته -كما عرفنا- على الموازنة في حضوره ومناشطه بين مجالس العلم (العقل) ومجالس الذكر (الروح)، رغم ما كان بينهما من عداوة تقليدية عند أصحاب التديُّن المنقوص.

ولأن القرآن هو المصدر الأول لهذا الدين، فإن معانقته وفق منهجه هو السبيل للحصول على العلم والإخلاص، عبر التدبر والخشوع، وهذا ما فعله كولن، حيث كان دائم المدارسة للقرآن، دائب التدبر لآياته، ولهذا نجح في تركيب المقادير الدقيقة من الأدوية النافعة لعلل هذا الزمان، وذلك من صيدلية تدبُّره للقرآن، وربما كان أساس هذا النجاح في الوصول إلى هذه المقادير أنه قرأ القرآن كأنه أُنزل عليه اليوم! وهذا ديدن المصلحين والمجددين، فكلهم تعملقوا بحسن تدبّرهم للقرآن.

ولهذا أوصى تلاميذه ومحبّيه بأن يقرؤوا القرآن بهذه الطريقة، حيث قال: "على الفرد أن يقول لنفسه: صحيح أنني لستُ بنبِيّ، ولكني أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف وكأنها قد نزلت عليَّ"[1].

ولأن العلم شطر الإيمان (بجانب الإخلاص)، وشطر عمارة الحياة (بجانب العمل)، فقد حث كولن أتباعه على طلب العلم، وذلك في كل

---

[1] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٢٢.

كتبه ومقالاته ودروسه ومواعظه ومناشطه المختلفة[٢] هذا العلم الذي يصنع القناديل لاكتشاف مجاهل النفس البشرية واكتشاف دروب الحياة، حتى لا يقع الإنسان في مهاوي النفس الأمَّارة بالسوء أو يسقط في حُفَر الحياة، سواء على يمين الصراط أو يساره.

ولهذا حثّ كولن على استغلال كل إنسان لعمله، واستعماله كمنشور في تحليل الحوادث والأشياء، مع توجيه "علمه لإضاءة وإنارة المناطق المظلمة والطيران بعلمه ومعرفته للوصول إلى الحقائق الموجودة فيما وراء الطبيعة، فقدْرُه وقيمته بقيمة علو طيرانه"[٣].

والعلم عند كولن ليس مجرد معارف يتم تكديسها في العقل، بل هو منهج متكامل لقراءة "آيات الأنفس" و"آيات الآفاق" في ضوء "آيات القرآن" وحقائق العلم، والعلم الذي يتم تحصيله وفق هذا المنهج يثمر خشية الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فَاطِر:٢٨)، ولهذا ربط العلماء القدامى العلم بالخشية كما قال الإمام سفيان الثوري: "إنما العلم الخشية".

ورأى كولن في هذا السياق أن تقوى الله حق تقاته تتناسب طرديًّا مع معرفة الله تعالى، "لذا يمكن القول بأن جميع المعارف التي لا تساعدنا على زيادة هذه المعرفة ليست إلا معرفة ظاهرية وعبارة عن قيل وقال"[٤].

وحثّ على الانتقاء في طلب العلم، والتركيز على ما يجعل الإيمان ينتفض، ويجعل أصحابه يشاهدون تجليات أسماء الله وصفاته، وهو المالك الحقيقي للأشياء وصاحبها والمؤثر الحقيقي فيها، "وأن نقضي

---

[٢] انظر مثلاً: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٨، ١٤١، ٢١٦.

[٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤.

[٤] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٢٥.

الأيام الباقية من حياتنا في دائرة رضا الله تعالى وفي ضوء هذا النور المتولد من عملية التفكير والتأمل هذه "[٥].

إن العلم هو الطريق إلى الفاعلية، ولكنه ليس العلم المجرد من الإخلاص، بل العلم الذي يشترك القلب في تحصيله ويتحول إلى معرفة، بعد أن تقوم البصيرة بضم هذه العلوم الجزئية المبعثرة وربطها في اتجاه واحد هو الله، من أجل إرضائه بالتزام منهجه واستثمار سننه في العبودية له في محراب الحياة.

"إن الانتساب إلى الحق، والنظر إلى كل شيء بنور الله ومعرفته، يحوّل حقيقة الإنسان -الذي كان قطرة من ماء مهين- إلى بحر، ويحوّل معرفة الإنسان من ذرة إلى شمس، ويحوّل قلب الإنسان -الذي هو شيء لا يذكر- إلى نبض للكون"[٦]. ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزُّمَر:٩).

وما برح كولن ينوّه بفضل العلم والإخلاص في الارتقاء بالعلوم والأعمال إلى سماوات القبول والتأثير والفاعلية، فإن "الذرة الواحدة منها تعادل الشمس، والقطرة الواحدة منها تعادل البحار، واللحظة الواحدة منها بقيمة الأبد"[٧]، وبالنية الصالحة حصل أهل الكهف على أجور عبادة ثلاثمائة وتسع سنوات رغم أنهم كانوا نائمين.[٨]

ويحذر من أن القلب سلاح ذو حدَّين، فهو جسر إما إلى الخيرات وإما

---

[٥] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٣٠.

[٦] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٦٦.

[٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٧.

[٨] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٢٢.

إلى نزغات الشيطان، بحسب صلته بالله.[٩] ولهذا أكّد مرارًا وتكرارًا على أهمية الإخلاص وضرورته، مشبهًا له بجناح الطائر في الارتفاع بالأعمال، لافتًا الأنظار إلى بركة الإخلاص ودوره في مراكمة الأجور، حيث يقول مثلاً: "والإخلاص وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيرًا والضحل عميقًا والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة. حتى يستطيع الإنسان بواسطتها أن يطلب أغلى ما في سوق الدنيا والآخرة"[١٠].

وبسبب الانفصام الذي حدث عند مجاميع من المسلمين بين العقل والقلب، فإن كولن ما فتئ يؤكّد على ضرورة الجمع الدقيق بينهما، حتى لا يكون هذا الانفصام أحد منابع التمزق وحلول الغثائية والوهن، كما هو حاصل الآن، يقول كولن: "العقل منبع مهم للعمر، أما البصيرة فمنبع مهم للمعرفة أو العرفان. فالذي يملك عقلاً ولا يملك بصيرة قد يعرف أشياء كثيرة ويفهم أشياء كثيرة إلا أنه لا يستطيع أن يصل بمعلوماته إلى شيء"[١١].

ولأهمية تجسير العلاقة بين العقل والقلب، ودور هذا التجسير في تجفيف منابع الكثير من الصراعات، يقول كولن: "لقد قاست الإنسانية منذ ظهورها حتى الآن من صخب النزاع بين العقل والقلب. ولو فشلنا في إقامة جسر بين العقل والقلب، ولقاء بينهما، وتأمين التناغم والتلاؤم بينهما، فإن هذا النزاع والخصام سيستمر"[١٢].

---

[٩] انظر: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ٦٥/١.

[١٠] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١١٤/١.

[١١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٩٨.

[١٢] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٤.

من أجل ذلك كثَّف كولن دعوته إلى التمازج المتناسب والتلازم المتوازن بين العقل والقلب في مئات المواضع من كتبه ومقالاته.[١٣] ويمكن تلخيص طبيعة هذه المزاوجة بأوجز عبارة قالها، وهي: "إذا كان العقل هو قسم البياض من العين، فالحكمة هي القسم الأسود منها "[١٤] والحكمة هنا يقصد بها العرفان الذي هو ثمرة البصيرة المنغرسة في القلب المتسم بالإخلاص.

ويزيد كولن من تجفيف منابع الفُرقة في عقل الإنسان وقلبه، بحسن قراءته للقرآن، وحسن نظرته الشمولية إليه، فهو: "مجموعة القوانين الإلهية النازلة من لدن الخبير المتعال والمشرقة على عالم بني الإنسان، والتي تتناول الإنسان في جميع جوانبه، من قلبه وروحه وعقله وجسمه"[١٥].

وبالعلم النقي أوجد كولن في تلاميذه "الإدارة"، وبالإخلاص التقي أوجد "الإرادة"، واستطاع بمداد العلم ودموع الإخلاص إيجاد الأرقام الصحيحة، ونجح في حرث الأراضي الخصبة لاستزراع ثقافة الأخوة بدوائرها الأربع -كما سيأتي في الفقرة القادمة- ومن ثم قام بتجفيف أحد منابع الفرقة والتمزق، وتحويله إلى منبع من منابع الأخوة والائتلاف.

٢- الأُخُوّة بدوائرها الأربع

اشتهر كولن بدعوته للأخوة والتسامح، ومن خلال جمع مقولاته

---

[١٣] انظر مثلًا: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٧١، ٨٠، ٩٩، ١٠٠، ١١٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٨، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٤، ٢١٩؛ أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٦١، ٩٤، ١٣٦.

[١٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢١٩.

[١٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٨٤.

وممارساته ذات الصلة بهذا الموضوع يتضح أن للأخوة عنده أربع دوائر، تبدأ من الأضيق لتنتهي بالأوسع:

الدائرة الأولى: الأخوة الوطنية

وهي الدائرة التي تضم ما يعرف اليوم بجمهورية تركيا، حيث يبني على المواطنة حقوق الأخوة، من تناصر وتعاون في كافة الشؤون المادية والمعنوية، إذ الأقربون أولى بالمعروف.

وفي كتابه "ونحن نقيم صرح الروح" -والذي أعتبره أقرب إلى النظام العام لتيار الخدمة- وجَّه كولن تلاميذه إلى ضرورة "أن نجعل وطننا وإنساننا مقصودنا ونجهد في تغيير مصيرنا المعكوس، ونحيي أجسادنا بالروح المتشكل من عجين مجتمعنا، ونفتح صفحة تاريخية نقية وجديرة لشعبنا، هي شيء من الأسس لحضارة تفوق المدن الفاضلة ورؤيا التجدد"[١٦].

وبالفعل فإن أبناء الخدمة اليوم يمثّلون أحد الجسور التي انتصبت أمام بلادهم لتساعدها على العبور إلى المستقبل، ويتحدث كولن عن شيء من هذا الدور، فيقول: "هذا الوطن، وهذه الأرض التي رويت منذ زمان بدماء ملايين النفوس المضحية، تعيش اليوم مع كثير من أبنائها الأوفياء حماس العبور من الماضي إلى الآتي.. طافحين بالرجاء والأمل، وممسوسين بقشعريرة حمى الارتقاء بشعبهم. فترى إحدى يدَيهم ورجلَيهم منشغلة بالعمل اليومي، وأُخراها منشغلة في تجهيز الخطط والبرامج للمستقبل، بل تجدهم قد وهبوا أحاسيسهم ومشاعرهم لإمرة فكرهم ودعواهم"[١٧]،

---

[١٦] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٣٨.

[١٧] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٠.

وهو في هذا السياق ما فتئ يُذكِّر الأتراك بتاريخهم الإسلامي المجيد، من أجل تحلية الوطنية بمضمونها الإسلامي المنفتح، لا الطوراني المنغلق.[١٨]

وهو كثير الاحتفاء برموز تركيا العثمانية، حيث يجتهد لإعطائها الصبغة الإسلامية، مثل بشارة الرسول ﷺ بفتح إسطنبول، وتحولها إلى قاعدة للمد الإسلامي في نواحي كثيرة من العالم، ولاسيما في شرق أوربا.[١٩] أما ما يقدمه تيار الخدمة لبلاده من خدمات فهي أفضل تجسيد للوطنية في أسمى معانيها.

الدائرة الثانية: الأُخُوَّة القومية

من المعلوم أن الأتراك لا يسكنون فقط تركيا، بل إن معظم المناطق الممتدة ما بين جنوب شرق الصين حتى تركيا تنتمي تاريخيا وعرقيا إلى القومية التركية، ولذلك فإن تيار الخدمة بفضل توجيهات كولن يمتد ليتمدد في هذه المناطق بقوة ليقدم خدماته إليها، باعتبار أن لهؤلاء حقوق الأخوة القومية والدينية والإنسانية، بجانب حقوق المجاورة.

ومثلما فعل كولن في الدائرة الأولى، فإنه لا ينْفكّ عن تذكير الأتراك جميعهم أنهم ما عرفوا الحياة العزيزة إلا بالإسلام،[٢٠] ويذكِّرهم بأمجاد العثمانيين، والأدوار الكبرى التي قاموا بها في الذود عن الإسلام وحماية المسلمين، وفي ذات السياق فإنه يشيد بأدوار وبطولات العثمانيين، ويدافع عنهم باستماتة،[٢١] ويدافع كذلك عن رموزهم كالسلطان عبد الحميد الذي تعرض لحملة شعواء شوَّهته حتى لُقب بـ"السلطان الأحمر" من قبل

---

[١٨] انظر مثلاً: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٠-١٢٥.

[١٩] انظر مثلاً: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٨٩-٢٩١.

[٢٠] انظر: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٠٨.

[٢١] انظر مثلاً: أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٤٠- ١٤٤.

الفرنسيين، ليجد هذا اللقب قبولاً عند غلاة التحلل من الأصول من الأتراك، لكن كولن يقاوم هذا الاتجاه بقوة، ويرفض تلقيب السلطان عبد الحميد بهذا اللقب الظالم، ويلفت الأنظار إلى أدواره البطولية وصفحاته البيضاء.[٢٢]

ويشتد حماس كولن في الدفاع عن العصر العثماني من خلال الدفاع عن المدارس الدينية والزوايا والتكايا، رافضًا الاتهام الموجَّه لها بأنها لعبت دورًا في سقوط الدولة العثمانية، بل يرى أن العكس هو الصحيح.[٢٣] وقد برز الدور العملي لتيار الخدمة في هذه الدائرة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي واستقلال الجمهوريات الإسلامية الست في وسط آسيا، وهذا الدور الإيجابي ناشط ولاسيما في المجالين التربوي والاجتماعي.

الدائرة الثالثة: الأخوَّة الإسلامية

يبلغ عدد المسلمين اليوم أكثر من خُمس سكان العالم، ويسكنون حوالي ربع مساحة اليابسة، ورغم انتمائهم إلى أعراق وألوان وألسنة مختلفة، ورغم توزعهم بين طوائف ومذاهب وفرق ومشارب متنوعة، إلا أن عنوان الإسلام ومسمى الإيمان يجمعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحُجُرات:١٠).

هذه الرؤية الإسلامية، هي التي يحاول كولن -مثل كثير من المفكرين والدعاة المسلمين- إعادتها إلى الواجهة بعد أن نسيتها مجاميع كثيرة من المسلمين، مفضلة الانتماء إلى دوائر عرقية أو جغرافية أو تاريخية أو طائفية أو مذهبية ضيقة.

---

[٢٢] أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٩٤-١٩٩.

[٢٣] انظر: أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:٢٥٥-٢٥٨.

ولهذا فإن كولن ومن ورائه تيار الخدمة يؤمنون بضرورة تجديد العالم الإسلامي، حيث يقول مثلاً: "لذلك نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعًا إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام، وممارسة الإحسان، وإثارة العشق والشوق، وتحكيم المنطق، وتعديل طرق التفكير، وأسلوب التعبير عن الذات، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال"[٢٤].

ويؤكد على هذا المعنى فيقول: "إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى انبعاث جديد وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبتعبير أكثر حيوية، إلى "إحياء".. إحياء يستجيب لمتطلبات جميع أصناف البشر ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تتسع لها مرونة النصوص، مع السعي الجاد للحفاظ على أصول الدين"[٢٥].

وفي سبيل إيقاظ الحس الجمعي للأمة وتذكير المسلمين بأخوتهم الإسلامية، يبدأ كولن بإعادة هذه الحقيقة إلى الواجهة في التديُّن الإسلامي، من خلال إحياء الشعائر الدينية وإقامتها كالصلاة، وليس مجرد أدائها، مما يزرع في قلب المتديّن روح الشعور بالانتماء إلى جماعة المسلمين.[٢٦]

ويدعو كولن كعادته إلى الموازنة بين العقل والقلب، في سياق حثه على ضرورة تحقيق الوحدة الإسلامية؛[٢٧] لأن هذا التوازن هو أحد أهم أسس الوحدة، وبدونه لن تتحقق الوحدة الفعلية، حتى لو اجتمع

---

[٢٤] نقل هذه العبارات: محمد أنس أركنه في دراسته القيمة: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص:٢٥٢.

[٢٥] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٢٥٣.

[٢٦] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٥٢.

[٢٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨٠.

المسلمون تحت راية دولة واحدة.

ويُحذر المسلمين من الوقوع في مصائد الأعداء، ويحث على إيجاد صيغة اتحاد عصرية تحافظ على مضمون الوحدة مع الإبقاء على الوطنيات كجزء من الواقع المستحكم، وذلك كالاتحاد الأنجلو سكسوني والغال.[٢٨]

وهو في هذا الاقتراح يسعى للموازنة بين الوحدة والحرية في حدهما الأدنى على الأقل، ولهذا يقول: "أعلى الأمم قدرًا هي الأمة التي تُسيِّر أمورها في ظل الوحدة والتآلف، والتي تعطي أهمية لرأي شعبها. وهذا يتعلق بقيام أفراد هذه الأمة بتلقي التربية نفسها في الدين واللغة والتاريخ"[٢٩]. وهذا يطمئن الوطنيين غير الأتراك، من أن تيار الخدمة ليست له أي طموحات في إعادة الحكم العثماني إلى بلدانهم.

الدائرة الرابعة: الأخوّة الإنسانية

ورد في القرآن الكريم نسبة كل نبي إلى قومه المرسل إليهم بلفظ "أخوهم"، رغم أنهم كفار، وهي الأخوة الإنسانية التي لا ينكرها القرآن. ومن هنا نَهَلَ كولن رؤيته الكونية بأبعادها الإنسانية.

فهو يجعل على المسلم رسالة نحو البشرية جمعاء من أجل إقامة ما يسميه بـ"التوازن الدولي" أي عدم طغيان أحد على أحد، ولهذا فإن قراءته لآيات الجهاد في القرآن الكريم أوصلته إلى تأليف كتاب خاص تحت عنوان "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" أكد فيه أن من أهم وظائفه (الجهاد) صدُّ عملية الإكراه وفتنة الناس عن أديانهم وقناعاتهم.[٣٠]

---

[٢٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨١.

[٢٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٥.

[٣٠] راجع: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٤٣-٦٢.

وفي سياق قراءته لقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البَقَرَة:٢٥٦) انحاز إلى ظاهر الآية الذي يدل على حرمة الإكراه لأيٍّ كان من أجل اعتناق الإسلام،[٣١] ومن ثم فإنه ليس مع من يدَّعون نسخ هذه الآية أو يؤوِّلونها، كبقية آيات الحرية والاختيار.

وفي معرض تدبره لبعض الآيات المتحدثة عن ذي القرنين، وهو الملك الصالح الوارد ذكره في سورة الكهف، أوضح كُولَن أن هذا الملِك نموذج للمسلم الذي يستخدم كل إمكانياته الكبيرة حتى مداها الأخير، من أجل تحقيق الرضا الإلهي وفي سبيل تحقيق التوازن في الأرض.[٣٢] بمعنى أن قوامة المسلمين على الناس هي تكليف أكثر من كونها تشريفًا.

وهكذا، فإن كولن يزيل الانفصام الذي أبداه أصحاب التدين المنقوص بين الدائرة الإسلامية، وكل من الدوائر الوطنية والقومية والإنسانية، وبالتالي أوجد بعدًا آخر من أبعاد فقه الائتلاف، وبنى له أساسًا آخر، وهو في ذلك يتفق مع المفكرين والدعاة الوسطيين، كالإمام حسن البنا الذي وضع الدائرة المصرية (الوطن) أولاً، ثم العربية (القومية)، ثم الإسلامية، ثم الإنسانية.

٣- الإيجابية الفاعلة

هذا هو الأساس الثالث من أسس فقه الائتلاف عند فتح الله كولن، حيث عمد إلى إيجاد الشخصية الإيجابية الفاعلة، بحيث يكون المرء شخصًا لا فردًا، والشخص هو الذي يمتلك إمكانات الائتلاف مع غيره، وتحوله إلى لبنة في صرح المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه، بينما الفرد

---

[٣١] انظر: أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:٢٤١.

[٣٢] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٣٣.

يميل إلى السلبية والذاتية والأنانية، ومن ثم يصير شوكة في خاصرة المجتمع وغصة في حلقه، ومعول هدم في صرحه.

الشخصية المؤتلفة هي التي تحمل روح الجماعة في عقلها وقلبها، حيث تجتمع أبعادها الفكرية والروحية حول مقاصد هذا الدين، ومن ثم تكون أبعد ما تكون عن الأنانية الفردية. ولهذا حذّر كولن مرارًا وبأساليب مختلفة من كل أشكال المنافع الشخصية، وحثَّ على التحلي بالإخلاص وعدَّه السبيل إلى الأبدية والسعادة الأخروية.[٣٣]

ولوضوح هذا الأمر في فلسفة كولن، ولبروز البعد الجماعي في شخصيته، فإنه في تفريقه بين الفلسفة والنبوة، يجعل أحد أهم الفروق بينهما أن الفلسفة أنانية فردية، بينما النبوة اجتماعية متساندة ومتعاونة.[٣٤]

والإيجابية لا يمكن أن تكون إلا ثمرة الفكر الراقي الذي يورث صاحبه الشعور المرهف بالمسؤولية، يقول كولن: "يقولون فلان حساس إلى درجة يتأثر حتى من رطوبة الجو، أَفْدي مثل هذا الشخص بنفسي.. إذ ماذا نقول لمن لا يبتلّ حتى وهو تحت المطر؟!".[٣٥]

ولهذا ركَّز على إيجاد الفرد الإيجابي الذي يصير رقمًا صحيحًا وفاعلاً، ولبنة مناسبة في جدار المجتمع، وكما قال أحد الباحثين[٣٦] بصدق: "إن فتح الله كولن لم يتناول الإنسان كموضوع للنقاش على المستوى الثقافي،

---

[٣٣] أنظر: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص: ٣١٦، ٣١٧.

[٣٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٥٣.

[٣٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ١١٧.

[٣٦] هو: محمد أنس أركنه، في كتابه فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٣٥.

بل حوَّل هذا الموضوع إلى مشروع جدي في الحياة العملية".

ولما كانت السلبية إحدى ثمار الشعور بعقدة النقص ومركب الدونية، فقد عمد كولن إلى بناء الذات، وتشجيع تلاميذه على التعلم الذاتي في بناء شخصياتهم، وعلى النجاح في صناعة الحياة، مما يساهم في القضاء على قابليات الحقد على المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه، وبحيث يدفعهم اعتزازهم بذواتهم إلى الشعور بالانتماء إلى هذا المجتمع وعدم الانفصال عنه، وبهذا يكون هذا الفرد الإيجابي أميل إلى الائتلاف مع الآخرين والاتحاد معهم.[٣٧]

والإيجابية من أول معانيها أن يمارس الفرد دورًا مقدورًا في تزكية نفسه، بحيث يترقى بها في مدارج الكمال، حتى يصل إلى ردم الهُوَّة بين ما يقول وما يفعل، حينها يكون أهلاً لتحلية الآخرين بالايجابية، يقول كولن: "على الذين يحاولون أن يصلحوا العالم إصلاح أنفسهم أولاً، أجل عليهم أن يطهّروا أولاً قلوبهم من الغل والحقد والحسد إلى جانب استقامتهم في السلوك وفي التصرف وبعدهم عما لا يليق بهم، وبهذا فقط يستطيعون أن يكونوا قدوة لمن حولهم"[٣٨].

وقد شن حربًا شعواء على الذين يقولون ما لا يفعلون، ولاسيما العلماء وهم الذين سماهم بـ"الثقوب السوداء"؛ لأنهم لا يعكسون النور ولا يُستفاد شيء من طاقاتهم الضوئية.[٣٩]

وظل يحث ويؤكد على ضرورة تجسير المسافة بين الأقوال والأفعال،

---

[٣٧] انظر: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٩٧، ٩٨.

[٣٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٨.

[٣٩] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٢.

كأهم طريق إلى الإيجابية الفاعلة، فالذي لم يستطع أن يعظ نفسه لا يمكن أن يعظ الآخرين، ولأن "الله تعالى ربط -لحكمة ما- قوة تأثير ما يقال بطراز تصرف القائل". ثم إن "العيش عبادة والتبليغ عبادة أخرى. فمن لم يطبق كليهما حمل ذنبين وابتعد عن قوة التأثير خطوتين، ومن لم يطبق أحدهما حمل ذنبًا واحدًا وابتعد عن التأثير خطوة واحدة، لأن قوة التأثير -كما ذكرنا- تعتمد على تطبيق ما يتم تبليغه"[٤٠].

ومن الإيجابية الفاعلة لكولن توجيه تلاميذه إلى الأمر بالمعروف أكثر من النهي عن المنكر، أي إيجاد البدائل الطيبة للناس دون الاصطدام بهم، أو استخدام العنف معهم ولو كان عنفًا لفظيًا، والتركيز على المضامين لا العناوين، وعلى الجواهر لا المظاهر، وعلى المسمّيات لا الأسماء، مما جعل تيار الخدمة يعيش بالإسلام دون أن يتحدث عنه.

وبسبب عمليته الفذة، نجح كولن في تجسيد الكثير من المُثُل، وصبَّ من دموعه مياه الحياة التي أحيت الكثير من الرجال الذين تحولت تلك الدموع في مآقيهم إلى دماء تجري في عروقهم، تبث فيهم نَفَسَ الفاعلية والنشاط، وتبعث روح المثابرة والمسابقة، لتولَد على أيديهم مشاريع عملاقة في الميادين الاجتماعية والتربوية والثقافية والإعلامية.

ولما كان دينامو هذه المشاريع هو المال، فإن العملية الإيجابية تبرز في هذا الميدان كأسْفَر ما تكون، إذ يبدأ الأمر بما يسمونه "مجلس صُحْبة"، يستخدم فيه الداعية علمه وإخلاصه لإقناع السامعين بضرورة العمل والتطوع والتضحية في سبيل الله، وما إن يتأثر الفرد بهذا الخطاب

[٤٠] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٦١- ٦٣.

ويقوم بالتطوع من ضمن المستهدفين الذين يطلق عليهم "الأصناف"، حتى يصبح معروفًا بـ"المتولي" إذ يبدأ بالإنفاق على أي نشاط أو مشروع.

وفي هذا السياق تقام مجالس تخصصية لهؤلاء المتطوعين، يُسمى أحدها "مجلس همّة" حيث يتسابق أهل الخدمة في التبرع والتطوع، ويتكرر هذا المجلس مرات ومرات في السنة، وذلك على غرار ما فعله النبي ﷺ قبل غزوة تبوك، ويبدو أن هناك مجالس طارئة ربما أَضيفت إلى المجالس الاعتيادية إذا اقتضت الضرورة.

وبهذه الإيجابية الفاعلة، أضاف فتح الله كولن أساسًا ثالثًا لفقه الائتلاف، لأن العمل يُبعد الناس عن الجدل المفرق للصفوف، ثم إنه العمل الإيجابي الذي يؤلف ولا يفرق، ويجمع ولا يمزق، ويبني ولا يدمر. يقول الإمام الأوزاعي: "إذا أراد الله بقوم شرًّا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل"؛ ويقول الكرخي: "إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل؛ وإذا أراد الله بعبد شرًّا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل"[٤١].

٤- الاعتراف بحق الآخر في التميُّز والاختلاف

لما كانت الصراعات في الغالب ثمرةً مرَّةً لشجرة "ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة"، ومن ثم تكفير وتسفيه الآخر، فإن كولن يعترف ويحث أتباعه على الاعتراف بالآخر وعلى أن مِن حقّه أن يعيش بكرامة، ويتمتع بحقوقه بحرية تامة في ضوء النظام العام للمجتمع، ويستوي في ذلك أن يكون هذا الآخر دينيًّا أو طائفيًّا أو مذهبيًّا أو غير ذلك.

---

[٤١] حلية الأولياء، أبو نعيم، ١٦٣/٨.

ولهذا فإن حركة فتح الله كولن منفتحة على المجتمع التركي بكل مشاربه وأطيافه، "فهي -قبل كل شيء- لا تهدف إلى أي انفصام نفسي واجتماعي عن المجتمع بل على العكس تمامًا فهي تهدف إلى التلاؤم مع هذا المجتمع وإلى الإسهام فيه، وتدعو إلى الأخوة الأبدية. ولا تتصرف في صدد العلاقات الاجتماعية بشكل انتقائي مثلما تتصرف الحركات الأيديولوجية، بل تخاطب كل الكتل الجماهيرية وتخاطب كل عائلة وكل فرد. ولا تسعى إلى تطوير أية حركات انعزالية في الشارع أو في السوق أو في النوادي أو الجمعيات...الخ. وتعارض أي حركة اجتماعية انعزالية تصادم روح الحياة الاجتماعية"[٤٢].

وينطلق كولن من مبدأ أن الله أمرنا أن نغير أنفسنا لا أن نغير الآخرين، وأننا عندما نغير أنفسنا ونكون في مستوى الإسلام فإن سلوكياتنا ستكون أفضل دعوة إلى الإسلام، ولا بأس بعد ذلك أن نقوم بمهمة البلاغ بالحسنى دون إكراه كما أسلفنا.

لكنه في معرض حديثه عن بعض علل التدين عند أهل الكتاب، يُحذِّر أشد الحذر من الوقوع فيما يمكن تسميته بالتطفيف والتفلُّت من معايير الموضوعية، إذ من الحرام أن يكيل المسلم بمكيالين، فيستوفي لنفسه ويأخذ من حق الآخرين، بل ما يرضاه لنفسه هو ما يرضاه للآخرين، والعكس صحيح.[٤٣]

وما فتئ يدعو إلى نبذ الأنانية، والاعتراف بوجود الآخر، وطبيعة الاختلاف في التفكير -على المستوى الإسلامي- مع ملاحظة التفريق

---

[٤٢] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:١١١.

[٤٣] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٤٣، ١٤٤.

بين الثوابت والمتغيرات، والثوابت عنده هي "القواعد والأركان والأصول الأساسية"[٤٤]، فهي وحدها التي ينبغي أن تكون محلّ اتفاق جميع المسلمين، أما غيرها فإن الاختلاف فيها سائغ ومشروع.

ومن خلال استقرائنا لمواضع وموضوعات الاختلاف بين مذاهب وتيارات المسلمين، وجدنا أن أهم سبب لذلك هو خلط كثيرين بين الثوابت والمتغيرات، وإحدى مساهمات فتح الله كولن في إقامة فقه الائتلاف، تأتي بسبب وعيه بخارطة الثوابت والمتغيرات، ولذلك يقول في هذا الشأن: "لما كانت الدعوة واحدة، والحق بجانبها، والأهداف والمبادئ الأساسية واحدة، فإن الاختلاف في الوسائل والطرق يجب ألا يكون سببًا للخلاف والفرقة. ويجب أن يكون الوعي من الرسوخ والثبات بحيث لا يعطي مجالاً لهذا الخلاف. وإلا فإن ظهور بوادر الخلاف والفرقة بمعاذير واهية يعد مزاجًا صبيانيًّا ودليلاً على عدم وجود المروءة والإحساس بالحق والسعي من أجله. والحقيقة أن الطرق المؤدية إلى الله تعالى متعددة بتعدد الأنفس والأمزجة بشرط بقائها ضمن دائرة أهل السنة والجماعة. ويجب أن يُحترم كل طريق من هذه الطرق، وتؤيد كل خدمة مقدمة"[٤٥].

ومهما يكن النضوج الفكري، فإن الأمر بحاجة -أيضًا- إلى أخلاق، ولاسيما في هذا السياق، وأهمها التخلي عن الأنانية والتعصب، والتحلي بالمرونة والتسامح، حتى يظل التعدد في دائرة "التكامل" دون "التآكل"، وفي ساحة "التعاون" دون "التباين".

"ويرى فتح الله كولن أن الإنسان الفاضل هو الإنسان المتسامح

---

[٤٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨٢.

[٤٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨٨.

الليّن الجانب. وهو الإنسان المضحّي والمخلص في سبيل المجتمع والإنسانية.. لذا فلا يرى أي شرعية في استعمال أي نوع من أنواع العنف في هذا الصدد، وهذا الأسلوب يقدم نموذجًا إسلاميًّا متوافقًا مع القواعد الإسلامية من جهة، ومع قيم العالم الحديث من جهة أخرى"[٤٦].

وهكذا، أوجد كولن أساسًا آخر من أسس فقه الائتلاف، لأن الذي يعترف بالآخر، ويرى أن من حقه أن يفكر بما يريد وأن يقول ما يراه صوابًا، وأن يفعل ما يتفق مع قناعاته الفكرية، فإنه لا يمكن أن يدخل معه في صراع، لا على مستوى "الكلام" ولا على مستوى "الفعل"، وبهذا تقترب الأمة خطوة أخرى من "الائتلاف" بعيدًا عن "الاختلاف".

٥- الدوران حول المقاصد وتجفيف منابع الفُرْقة

الناظر في خلافات المسلمين الداخلية، يدرك أن أحد أسبابها الخوض في التفاصيل والجزئيات، والدوران حول نصوص وقضايا جزئية، وإهمال المقاصد العامة التي جاء الإسلام من أجل تحقيقها، ولذا فإن كولن يجعل الدوران حول مقاصد الشريعة أساسًا من الأسس التي يقوم عليها فقه الائتلاف.

وبدأ الأمر بقراءة أسباب الفُرقة في تاريخنا الإسلامي، حيث وجد أن غياب الرؤية الكلية والتصور الشامل هو السبب الرئيسي، إذ قال: "لقد غابت عن واقعنا منذ قرون منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعتمد على الحركيات الإسلامية التي تشكل جذور المعنى لثقافتنا "الملّية" فتشَتَّتْنا شَذَر مَذَر، نحن وعالم كبير مرتبط بنا"[٤٧].

---

[٤٦] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٢٣١.

[٤٧] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٤٣.

ولهذا فإنه يدعو إلى إيجاد هذه الرؤية الكلية المعاصرة بعيدًا عن الفلسفات الأجنبية، ويحث على تفعيل فقه مقاصد الشريعة الإسلامية في هذا السبيل.

ولما كانت المجتمعات الإسلامية ما يزال كثير من أفرادها يؤدون الشعائر التعبدية، فإنه يبدأ بلفت الأنظار إلى مقاصدها، داعيًا إلى إقامتها وليس إلى مجرد أدائها، ويطلق على المقاصد مصطلح (النوعية)، حيث يقول: "ينبغي أن تكون (الكمية) تامة و(النوعية) هدفًا في العبادات، والكلمات وسيلة والروح والصدق أساسًا في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازمًا. وفي كل هذه: الله غاية القصد.. الصلاة ليست قيامًا وقعودًا.. ولا الزكاة مالاً مطروحًا تبرئة للذمة لا يعلم أين ذهابه.. ولئن صار الصيام جوعًا وعطشًا، فما اختلافه عن الحِمْية؟ والحج إن لم يجْرِ في فَلَكه، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تكسب بعضهم عملات أجنبية؟ والعبادات قد تصير كلعب الأطفال إن انحصرت في الكم.. وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الحلوق، والحج والعمرة إن صارت مشقة تُحتمل للتسلي بلقب (الحاج) ومناقب الحج، فسوف نحرج في المعاني والمرامي"[٤٨].

ولما كانت البداية في كل خير تنطلق من العلم، فإنه يدعو إلى التعلم، بل ويجعل التخصص واجبًا، لكنه يُحذر من الغرق في التفاصيل والجزئيات على حساب العموميات والكليات، حيث حث على "العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله، بل بمقصده وغايته، في أثناء سعيه وجده. ولا بد أن يتحقق

[٤٨] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٣٠.

هذا، سواء بالشعور التضامني المشترك، أو بسائق العلم والحس، أو بعمل منسق متكامل، أو بالدهاء العقلي. فلا شبهة ولا شك في حاجتنا الماسة إلى هذا النظر الكلي والشمولي، والتقييم العمومي والموضوعي"[٤٩].

ولهذا فإنه يشترط في المثقف والداعية وصاحب همِّ التغيير أمورًا عديدة في دائرة الوعي، ومنها أن يكون محترمًا للمقصد، خبيرًا بحكمة التشريع ومراد صاحب الشريعة، عالمًا بالأسس المحضة لأحكام الدين، مستقبلاً للواردات الإلهية.[٥٠]

وتبدو الرؤية الكلية واضحة عند كولن حتى وهو يدرس قضايا جزئية وموضوعات صغيرة، فعلى سبيل المثال -وهو يشرح آيات سورة الكهف ذات الصلة بذي القرنين- حثَّ على "البحث عن أحكام كلية"، مثل "شروط بقاء الدولة ودوامها وشروط رئيس الدولة..الخ."[٥١].

ولا شك أن فقه المقاصد يُشعر الجميع بوحدة الهدف والغاية، ولذلك قال كولن: "مِن شروط تقدّم الأمة وصول أفرادها إلى وحدة الهدف والغاية. فلا يمكن توقع تقدم صحيح وسليم في مجتمع انقسم أفراده شيعًا وطوائف متناحرة"[٥٢].

وحتى يخرج المسلمون من هذا المأزق في عصرنا هذا، رأى وجوب "تأييد ومساعدة كل من يخدم الإيمان وهذا الدين ويعمل على إعلاء شأن الإسلام سواء أكان في المشرق أم في المغرب، ومهما كان مشربه.

---

[٤٩] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٢.

[٥٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٢.

[٥١] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٣٥.

[٥٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١١٥.

صحيح أن الطرق والمسالك قد لا تكون نفسها، ولكن المهم هو الغاية والهدف"[٥٣]. وانطلق بعد ذلك يؤصل لهذا الاختلاف المشروع ويستدعي من أقوال وقصص السلف الصالح ما يؤيد مشروعية الاختلاف ما دام خارج إطار الثوابت.[٥٤]

وما فتئ يلقي الضوء على التعدد عند السلف الصالح، وكيف كان تعدد تنوع لا تضاد، وعلى سبيل المثال يقول: "ففي سبيل الحصول على مرضاة الله تعالى كان هناك انسجام وتناغم بين الأفراد كالانسجام الموجود بين الأصوات في السمفونية، أي كان كل صوت متناغمًا ومتلائمًا مع الجو العام. كان ذلك موجودًا لأن كل فرد كان فردًا ناضجًا ويتبع الحق ويطير بجناح الشوق في أفق ما يراه مقدسًا، ويطمح في رؤية شعائره وهي تعظّم وتبجل، ولم يكن مهمًّا عندهم من سيقوم بالأمر. وما دام الليل قد انقضى وأشرق الصباح فلم يكن مهمًا لدى أحدهم أأعطي له منصب سلطان أم درجة متسول"[٥٥].

ولهذا أوصى الدعاة قائلاً في هذا الشأن: "ولا تجعلوا الخلاف في الفكر والخلاف في الفهم وسائل للفرقة وللعداء، بل عُدّوا هذا الخلاف مصدر غنى فكري"[٥٦].

ومثلما أسلفنا من قبل فإن الأخلاق تُنضج الفكر والعلم أكثر، فالأخلاق السامية تدفع أصحابها إلى الدوران حول المقاصد السامية، وهي كما

---

[٥٣] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٤٥.

[٥٤] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٤٥-١٥٠.

[٥٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٠.

[٥٦] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٣.

رأى كولن: "الدين والأمة والوطن والعرض"[٥٧]، مما يجعل المؤمن الحق بعيدًا عن سفاسف الأمور مترفعًا عن صغائرها، شاغلاً لنفسه بمعالي الأمور، مهتمًّا بالقضايا الكبيرة، ومنطلقًا من رؤية كلية واحدة، لا تسمح له بالتمزق والتشظّي والانفصام.

وعندما يدور الأفراد حول المقاصد ويتمحورون حولها، فإن هذا التمحور يشكل ما يشبه الجماعة حتى ولو لم يوجد تنظيم، وكما يبدو لي فإن هذا الأمر هو أعظم عوامل بروز أبناء الخدمة كأنهم جماعة شديدة التنظيم بصورة أقوى من بعض الجماعات المنظمة بالفعل، وهذا ما وعاه فتح الله كولن منذ وقت مبكّر، ولذلك وصل تيار الخدمة إلى ما وصل إليه، وقد نقل عنه أحد تلاميذه قوله: "فكرة الجماعة مهمة؛ بمعنى أن يقوم كل فرد بتوظيف عواطفه وأفكاره الشخصية ومشاعره حول فكرة سامية ليتم تحقيق وحدة عقلية ومنطقية". ويقول أيضًا: "الجماعة هي الوعاء المعنوي الذي تذوب فيه أنانيات الأفراد ونوازعهم النفعية. والحقيقة أن كل شكل من أشكال الأنانية، والتهالك على المصالح والمنافع الشخصية أمر لا أخلاقي"[٥٨].

ولأهمية المقاصد في قيام الجماعات أو سقوطها، فإن الهدف واضح بالنسبة لتيار الخدمة، ولذلك فإن الشخصية المعنوية لهذه الجماعة تتمحور حول "إعلاء كلمة الله" إذ أن جميع مناشط الجماعة وفعالياتها وقيمها وأهدافها تتوجه نحو هذه الغاية العظمى.[٥٩]

---

[٥٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨٧.

[٥٨] هـو: محمد أنـس أركنه، في كتابه: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشـرافاته الحضارية، ص:٣١٤.

[٥٩] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٣٢٨.

ولوضوح هذه الرؤية، وللرغبة في تعظيم الحس الجمعي للأمة، فإن فتح الله كولن قد رفض تأسيس أي حركة سياسية أو أيديولوجية دينية.[٦٠]

ومن منابع الفرقة الحرص الزائد على الوحدة، ومحاولة قولبة الكيانات الإسلامية، فإن هذا مدعاة لزيادة التشرذم وتعاظم الفرقة، ولهذا أوصى كولن الداعية المسلم بقوله: "لا تتصرف أبدًا كحواري الوحدة، ولا تقل لكل من تقابله: "تعال لنتّحد"، لأنها دعوة ليست في محلّها. أما عندما تقول هذا بأسلوب من يدعو الآخرين للانضمام إلى مجموعته فهو خطأ أكبر وعدم توقير، ذلك لأن مثل هذا الأسلوب لا ينتج عنه -حتى عند أكثر الناس جنوحًا للخيال- سوى زيادة التعصب لجماعته، بل قم بالثناء على خدماتهم، واحترم ووقِّر مرشديهم، وبهذا يلين حتى أكثرهم خشونة"[٦١].

وفي مقام آخر يقول: "إن لم نستطع الاتفاق فعلى الأقل لنتجنّب الوقوع في الخلاف، أو دعونا لا نضخّم خلافاتنا"[٦٢]، ومن المعلوم أن الاتحاد غير الاتفاق.

ورغم أن أسباب الفرقة والاختلاف ذات منشأ داخلي، بسبب الخلل الفكري أو العلل النفسية أو كليهما، إلا أن العدو الخارجي يلعب دورًا في هذا الموضوع، ولهذا أوصى كولن المسلمين والجماعات الإسلامية بالحذر من ذلك، حيث قال: "إن القوى الخارجية كثيرًا ما تمد يدها إلى المفاهيم المذهبية أو إلى المدارس التصوفية أو إلى نبش المسائل العنصرية والعرقية، لذا يجب الانتباه والحذر"[٦٣].

---

[٦٠] انظر: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٤٦.

[٦١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٣.

[٦٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٥٩.

[٦٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨٤.

وقد ينجح العدو الخارجي في استزراع أو إحياء الخلافات العرقية أو الطائفية أو المذهبية بين المسلمين رغم سلامة المقصد ونضج الفكر، وذلك عندما تغيب الوسائل التي تجسد هذه الأفكار في الواقع، وهي موضوع القسم الثاني من هذا الفصل.

ثانيًا: وسائل تجسيد فقه الائتلاف

لم يكتف فتح الله كولن بأسس فقه الائتلاف النظرية بل أوجد أسسًا عملية، وهي الشطر الآخر من هذا الفقه، ويمكن اعتبارها وسائل كفيلة بتنزيل وتجسيد تلك الأسس في الواقع العملي، وأهم هذه الوسائل:

١- التحلي بآداب الحوار والخلاف

لقَّن الله رسوله محمدًا ﷺ -في حواره وتعامله مع المشركين- أن يقول لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(سبأ:٢٤-٢٥). ففي الآية الأولى لم يدَّع أن المؤمنين على الهدى والمشركين على الضلال المبين، بل كل طرف يمكن أن يكون على الحق أو على الضلال من الناحية النظرية الافتراضية، حتى يستمر الحوار، ثم نلاحظ في الآية الأخرى أنه نسب الإجرام إلى المسلمين (أجرمنا)، بينما أطلق على سلوكيات المشركين أعمالاً (ولا نُسأل عما تعملون). وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(القصص:٨٥).

من هذه الأرضية جاء فتح الله كولن، إذ بسبب تدبره الراقي للقرآن حاول استيعاب حقائقه وقيمه وتنزيلها على الواقع، والبداية في هذا الصدد بإجادة استخدام اللغة وحسن توظيف الكلمة، بحيث تحقق الهدف

دون استفزاز ودون زيادة أو نقصان.

"والكلمة أهم واسطة لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر، ومن قلب إلى آخر. والذين يحسنون استعمال هذه الواسطة من أرباب الفكر يستطيعون جمع أنصار عديدين للأفكار التي يريدون إيداعها في القلوب وفي الأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود. أما الذين لا يحسنون هذا ولا يستطيعونه فإنهم يقضون أعمارهم في معاناة فكرية ثم يرحلون عن هذه الدنيا دون أن يتركوا أثرًا فيها"[٦٤].

ويمكن القول باطمئنان إن أهم أداة لتدريب الشباب على الحوار وآداب الخلاف هي التربية ولاسيما في المدارس، وهذا ما اهتم به فتح الله كولن وتلاميذه في تيار الخدمة.

التربية هي التي تصنع الأجيال المنشودة للنهوض الإسلامي، لأنها تستطيع اجتثاث الزوائد الموجودة في تكوين الفرد، والناتجة عن طبائع الفجور: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشّمس:٨)، وشوائب النفس الأمّارة بالسوء، ومن ثم يمكن تحصين هذا الفرد ضد ثقافة التعصب والانغلاق، مع تحليته بآداب الحوار وأخلاق الخلاف.

ويبين كولن خطورة التربية والمدارس بصورة عامة، فيقول: "عند افتتاح المدارس كل عام لا نملك أنفسنا من التفكير في المدرسة وفي المعلم. كيف لا والمدرسة مختبر حيوي، والدروس إكسير الحياة، والمعلم هو بطل هذه المؤسسة التي توزع الشفاء والصحة"[٦٥].

"تقوم المدرسة بإرسال حُزم أضواء العرفان على الحوادث فتنيرها

---

[٦٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٨.

[٦٥] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٣٠٢..

وتجلو غوامضها، وتهيء لطلابها إمكانية معرفة ما يحيط بهم، وتفتح بسرعة سبل اكتشاف ماهية الأحداث والأشياء، وتهدي فكر الإنسان إلى الواحد الأحد في معظم الأحيان، فالمدرسة بهذا المعنى مَعبد، والمعلّمون فيها هم أولياء هذا المعبد وحواريّوه"[٦٦].

وظل كولن في تربيته لتلاميذه يحليهم بآداب التعامل مع الآخرين، ومن ذلك: التسامح والبحث عن الأعذار، وعندما تكون المعصية من الكبائر المعلومة في الإسلام، فإن كولن يُعلم تلاميذه الامتعاض من الأفعال لا من الأشخاص،[٦٧] وهو بهذا يقتدي بالأنبياء والدعاة والمجددين والمصلحين الذين كان هذا ديدنهم،[٦٨] مثل لوط عليه السلام الذي سجل الله تعالى قوله لقومه المجرمين: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾(الشُّعَرَاء:١٦٨)، ومثل محمد ﷺ فقد قال له تعالى موجهًا ومُلقنًا: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(الشُّعَرَاء:٢١٦). فالبراءة إذًا تكون من الأعمال لا من الأشخاص.

ويدعو كولن المؤمنين عامة وأهل الخدمة خاصة إلى التعامل الإنساني والأخلاقي مع المخالفين ومن أساء إليهم، حيث يقول: "لا يظهر كمال الإنسان ونضوجه إلا عندما لا ينحرف عن طريق الحق حتى بالنسبة للأشخاص الذين أساؤوا إليه، بل لا يتردد في إسداء الخير إليهم. أجل إن على الإنسان ألا ينحرف عن الإنصاف وعن المروءة حتى تجاه من رأى منه الإساءة والشر. ذلك لأن القيام بالإساءة تصرف حيواني، ومقابلة

---

[٦٦] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٣٠٢.

[٦٧] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٥١.

[٦٨] انظر: د. فؤاد البنا: التفكير الموضوعي في الإسلام، الطبعة الأولى، (الدوحة: سلسلة كتب الأمة، رقم: ١٣٧)، ص:٥٢-٥٦.

الإساءة بالإساءة نقص خطير في الإنسان. أما مقابلة الإساءة بالإحسان، ومقابلة الشر بالخير فعلامة من علامات السمو والشهامة"[٦٩].

وركز في هذا السياق على غمس تلاميذه بأخلاق الإسلام نهيًا وأمرًا، وركز في التخلية على خلق الأنانية والأثرة، وفي التحلية على خلق الخدمة والإيثار.[٧٠]

ولأننا في مقام الحديث عن الوسائل، فإن فتح الله كولن، قد نزل إلى الواقع العملي بتربية تلاميذه على هذه القيم، ولما نجحوا بدأ بدعوة كل الأطياف والمشارب والتيارات التركية للتقابل وجهًا لوجه، حيث دعاهم إلى موائد الطعام التي قدمها تيار الخدمة، وهناك كسر الحواجز بين هؤلاء المختلفين، وكأنه كان يضع لهم بين الطعام مادة تعينهم على مقابلة الآخر أولاً والاعتراف به ثانيًا ومحاورته بأدب ثالثًا، حيث تحولت "موائد الطعام" إلى "موائد للفكر" متجسدة في مؤسسة أوجدها كولن وهي: "وقف الصحفيين والكُتّاب" لدعم الفكر والثقافة، ومن رحم هذه الجمعية ولد منبر "أَبَنْت" كمؤسسة متخصصة في الحوار، وما هي إلا سنوات قليلة حتى أقام هذا المنبر عشرات المؤتمرات والندوات والحوارات واللقاءات في شتى الموضوعات ومختلف القضايا، داخل تركيا وخارجها، ليصل الأمر إلى حوار الحضارات والأديان والثقافات، وتوج ذلك كله بمقابلة فتح الله كولن نفسه للبابا في الفاتيكان وهو زعيم المسيحيين الكاثوليك في العالم.

وإذا كان العالم في ظل "العولمة" الليبرالية يسمع دقات طبول الحرب التي يتولاها دعاة ما يسمى بـ"صدام الحضارات" ولاسيما بين العالم

---

[٦٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٧٥، ٧٦.

[٧٠] انظر مثلاً: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١١١ (عن الإيثار).

الإسلامي والعالم الغربي، كما جاء في كتاب "صدام الحضارات" للمفكر الأمريكي صموئيل هنتجتون، فإن هناك تيارات أخرى إسلامية وغربية تنتصب كجسور للحوار بين الحضارات والثقافات، ولا أتردد في القول بأن تيار الخدمة يأتي في طليعتها على مستوى العالم الإسلامي.

"إن حركة فتح الله كولن تحاول اليوم توسيع إطار مفهوم الحوار وقبول الآخر إلى مستوى عالمي حتى يمكن مقاومة التوجهات الرامية إلى صراع الحضارات"، وهذا مدعاة إلى البحث في كل الثقافات عن القيم المشتركة وقيم التسامح والتعايش مع الآخر.[٧١]

ومن المعلوم أن المدارس التركية المنبثقة عن فكرة الخدمة تتوزع في حوالي مائة وستين بلدًا في العالم، وهي تقوم بدور مقدر في الحوار والتقريب بين الحضارات، والتواصل بين الثقافات.[٧٢]

وهكذا، هيأ كولن فرصة الحوار، وأشاع فنونه وآدابه، ودرب تلاميذه على القيام بهذا الدور، وهو بذلك يوفر وسيلة من وسائل تضييق الفجوات، ويملأها بحديد الحوار وإسمنت الأخلاق والمحبة والتواضع.

٢- الامتناع عن ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة

إن زعم كثير من الشخصيات والجماعات امتلاكها للحقيقة المطلقة، هو سبب تسفيهها للآخرين، ومن ثم الوصول إلى حالة من الصراع والصراع الآخر، وبروز ظاهرة التشرذم والانقسام الخلوي، سواء كان هذا الادعاء بلسان المقال أو بلسان الحال.

---

[٧١] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٥٤، ٥٥.

[٧٢] انظر: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٥٢، ٢٩٦، ٢٩٩.

ولهذا ظل كولن ينتقد هذه الظاهرة، ويُحذر من الوقوع فيها، ويبين الحلول لها والمخارج منها. ولاتباعه منهج التلطّف في كل شيء، فإنه حتى في هذه الحالة يبين أن الإنسان بروحه وعقله قادر على أن يدرك الحقيقة بفطرته: "ولكن العوائق من أمثال الكبرياء وتجاوز الحد والخطأ في زاوية النظر تمنع رؤية الهدف بشكل واضح. وحتى لو بلغ الإنسان ذروة العلم فلن يستطيع الخلاص من القرارات الخاطئة ما لم يستطع الخلاص من هذه العوائق"[٧٣].

ويشرح هذه الظاهرة من كل جوانبها، وهو يرى أن "الاحتكار الفكري وادعاء صاحبه بأن الحق دائمًا معه ليس إلا تعبيرًا عن عبادة الوسيلة وإشارة إلى غياب الهدف. وإلا فكيف يمكن تفسير مشاعر الحقد والنفور والكراهية عند بعضهم نحو أناس يشاركونهم العقيدة والمشاعر والمبادئ نفسها؟ أليس هذا دليلاً على عدم وجود هدف؟ آه من هؤلاء المساكين عبيد أنفسهم الذين يطمحون إلى إدارة العالم حسب أفكارهم العرجاء"[٧٤].

وقد اعتبرنا بأن هذا الأمر من الوسائل، لأنه كان يدرب تلاميذه على إدراك النسبية وعدم وجود الخير المحض والشر الخالص، أو عدم وجود الصواب الكامل والخطأ التام، وكان يلفت أنظارهم إلى هذه الحقيقة في ثنايا موضوعات كثيرة، وعلى سبيل المثال وضح لهم في إحدى محاضراته أن كل المذاهب، كالمعتزلة والجبرية في التاريخ الإسلامي، وكل الثقافات غير الإسلامية كالرأسمالية والشيوعية، أنها جميعًا تمتلك

---

[٧٣] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٣١.

[٧٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٩.

شيئًا من الصواب ووجهًا من أوجه الحقيقة.[٧٥]

وكمداخل للوصول إلى إدراك هذا الأمر بوضوح، حث المسلمين على التحلي بجملة من القيم، أهمها: الإنصاف والموضوعية،[٧٦] وكذا: القراءة، والشورى، والتواضع.

بالنسبة للقراءة هو دائم الحث عليها، دائب الترغيب بها، مبينًا أن العلماء الكبار كثيرو القراءة، وفي ذات الوقت فإنهم يرون أنفسهم أصحاب معلومات قليلة،[٧٧] فالقراءة تُوسِّع مدارك العقل ومساحات الوعي، وتُساهم في توسيع دائرة رؤية الإنسان، فيدرك أن ما يجهله في هذه المساحات الواسعة أضعاف ما يعلمه، وعندما يقيس نفسه بالمساحة التي أضاءته أنوار علمه، يدرك مدى ضآلته، ومن ثم يكون أكثر تواضعًا.

وما زال كولن يشيد بالتواضع ويثني على المتواضعين، ليس بصورة وعظية بسيطة بل بفكر عميق، فهو يقول -مثلاً-: "التواضع علامة على نضج وعلى فضيلة الشخص. والكبرياء علامة نقصه وانخفاض مستواه. أكمل الأشخاص هم الذين يتعارفون مع الناس ويمتزجون ويؤسسون علاقات المودة بينهم. وأنقص الأشخاص هم الذين يكرهون مخالطة الناس ويستنكفون من ذلك، لأن ذلك لا يتلاءم مع غرورهم وكبريائهم"[٧٨].

ولما كان لا يدعو إلى شيء إلا وقد طبَّقه، فقد بلغ بتواضعه حدَّ أن

---

[٧٥] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٠، ١٥١.

[٧٦] انظر مثلاً: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٥٩.

[٧٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٢٤.

[٧٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٥٤.

أَطلق على نفسه لقب "القطمير"، وهو اسم كلب أهل الكهف،[٧٩] وهذا ليس من التواضع المصطنع، فهو عندما يتعلق الأمر بطلب ما عند الله صاحب الجلال والكمال، وصاحب القدرة المطلقة، فإنه لا يرى نفسه إلا كذلك، وهذا من سيماء العلماء العاملين، ولهذا كلما صغر هؤلاء في عيون أنفسهم أكثر ازدادوا عظمة عند الله وعند الناس، وبسبب إنكار كولن لذاته، كبر عند الناس حتى وصل إلى قمّة هرمهم.

وبسبب عدم قدرة الإنسان على رؤية الحقيقة كاملة من كل أوجهها بسبب قصور مداركه وتواضع ملكاته، وبسبب الموانع والحواجز الذاتية والموضوعية، فلا بد من مشاورة الآخرين حتى تتلاقح الأفكار وتتكامل الصورة، وتظهر الحقيقة كما هي.

ولهذا أكثر كولن من الحديث عن الشورى، تنويهًا بأهمّيتها، وتوضيحًا لجمعها بين الثوابت والمتغيرات، وتبيينًا لأسسها ونتائجها، وإبرازًا لمجالاتها.[٨٠]

ومن العبارات الجميلة التي تجسد أهمية الشورى بعبارات قصيرة، قوله: "الشورى طريق مهمة لإكساب العقل المحدود والتفكير المحدود شمولية غير محدودة"، "ليست هناك دولة غنية كالمشورة ولا هناك جيش قوي يضاهيها"، "أفضل إكسير لإزالة صدأ الأفكار هو المشورة"، "إن كان عقلان أفضل من عقل واحد، فمِن باب أولى أن تكون مئات العقول أفضل من عقل واحد. واسم وعنوان اجتماع هذه المئات من العقول هو المشورة"[٨١].

---

[٧٩] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٧٥.

[٨٠] انظر مثلاً: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٥١-٦٤.

[٨١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن،ص:٢٤٠.

وفي هذا السياق، بيَّن الأهمية البالغة للشورى في كل الأمور، وجعلها الشرط الأول في أي عمل أو قرار،[٨٢] وبيّن أن أعقل الناس هو المشاور ولاسيما في القضايا الاجتماعية،[٨٣] وحث على إيجاد مؤسسات خدمية واجتماعية على قاعدة الشورى.[٨٤] ويبدو أن مؤسسات تيار الخدمة تدار بهذه الطريقة، ولذلك فإنها تحقق نجاحات عميقة وقوية، بجانب امتلاكها لبقية شروط النجاح، وعليه فإنني أعتبر هذه المؤسسات -بجانب الخدمات التي تقدمها- محاضن تربوية، يتدرب القائمون عليها على أمور كثيرة، من أهمها: الشورى، وعدم ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، والتواضع، إضافة إلى ما سيأتي من وسائل أخرى فيما بقي من هذا الفصل، وهي: التخطيط والتدرج المرحلي، الاتجاه بطاقة النقد نحو الذات وإعذار الآخرين، والتلطف والرحمة والحب.

٣- التخطيط الكلّي والتدرج المرحلي

دعا كولن المؤمن إلى أن لا يتشاءم بسبب قلة الإمكانيات ومحدوديتها، "وعليه أن يستعمل ما أعطاه الله من فضله استعمالاً حكيمًا، وألا يستعمله دون حساب. أي يقوم "بضرب عصفورين بحجَر واحد" كما يقال في المثل الدارج. أجل! على المسلم أن يخطط على الدوام ويبرمج كيف يضرب بحجر واحد مئات العصافير، مثلما نرى في العديد من الإجراءات الربانية. فكما نحصل من بذرة واحدة نبذرها في الحقل على سبع أو سبعين أو سبعمائة من البذور، علينا أن نخطط في كل خدمة نريد تحقيقها في سبيل الإيمان

---

[٨٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٢.

[٨٣] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٣٢.

[٨٤] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٤١.

وفي سبيل الملة للحصول على سبع أو سبعين أو سبعمائة ضعف"[٨٥].

وفي سياقات كثيرة ومساقات متعددة، حث على ضرورة وأهمية التخطيط، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(الشّرح:٧)، حث على ضرورة التخطيط الحسن لاستثمار الأوقات في العمل والحركة.[٨٦]

ودعا إلى ضرورة التنظيم للحاضر والتخطيط للمستقبل، من أجل حساب الأرباح والخسائر المحتملة،[٨٧] وهو ما يدخل تحت مسمى "فقه المآلات" كما عند الأصوليين من علماء الإسلام، "فقبل القيام بأي عمل وبأي نشاط إن لم يتم التفكير جديًّا في العاقبة، وإن لم تؤخذ آراء المجرّبين، فلا يمكن التهرب من عاقبة خيبة الأمل والندامة. كم من نشاط وعمل بُدء به دون إمعان فكر، لذا فلم يتم تسجيل خطوة واحدة فيه إلى الأمام.. ليس هذا فحسب بل خسر القائمون به سمعتهم كذلك"[٨٨].

وحضَّ على التخطيط الذي يتضح فيه الهدف تمامًا حتى لا تتعدد الأهداف أثناء العمل، ويظهر الاضطراب والفوضى، وحتى لا تتحول الوسائل إلى أغلال تقيد الإنسان وتربطه بها.[٨٩]

وبجانب ذلك، فإن التخطيط يجعل الحركة ذاتية لا مجرد ردود أفعال، وفاعلة لا منفعلة، وما لم يتم التخطيط "فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر

---

[٨٥] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٥٤، ٢٥٥.

[٨٦] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٨٥.

[٨٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٨، ١٩.

[٨٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٣.

[٨٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٧.

إلى تمثل فصول حركاتهم"[٩٠].

ويرى أن وضع خطة مدروسة بشكل جيد لإنشاء ورشة أو مصنع أمر ضروري لنجاحهما، فكيف "بالتخطيط الذي يتناول أمور الأمة كاملة، ويتناول إدارة دولة، وإرادة الإنسان، وهي أمور حافلة بالمعضلات وبالأحاجي والألغاز لكونها متعلقة بهذا الإنسان اللغز"[٩١].

ومن التخطيط: التدقيق في الأمور، ونجد فتح الله كولن في مواضع عدة يؤكد على ذلك، ويحث تلاميذه -كما أسلفنا- على أن يصل تدقيقهم إلى حد تشطير الشعرة أربعين شطرًا، وهو في مقام آخر يتحدث عن تيار الخدمة ومواصفات وارثي الأرض، ومن ذلك تدقيقهم الأدق الذي يشطر الشعرة أربعين شطرًا.[٩٢]

والتخطيط يقتضي التدقيق في قراءة الواقع، بحيث تكون الخطة موصلة لتحقيق الهدف، بدون تعجل قطف الثمرة قبل نضجها، أو التأخر حتى يقطفها الآخرون أو تذوي وتذبل.

وبسبب القراءة المتأنّية للواقع والتخطيط الدقيق، فإن تيار الخدمة يؤْثِر العمل الهادئ، حيث رأى كولن: "أن كل نشاط يجب أن يجري في سكون وصبر يحاكي سكون وصبر المرجان الذي يتكاثر بهدوء ودون ضوضاء في أكثر الأماكن هدوءًا وبعدًا عن الأنظار"[٩٣].

ويُعبر عن هذه الحقيقة بأسلوب مقارب جميل: فيقول: "وربما يستمر

---

[٩٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٦٥.

[٩١] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٣٣.

[٩٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

[٩٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٣٠.

المشي في السبات والتكلم في النوم، فيلزم أن نصبر ونحتمل سنين، علمها عند الله. نعم، سنصبر، لأننا نعي ونستشعر الحاجة إلى سنين قد تطول من الانتظار الحي في الأعماق المرجانية، ومن الحركة المؤثرة والمنظمة في حضانة البيوض، حتى يتعافى سائر البدن المتضعضع، ويستجمع قدرته ليقتدر على تصفية حسابه مع العصر"[٩٤].

وكمثال عملي على أمر أراد فعله كولن، لكن الظروف غير مواتية كما أخبره تلاميذه، ما أشار إليه عندما تحدث عن صفات وارثي الأرض، فعندما وصل إلى الوصف الثامن وهو الفكر الفني، اكتفى بالعنوان، ولم يتحدث عن المضمون، بسبب أن بعض الأوساط ليست على استعداد لتقبُّل ذلك بعد.[٩٥]

ومن المعلوم أن التخطيط لا يقضي على الأخطاء تمامًا، لكنه يقللها إلى حد كبير، ولا يسمح لها بالانزلاق إلى دائرة "الخطايا" وهي الأخطاء القاتلة، بمعنى أن الأخطاء ستظهر هنا وهناك، واكتشافها لا يمكن أن يتم ما لم يوجد النقد الذاتي، وهو الوسيلة الرابعة لتحقيق "فقه الائتلاف".

٤- تركيز طاقة النقد على الذات وإعذار الآخرين

العمل الناجح، سواء صغر أو كبر، يحتاج -لكي ينجح ويكون فاعلاً- إلى ثلاث مراحل رئيسة، الأولى: مرحلة التخطيط، والثانية: مرحلة التنفيذ، والثالثة: مرحلة التقويم والنقد الذاتي.

ولا يمكن أن يصل تيار الخدمة إلى الفاعلية التي صار عليها، ما لم

---

[٩٤] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٩٢.

[٩٥] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٥٠.

يكن قد سار في هذه المراحل الثلاث، بفضل الله ثم بحكمة المؤسس والموجّه كُولَن، ولهذا فإنه أولى التقويم والنقد الذاتي اهتمامًا بالغًا في مواضع كثيرة، وبأساليب وفيرة.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشُورَى:٣٠)، أوضح منهج القرآن في اتهام الذات، ومما قاله بهذا الصدد: "والحقيقة أن معرفة الإنسان بأن المصائب التي تصيبه هي نتيجة أعماله وما اقترفت يداه هي من أمر القرآن. وأي تفكير مخالف لهذا يسوق الإنسان إلى التفتيش عن متهم ومذنب خارجي. ومثل هذا الإنسان لن يجد مثل هذا المذنب، ولا يتخلص عن إثم سوء الظن، أجل! يعطينا القرآن مقياسًا في البحث عن المذنب: المذنب ليس شخصًا آخر، بل هو أنفسنا"[٩٦].

وأشار في ذات السياق إلى أن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس، هو أن آدم اتهم ذاته، بينما نسب إبليس الغواية إلى الله.[٩٧] وفي مقام آخر يقول: "والحقيقة أن أفضل طريق لجلب رحمة الله ومغفرته هو اعتراف الإنسان بتقصيره، وهذا هو طريق الأنبياء العظام عليهم السلام"[٩٨].

والنقد ضروري كي نعرف نواقصنا وطبائعنا، وحتى لا نُحرم من إمكانيات تعديلها،[٩٩] ولذلك كله فإن النقد من علامات الإنسان العاقل.[١٠٠]

وما يعرف بالنقد الذاتي في هذا العصر، هو ما يعرف في التراث

---

[٩٦] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٣٧.

[٩٧] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٣٢.

[٩٨] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٦٠.

[٩٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩٥.

[١٠٠] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٣.

الإسلامي بـ"المحاسبة"، وقد تحدث عنها كولن بأسلوبه العملي الأخّاذ، ومما قاله في هذا الشأن: "إن تقييم الفرد لوضعه الحالي وتهيأه للمستقبل، وتلافيه الأخطاء التي ارتكبها في الماضي وتطهره منها لدى الحق تعالى، واكتشافه لقيمته الحقيقية بتفقّده لنفسه في أمسه ويومه وغده، والأهم من هذا تجديد عالمه الداخلي باستمرار، من حيث علاقته بالله تعالى، لا يكون إلا بعد محاسبته لنفسه محاسبة دقيقة صارمة"[١٠١].

وبسبب أهمية العوامل الداخلية في النجاح أو الخسارة، وبسبب دور صلاح الذات في إصلاح الآخرين، وبسبب تأثير الفكر على الذات سلبًا أو إيجابًا، فقد أكثر كولن من الحديث عن العالَم الداخلي وضرورة الاهتمام به ومراقبته وتزكيته، والمزاوجة في إحيائه بين الفكر والشعور، أو بين العقل والقلب.[١٠٢]

وببلاغته الرائعة وتصويره "الكاريكاتوري" أكد على أهمّية العوامل الداخلية وضرورة مراقبتها ومحاسبتها، فقال: "وما من سبب يدعونا إلى البحث عن عدونا في الخارج؛ لأن عدونا في داخلنا.. جالسٌ في قصره، واضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، يتطلع من الشُّباك على ضَياعنا، ويضحك ضحكًا مكتومًا"[١٠٣].

وبهذا تنصرف طاقة النقد الموجودة في الإنسان إلى إصلاح ذاته: مراقبة ومحاسبة، تقييمًا وتقويمًا، فينشغل عن الآخرين: اتهامًا وقذفًا، سبًّا وشتمًا، تسفيهًا وتجريحًا، تفسيقًا وتبديعًا، ومن ثم يحنو عليهم، ويبحث

---

[١٠١] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ٣٩/١.

[١٠٢] انظر مثلاً: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن،ص:٢١٠.

[١٠٣] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٩٣.

لهم عن أعذار، وهذا مدعاة لتآلف القلوب وتراصّ الصفوف.

ولهذا فقد حث كولن على البحث للآخرين عن أعذار، وظل شعاره في هذا الشأن مقولته الذهبية الرائعة: "على الإنسان أن يتصرف تجاه أخطائه كمدّعي عام، وتجاه أخطاء الآخرين كمحامي دفّاع"[١٠٤].

ويؤكد مرة أخرى على عدم جواز إصدار الأحكام في حق المؤمنين، وعدم جواز سوء الظن بالمسلمين، وحث على اتباع القاعدة السابقة التي اعتبرناها ذهبية، ومنها البحث للمسلمين عن أعذار، كالمحامي الذي يبرئ موكله من التهم المنسوبة إليه، ويؤكد أن: "هذا كان تصرف وسلوك النبي ﷺ وسلوك الصحابة والتابعين من بعدهم، فلم يؤوِّلوا أحوال المؤمنين تأويلاً سيئًا، ولم يقوموا بتجريم أهل الصلاة وأهل القبلة استنادًا إلى بعض تصرفاتهم السيئة؛ بل يجب حسن الظن بهم والتأكيد على الجوانب الجيدة من تصرفاتهم وعلى حسناتهم. فمن دخل إلى حديقة أو بستان لم يلتفت إلى وجود بعض الأشواك فيها، بل يجب حصر نظره على الأزهار وعلى الثمار الموجودة فيها، وشعاره "خذ ما صفا، دع ما كدر"[١٠٥].

ويؤكد على ضرورة استخدام الميزان الذي نستخدمه في حق أنفسنا في تقييم الآخرين، فقال: "وما نأمله في حق أنفسنا من الخير نستطيع أن نأمله في حق جميع المؤمنين. فإن رأينا فيهم بعض الجوانب السلبية بحثنا عن أعذار لهم وقلنا من يدري فلعلّ الله تعالى لم يشأ إعطاء ثمرات عملهم هنا في الدنيا، بل ادّخرها لهم للآخرة. وهذا هو السبب في مظهرهم

---

[١٠٤] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤٣.

[١٠٥] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١٠، ٣١١.

الناقص والسلبي.. نقول هذا ونحسن الظن بهم"[١٠٦].

وسنختم هذه الفقرة بضرب مثلين عمليين بحث فيهما كولن للآخرين عن أعذار:

الأول: مرتبط بمن كانوا من أبناء الخدمة ثم انفضّوا عن الدعوة وأصبحت علاقتهم بها باردة، وقد سئل كولن عنهم، فأجاب إجابة مطولة، لكنها مغموسة بالحكمة، مليئة بالشفقة والرحمة والبحث عن الأعذار الممكنة.[١٠٧]

الآخر: مرتبط بالجيل المسلم الذي نشأ في أوضاع بعيدة عن الإسلام في بعض العقود في تركيا، ومارست المدارس عليه صورًا من التزييف الفكري، وأشكالاً من التغريب الثقافي، فقد سئل عنه، فذهب إلى اعتباره من "أهل الفترة"، لأن الدعوة لم تصلهم كما هي، بل اعتبر أن عدم عدهم كذلك إنما "يكون مناقضًا للرحمة الإلهية الواسعة والشاملة"[١٠٨]. وهذا يوصلنا إلى النقطة الأخيرة في هذا البحث وهي التلطف والرحمة والحب.

٥- التلطف والرحمة والحب

حركة فتح الله كولن إيمانية راقية، تجمع بين العلم الذي يوفر الدليل على ضرورة التعامل الأحسن مع الناس، وبين الإخلاص الذي يوفر الدافعية للاستمرار والصبر والتفاني والتضحية في هذا الطريق، مع ما يقتضيه ذلك من مواجهة الإساءة بالإحسان، والأخطاء بالصفح، والمقاطعة بالوصل، ابتغاء وجه الله ورغبة في نيل رضاه ورحمته وجنته.

لقد انطلق كولن من قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(الكهف:١٩) ليكون لهذا

---

[١٠٦] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١١.

[١٠٧] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٦٦-١٦٨.

[١٠٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٢٠.

التلطف تجليات إيجابية كثيرة على جوانب الدعوة والحركة، سواء من جهة التخفي والهمس، أو من جهة اتخاذ الوسائل اللطيفة والهادئة والمرنة وغير المستفزة للناس، وهذا واجب حتى في الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس.[١٠٩]

وأورد في مقام آخر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المَائِدَة:٥٤)، وتأمَّلَ فيها طويلاً ليؤصِّل لمنهج التلطف والرحمة والهوادة واللين، ومما قاله في تنزيله لهذه الآية على هذا العصر: "فإن المطلوب ليس إلا التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر لينًا وتواضعًا، أي أذلة على المؤمنين، لا يقابل الشتم منهم إلا بالسكوت، ولا يقابل عدوانهم إلا بالصبر، أي يضع رأسه تحت أقدام المؤمنين"[١١٠].

ويصف كولن رجل القرآن بأوصاف كثيرة، ومن ذلك أنه "يرى ويفكر ويتصرف بكليات قلبه كافة، وقيامه وقعوده رحمة، وقوله وكلامه وئام، وأحواله كلها رقة ولطافة"[١١١].

وظل يُعلِّم تلاميذه بأن الرحمة تذيب جليد الحقد، ويوصيهم بأن يتنفسوا محبة، ويحثهم على اللين والهوادة؛ حيث يقول على سبيل المثال:

---

[١٠٩] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٤٠، ١٤١.

[١١٠] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٤٨.

[١١١] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٩٩.

"الطبع اللين والكلمة الطيبة هما مفتاح القلوب"[١١٢]. ويقول: "عندما يتّحد العلم مع الخلُق الليّن يصل إلى أعماق كبيرة"[١١٣]. ولا يفتأ يستخدم أعذب الكلمات وأفضل الأساليب وأقوى المؤثرات اللفظية، من أجْل دفع تلاميذه وعامة المسلمين إلى التخلّق بخلق المسامحة في سائر الأحوال[١١٤] ولاسيما عند القدرة على انتزاع الحق أو الثأر والانتقام، حيث يقول: "اصفح عندما تكون قادرًا على العقاب، وبذلك يكون لصفحك قيمة"[١١٥].

ولا يكفي لصاحب الخدمة أن يصفح، بل لا بد أن يتجاوز هذا إلى التضحية، ولذلك شبَّه كولن رجل الخدمة بتشبيهات عديدة، منها أنه "كالجواد الأصيل الذي يعدو حتى يكاد أن ينشقّ صدره، أو كالنسر الذي أفرد جناحيه للطيران"[١١٦].

وذهب كولن إلى أبعد من ذلك، مُرتقيًا إلى القمة السامقة التي لا يستطيع الوصول إليها إلا القليل من الناس، من الذين راغموا أنفسهم، وزكوها بالعلم والإخلاص، ووفق محاسبات ومجاهدات طويلة، وهو الحب حيث نختم هذا المبحث بمسك من كلام فتح الله كولن في هذا السياق، إذ قال: "إن رجل الفكر بطلٌ للحب قبل كل شيء، فهو يحب الله حبًّا كحب مجنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشائج وثيقة تربطه مع الكائنات، فيحضن بشفقة كلَّ إنسان، وكل شيء.. ويضم إلى صدره

---

[١١٢] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤٩.

[١١٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٥١.

[١١٤] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤-٢٦.

[١١٥] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٢٤٥.

[١١٦] انظر: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٣٣٨، ٣٣٩.

إنسان الوطن بحب يبلغ حد العشق.. ويداعب ويشم الأطفال كبراعم للمستقبل.. وينفث في الشباب الاستحالة إلى إنسان مثالي، إذ يباريهم في بلوغ المقاصد السامية - ويشرف الشيب بأخلص التوقير والاحترام.. ويفتح سبيلاً للحوار مع الجميع.. ويتقارب بين شرائح المجتمع المختلفة بمد جسور مبتكرة فوق المهاوي السحيقة الفاصلة بينها، ويضطرم حرًّا من أجل الملائمة التامة بين الشرائح المتوافقة نسبيًّا"[١١٧].

وبسبب تلطف كولن وأبناء حركته، وحسن ظنهم بالناس، نجحوا في التغلغل في أعماق المجتمع التركي رغم الشتاء القارس الذي عاشته تركيا في العقود الماضية، واستطاعوا انتشال مئات الآلاف من الشباب، والعروج بهم إلى ذرى المعالي، كجزء من "استراتيجية" الحركة في الإصلاح التحتي، والانتقال بتركيا من الشتاء الأسود إلى الربيع الأخضر.

ولمعرفة كولن بطبيعة المجتمع التركي وعاطفيته، فقد بدأ دعوته من المساجد عبر سلاح الوعظ البنَّاء، الوعظ الذي استطاع بجناحي البلاغة والإخلاص أن يرتقي بأعداد هائلة من القاع إلى القمة. وعندما أصبح رقمًا صعبًا دخل المجتمع من أبواب متفرقة، منها المدارس والمعاهد والجامعات، ووسائل الإعلام الجماهيرية وجمعيات النفع العام، حيث نجح في الوصول إلى من لا يدخلون المساجد، مساعدًا لهم في الوصول إلى الله، مما آذن بانقشاع الليل وانبلاج الفجر الذي ظل حلمًا، لكن كولن يبدو أنه سيجعله بعون الله حقيقة.

وبهذه الوسائل التي أصبحت جزءًا من أسلحة تيار الخدمة في الجهاد

---

[١١٧] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٨، ١٢٩.

المدني والدعوة السلمية المعتمدة على القدوة الحسنة والدعوة العملية، وبجانب الأسس السابقة نجح فتح الله كولن بإيجاد ما يمكن تسميته بـ"فقه الائتلاف"، في زمن تفرق فيه المسلمون حتى صاروا مضرب المثل في ذلك.

فنسأل الله أن تجد هذه التجربة الدراسة التي تستحقها مع الاستفادة من حسناتها الكثيرة، ولاسيما في هذا المضمار.

ملحق
تركيا بعيون يمنية

- لا وقت للنوم في تركيا
- المشروع الحضاري للخدمة في "ورشة"

لا وقت للنوم في تركيا

تشهد تركيا حالة نهوض حضاري شامل، لتلحق بأول دولة إسلامية غادرت مربع الانحطاط والتخلف إلى التقدم الحضاري المنشود، وهي ماليزيا، غير أن نهضة تركيا ستكون آثارها عظيمة، لأنها أكبر من ماليزيا مساحة وسكانا، ولأنها أغنى في ثرواتها البشرية والطبيعية. ونظرًا لعبقرية الجغرافيا والتاريخ فإنها ستصبح عملاقًا خلال بضعة عقود.

تشهد تركيا نهضة اقتصادية كبرى في عصر الركود الاقتصادي العالمي، حيث تضاعف متوسط الدخل الفردي والقومي خلال فترة وجيزة، انعكست على التحسن الكبير الذي شهدته حياة المواطن التركي، وتحسن الخدمات التي تُقدم له في مجالات الصحة والتعليم والاستثمار، فضلاً عن ارتفاع منسوب الحريات والعدالة الاجتماعية واحترام حقوق الإنسان.

وانعكس ذلك كله على الدور الكبير الذي صارت تلعبه تركيا على المستويين الإقليمي والدولي، حيث صارت تلعب دورًا مميزًا وبالغ الأهمية، وتساهم بفاعلية في صناعة حاضر العالم ولا سيما في منطقتي وسط آسيا والشرق الأوسط.

ومن المعلوم أن الذي يصنع هذه التجربة العظيمة هم الإسلاميون، سواء كانوا أصحاب المشروع السياسي، أو أصحاب المشروع المدني الحضاري وعلى رأسهم تيار الخدمة الذي أسسه ويقوده المفكر والداعية والمربي

العظيم فتح الله كولن الذي حصل على المركز الأول على مستوى مفكري وعلماء العالم عام ٢٠٠٨ في استبيان أجرته مجلة "فورين بوليسي" الأمريكية.

١- الوتد أعظم من الجبل

من الحقائق المعلومة بالضرورة في علم الجيولوجيا أن المساحات المغمورة من الجبال وهي المسماة بـ"الأوتاد" أكبر من المساحة المنظورة من هذه الجبال، فإن نسبة تمدد أي جبل في عمق الأرض تساوي من ١٠ إلى ١٥ ضعفًا لارتفاع الجبل فوق سطح الأرض، وبهذه الأوتاد اكتسبت الجبال وظيفتها الواضحة في التسمية القرآنية لها بـ"الرواسي" التي تساهم في تثبيت الأرض بجانب الجاذبية!.

وفي تركيا فإن أكثر القراء العرب يحيطون علمًا بالمشروع السياسي للإسلاميين الأتراك، وهي المساحة المنظورة من هذا المشروع، أما الأوتاد فلا يعرف معظم هؤلاء أبجدياتها وهي الممثلة بمشروع تيار "الخدمة" التربوي الاجتماعي العظيم، ولذلك يمكن القول ابتداء بأن "الخدمة" لافتة متواضعة لتيار إسلامي مدني عريض يسجل حضورًا متعاظمًا في تركيا على المستويين الأفقي والرأسي، أو الكمّي والكيفي، من خلال مشاريع تربوية ومعرفية واجتماعية وصحية وإعلامية وثقافية عصية على الوصف، إلى درجة أنها أشبه بدولة داخل الدولة، لكنها بعيدة عن الأغراض السياسية تمامًا.

٢- الجسر المعلّق بين تركيا والوطن العربي

يمكن القول إن تركيا إحدى عجائب العالم، وإن أعجوبة تركيا هي إسطنبول، وإن الجسر المعلق الذي يربط الشطر الآسيوي بالشطر الأوربي من المدينة هو أعجوبة إسطنبول.

وكنتُ في مناسبة احتفائية بمجلة حراء التركية -أقيمت في مدينة عدن- بحضور رئيس تحريرها نوزاد صواش قد ذكرتُ بأن إسطنبول تمتلك جسرًا آخر أطول وأعظم لأنه يربط بين أهم قوميتين في العالم الإسلامي وهما: التركية والعربية، هذا الجسر هو مجلة "حراء" الثقافية الشاملة التي تصدر من إسطنبول باللغة العربية وتوزع حوالي أربعين ألف نسخة في الوطن العربي، ويساهم في الكتابة المتميزة فيها ثلة من كبار المفكّرين العرب والأتراك.

هذه المجلة وجهت لي عام ٢٠١٠ في شهر "مايو" دعوة لزيارة تركيا للتعرف على مشاريع الخدمة عن قرب، ووجهت لي عام ٢٠١١ "يوليو" دعوة كريمة أخرى للمشاركة في ورشة علمية ضخمة لدراسة أفكار فتح الله كولن عن كثب مع قرابة ثلاثين من المفكرين والباحثين العرب توزعوا بين المغرب والجزائر ومصر وتونس والأردن واليمن ولبنان والأردن والسعودية وأوربا، إضافة إلى العشرات من الأتراك الذين جاؤوا من داخل تركيا ومن مناطق أعمالهم في أوربا وأمريكا وآسيا الوسطى.

الجدير بالذكر أن مجلة "حراء" هي المجلة العربية الصادرة من الأكاديمية العلمية ومجموعة "قَيْنَق" التي تتبعها عشرات المجلات الثقافية والمتخصصة، وذلك بالعديد من اللغات العالمية، وهي جميعها مجرد لبنة في الجدار الثقافي لتيار الخدمة الذي يمتلك بنيانه العديد من الجدر الاجتماعية والاقتصادية والصحية والإعلامية والتعليمية، حيث يساهم هذا التيار بقوة في صناعة حاضر ومستقبل تركيا وكذا العالم الإسلامي، بل والعالم أجمع، حيث يقود -مثلاً- ألفي مدرسة تتوزع في حوالي مائة وستين دولة في الكرة الأرضية، إضافة إلى جامعات ومعاهد ومراكز

أبحاث ومؤسسات حوار ومنتديات وصحف وقنوات فضائية ودور نشر وشركات تجارية عديدة وبنوك ومستشفيات.

وكانت مجلة "حراء" قد عقدت عدة اجتماعات تعارفية وحوارية في مصر والجزائر والمغرب واليمن والأردن ولبنان والخليج العربي، لكن الورشة التي عقدتها في إسطنبول في الفترة من ٢٠ -٢٥ يوليو ٢٠١١ هي الأحدث والأضخم، مما جعل هذه المجلة جسرًا بالفعل ساهم في تعريف العرب بالأتراك والعكس، انطلاقًا نحو إعادة اللحمة بإقامة زيارات متبادلة ومشاريع مشتركة.

٣- الليل سبع ساعات

في الصيف يصلي سكان تركيا المغرب في التاسعة مساء، ويصلون العشاء في الحادية عشرة مساء ويؤذن للفجر في الرابعة صباحًا، أي أن الفرق بين العشاء والفجر هو خمس ساعات فقط، وجملة ساعات الليل لا تتعدى السبع ساعات، وهذا يعني أن ساعات النهار طويلة، حيث تناهز السبع عشرة ساعة.

ماذا يفعل الناس بكل هذه الساعات في النهار؟ وكم ينامون في الليل؟

من يتتبع تركيا عن كثب يلاحظ أنها أصبحت في السنوات الأخيرة ورشة كبرى، فبعد أن كانت تستورد كل شيء صارت تصدر كل شيء، حتى أن صادراتها تضاعفت مرات عديدة خلال العقد الأخير، ويكفي أن نعرف أن الليرة التركية وفرت بضعة أصفار، فقد كان الدولار بمئات الآلاف من الليرات، أما اليوم فإن الدولار يساوي ليرة ونصف.

يبدأ الدوام الرسمي في الدوائر الحكومية في الثامنة صباحًا وينتهي في الخامسة مساء، أما في مؤسسات الخدمة فيبدأ رسميًا في السابعة

صباحًا وينتهي في السادسة مساء، أي أن مؤسسات الخدمة تتفوق على مثيلاتها بساعتين، أما أفرادها فإنهم يتسابقون على الإنجاز والإنتاج، وقد رأينا حجم الإنجاز المبهر الذي قام به هؤلاء المجاهدون في ساحات العمل والإنتاج وفي ميادين التعليم والتربية والتغيير، فكثير من هؤلاء لا يرون أهاليهم إلا لِمامًا، وقد قابلتُ أحد العاملين في الخدمة فذكر بأنه كان يعمل في "قيرغيزستان" لمدة أربعة عشر عامًا، فاستدعاه إخوانه في إسطنبول للمجيء إليهم فظن أنهم يريدون إراحته من عناء العمل بعد كل الجهود التي قام بها في ذلك البلد، وأنهم لذلك ربما أحالوه للتقاعد، لكنه فوجئ بأنهم أوكلوا إليه عملاً يحتاج إلى عشرة أضعاف الجهد الذي كان يقوم به في قرغيزستان، ولذلك فإنه لا يتذكر بأنه عاد إلى منزله قبل الثانية عشرة مساء، وهناك من ينامون في مكاتبهم لسويعات قليلة.

وهكذا يواصل رجال الخدمة الليل بالنهار في عمل حثيث في شتى المجالات لخدمة بلدهم وأهاليهم وأمّتهم.

إنهم أصحاب الهمة الذين حققوا قفزات عالية، إنهم طلائع "الجيل الذهبي" الذي ربّاه كُولَن وبشّر به، إنهم يسابقون الزمن، يُسرجون القناديل ويُشعلون الشموع من أجل تقريب الفجر، يستخدمون معاول هدمهم ضد صروح الليل البهيم من خلال الأمر بالمعروف أكثر من النهي عن المنكر، بإيجاد البدائل في كل الساحات والميادين الحياتية.

٤- تيار "مدني" يعيش الفترة "المكية"

الخدمة هو تيار مدني حضاري، لكنه من حيث العزائم يعيش أحكام الفترة المكية، فالزكاة مثلاً المعلومة هي في عرفهم إنفاق البخلاء، فقد

قابلنا مجموعة من التجار وأخبرونا أن أستاذهم كولن علّمهم أن الزكاة المعلومة في مثل هذه الظروف هي عمل البخلاء، وأن الأمر يحتاج إلى تطبيق أحكام الفترة المكّية، ومن ذلك الإنفاق بلا حدود، والتحرك بدون حدود، والتضحية بدون حدود.

إن التسابق بين هؤلاء على استنقاذ الفجر من بين براثن الليل يجعلنا نقول بثقة بأن الأتراك قادمون، فإن الفارق بين زيارتي السابقة واللاحقة لإسطنبول لا يزيد عن سنة وشهرين، لكن الفارق على الأرض كان كبيرًا، كأنني غبتُ سنوات، وهذا واضح في كل زوايا مدينة إسطنبول التي صارت متحفًا مفتوحًا وبستانًا كبيرًا، رغم أنها تضم بين أحضانها أقل بقليل من الشعب اليمني كله (١٧ مليون نسمة) إضافة إلى الأرقام الكبيرة التي أنجزها الاقتصاد التركي على مستوى العالم حتى صار الاقتصاد الرابع عشر عالميًا.

أما بالنسبة لأصحاب الخدمة الذين استضافونا، فقد كانوا يتحدثون عن ألف مدرسة في ١٤٠ بلدًا في العالم، صارت هذا العام (٢٠١١) ألفين في ١٦٠ بلدًا في الأرض، وكانت القنوات الفضائية سبعا وصارت الآن عشر قنوات، وكانت الجامعات ثمانيا وصارت الآن إحدى عشرة جامعة، وصحيفة "زمان" كانت تطبع حوالي ٩٠٠ ألف نسخة زادت هذا العام عن المليون. وهكذا فإن الأرقام تتوالى، والأعمال تتبارك، والمؤسسات تتناسخ، والخطط تزداد طموحًا.

إنهم يطمحون لبناء خمسين جامعة، ويطمحون إلى التأليف والترجمة والطباعة بمائة لغة في العالم، ويطمحون أن يكون لهم سينما عالمية، وأن تكون لهم جائزة بحجم جائزة "نوبل" بعد خمسين سنة، وهناك طموحات

كثيرة وعالية.

إنهم أولاد الشيخ فتح الله كولن الذي لم يتزوج، لكن الله وهبه كل هؤلاء الأولاد الذين يسابقون الريح ويطوون الزمن في مواجهة الليل، إنهم أعادوا للمسلمين عامة والأتراك خاصة ثقتهم بنفسهم وبدينهم وثقافتهم، إنهم يساعدون المسلمين على الانغراس في قلب العصر، ناقلين إياهم من الهوامش إلى المتن.

هؤلاء هم أبناء "فتح الله" وأحفاد محمد "الفاتح" الذين يقودون اليوم عملية ضخمة لـ"فتح" العقول والقلوب.

٥- تبييض وجه تركيا

أبناء فتح الله اليوم أزالوا السواد الكالح عن وجه تركيا، وأعادوا له بياضه وتألقه.

أصبح الظلام محصورًا ومحاصرًا، كل يوم تتسع مساحات النهار، وتزداد قناديل الفجر، مبشرة بنهار حضاري إنساني شديد الألق.

إن مؤسسات الخدمة هي الأولى في تركيا، فهم يمتلكون عددًا من المؤسسات التي تحتل المراكز الأولى في تركيا وبعضها على مستوى الشرق الأوسط برمته.

وصحيفتهم "زمان" هي الأولى على مستوى تركيا ويريدونها الأولى على مستوى العالم الإسلامي، ومطابعهم هي الأكبر. ووكالة "جِهَان" للأنباء هي الأولى، ودار نشر "زَنْبَق" هو أكبر دار نشر للكتاب المدرسي في تركيا، واتحاد "تُوسْكُون" لرجال الأعمال والصناعة هو الأول والأكبر في تركيا.

أما المدارس والجامعات فهي أساس كل هذا التفوق، وهذه بعض

الأرقام التي تجسد تفوقها في إيجاد الإنسان الجديد، الإنسان المتفوق في عبادة الخالق وخدمة الخلق:

• توجد في تركيا ٣٣ ألف مدرسة أساسية حكومية وأهلية وتقوم الحكومة بعمل ترتيب لكل هذه المدارس وفق معايير موضوعية دقيقة، فحصلت ٣٨ مدرسة من مدارس الخدمة على مراكز متقدمة ضمن المائة المدرسة الأولى، ولم تخرج بقية مدارس الخدمة عن الألف الأولى في الترتيب بين سائر مدارس الدولة.

• توجد ٩ ألف مدرسة ثانوية حكومية وأهليه في تركيا، دخلت خمس وعشرون مدرسة من مدارس الخدمة ضمن المائة الأولى.

• وزعت الحكومة اثنتين وستين ميدالية على المدارس المتفوقة، حصلت مدارس الخدمة على ست وأربعين ميدالية منها.

• تقيم الحكومة "أولمبيادا" سنويا للمتفوقين، ويأتي ثلثا المتفوقين في هذا الأولمبياد من مدارس الخدمة، ولهذا يتنافس الأهالي على هذه المدارس، ولاسيما أن معظم من يمثلون تركيا في المسابقات الدولية ينتمون إليها، وقد حصلوا على كؤوس وميداليات كثيرة شاهدْتُها بأمّ عيني عندما زرتُ ثلاثًا من هذه المدارس، وعلى رأسها مدارس "الفاتح"، وقد حصلت على شهادات تقدير من كل رؤساء تركيا المتأخرين.

• تدخل جامعة الفاتح التابعة للخدمة ضمن أول عشر جامعات من بين ١٤٠ جامعة حكومية وأهلية في تركيا.

ورغم أن هذه المدارس تلتزم بمنهج الحكومات الرسمية في كل بلد، إلا أن ما يميزها هو الأستاذ، ويفخر قادتها بأن الضمير المستتر في مدارسهم هو التعليم إلى جانب التربية القيمية السلوكية.

ويؤكد نوزاد صواش رئيس تحرير مجلة حراء أن العمل التربوي الناجح في مدارس الخدمة ليس فيه أسرار بل أسباب.

وأعتقد أن أهم سبب بعد الإخلاص أنهم اتجهوا لتعليم روح القرآن وليس لتحفيظ القرآن الذي يعمد إليه كثير من العرب على حساب التدبر والتعلم للأسف.

ويكفي أن نعرف أن في باكستان حوالي سبعة مليون حافظ للقرآن الكريم، لكنهم لم يساعدوا على الرفع بمستوى باكستان، هذا إن لم يكن بعضهم من أسباب ضِعة باكستان بسبب سوء الفهم الذي قد يحيلهم إلى قنابل موقوتة، حيث تنفجر في الزمان والمكان الخاطئين!!

هذا وحده كان علة إحدى أكثر فرق المسلمين إخلاصًا، وهي فرقة الخوارج التي ملأت مساجد المسلمين عبادة وبكاء، لكنها أبكت المسلمين، فأراقت الدماء، وانتهكت الأعراض، واستباحت الأموال، وخرّبت الديار، وهي تظن أنها تُحسن صنعًا، بسبب البوصلة الخاطئة الناتجة عن حفظ القرآن دون تدبره وتعلمه، ولذلك قال ﷺ عنهم -كما يؤكد سائر العلماء الكبار-: "يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم" وقال "تراقيهم" أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

٦-أكبر متحف في العالم

أعتقد أن إسطنبول هي أكبر متحف في العالم، فهي المدينة الوحيدة في الكرة الأرضية التي تقع في قارتين، حيث يرتبط الشطران الآسيوي والأوربي عبر جسرين معلقين في الهواء، وتغرق قصورها ومنازلها ومساجدها وقلاعها وسط غابات من الشجر المنسق الجميل الذي يغرق

بدوره وسط غابات من الأزهار الملونة والجميلة.

وتمتاز المدينة -ولا سيما الشطر الأوربي منها- بأن عبق التاريخ يعطر أجواءها، ففي كل حارة من حواريها -التي تضم سبعة عشر مليون إنسان بين جنباتها- يوجد ما يدل على أن أممًا مرت من هنا، حيث أن أجيالاً تركت بصماتها هناك بقوة، وقد ذكر لي "أن تركيا ممرّ الأقدار والأقوام". ويبدو لي أن هذه المقولة تتجسد في إسطنبول أكثر من غيرها، ولذلك صارت محل حب واحتفاء بل وعشق أغلب الأتراك، حتى أن أديبًا تركيًّا كبيرًا أعلن عشقه لها، فأراد محاوره أن ينتزع منه إعجابًا ولو بسيطًا بأي شي في العاصمة أنقرة حتى تتوازن الصورة قليلاً مع إسطنبول، فسأله: "ما الذي يعجبك في أنقرة؟" قال ذلك الأديب: "الشارع الذي يؤدّي إلى إسطنبول".

وبالتأكيد أن هذا الأديب محق، فإن الله جمع لهذه المدينة من مقومات الجمال والإبهار ما يتكفل باعتبارها متحفًا كبيرًا، لأنها جمعت بين جمال الطبيعة وعبقرية الجغرافيا حيث يفصل البسفور بين آسيا وأوربا، إضافة إلى الآثار التاريخية، أما المساجد فهي ما زادتها جمالاً وإجلالاً، فكيف إذا عرفنا أن فيها ما يزيد عن أربعة آلاف مسجد، وكلها بذات الطراز المعماري العثماني الأخاذ، بمآذنه البيضاء السامقة في عنان السماء، ولو حسبنا في الحد الأدنى أن لكل مسجد مئذنتين، فإن عدد مآذن إسطنبول الجميلة يكون ثمانية آلاف مئذنة!! ولكل مسجد في إسطنبول حكاية، وكل مسجد تحفة بحد ذاته، ويدير هذه المساجد خرّيجو كليات الإلهيات، ويراعي المؤذّنون المقامات في أذانهم، حيث يختارون لكل وقت المقام المناسب، ففي صلاة الفجر مثلاً يستخدم المؤذنون مقام الصبا الحزين..

أما عن النظافة والهدوء في هذه المساجد فتخيّل ولا حرج، حيث

ينعكس الوعي الشعبي على كل شيء في هذه المساجد بما في ذلك عدم مقارفة البدع عند قبور الأولياء، فقد زرتُ مقام أبي أيوب الأنصاري مثلاً ولم أر شيئًا من البدع التي تُقترف عند قبور الأولياء في بلداننا العربية، كما يحدث عند قبر الحسين أو السيدة زينب في مدينة القاهرة على سبيل التمثيل. وزاد الإسلاميون هذه المدينة بهاءً؛ بخدماتهم التي طرّزوا بها هذه المدينة: مدارس وجامعات ومستشفيات ومؤسسات مختلفة.

وتسبب إسطنبول الصدمة الحضارية لزائرها العربي ولاسيما اليمني، لكن الله هيأ لنا نحن اليمنيين أمرًا يحفظ لنا شيئًا من التوازن، وهو الحضور البهيج لشخصيتين يمنيتين في العقل التركي، الأولى: هي شخصية الصحابي الجليل أبو أيّوب الأنصاري الذي حاول فتحها في خلافة عثمان بن عفان ﷺ ومات وقُبر عند أسوارها، وقبره الآن ومسجده يقعان في قلب المدينة، ويوجد واحد من أضخم أحياء المدينة باسمه رضي الله عنه، وقد زرتُ قبره ومسجده، فشعرت برأسي يرتفع لأول مرة منذ دخولي تركيا.

الشخصية الثانية: هي للتابعي اليمني "أويس القرني" الذي يحبه الأتراك بشكل عجيب، لأن الرسول ﷺ أوصى الصحابة الذين سيدركونه بأن يطلبوا منه الدعاء لهم، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ عندما قابله.

كنتُ في مطلع المقالة قد ذكرتُ بأني في المرة الأخيرة دُعيت لحضور ورشة علمية من قبل مجلة حراء، ولأهمية ما دار في هذه الورشة وللقيمة العلمية البالغة لأوراقها ومداخلاتها، فسأخصص لها بإذن الله مقالتي القادمة، فهي مليئة بالدروس والخبرات والعبر التي نحن أحوج الناس إليها.

المشروع الحضاري للخدمة في "ورشة"

في المقال السابق عرجنا على بعض المشاهدات والانطباعات التي سجلتُها في زيارتي لإسطنبول، ولاسيما التي لاحظتها بين زيارتي العام الماضي وزيارتي لها هذا العام (٢٠١١).

في زيارتي هذا العام لإسطنبول، قام الإخوان الذين استضافونا بالتعريج بنا في جولات مكّوكية على بعض مشاريع الخدمة وبعض معالم إسطنبول، ومنها: مسجد وقبر أبي أيوب الأنصاري ﷺ، بَانوراما فتح إسطنبول، مسجد السلطان أحمد، ومتحف أياصوفيا.

وتلا ذلك ست أيام من الدهشة العلمية وسط حشد من الأوراق البحثية لدراسة تجربة الخدمة على المستوى النظري والعملي، من قبل عدد كبير من كبار المفكرين والباحثين العرب والأتراك، وأبناء الخدمة في تركيا والعالم.

لقد كانت الحصيلة كنزًا معرفيًّا ضخمًا ومعينًا لا ينضب من التجارب والخبرات، مما أشعر الجميع بالاستغراب أن يكون بيننا تجربة إقلاع حضاري بهذه الضخامة ثم لا نعرف عنها نحن مثقفي العرب إلا النزر اليسير، وغالبيتنا لم يسمعوا إطلاقًا عن هذه التجربة.

١- قطرات من أمطار الخدمة

ولأهمية ما دار في هذه الجلسات التي استمرت لستة أيام متوالية، بما يقارب العشر ساعات كل يوم، فسأحاول في هذه العجالة تسليط الضوء عليها، بحيث نقطف من كل بستان زهرة، ونقدم ولو قطرات بسيطة للقارئ الكريم من هذه البحيرة الكبرى، لعل عاطشًا يروي بها ظمأه، أو

تدله على المصدر ليغترف بنفسه حتى يرتوي.

خُصص اليوم الأول بجلساته الأربع وأوراقه الثمان ومداخلاته ومناقشاته لاستعراض "قراءات عربية وغربية للتجربة، أهم القضايا والتساؤلات، البحث عن إجابات" وهذا يعكس لهفة أبناء الخدمة لمعرفة صدى أعمالهم عند الآخرين، حيث قدموا هذا المحور على التعريف "بكُولَن الشخصية والرؤية" والذي لم يتم إلا في اليوم الثاني.

بدأت الجلسة الأولى بآيات من الذكر الحكيم بصوت عذب لقارئ تركي قدير، ثم بكلمة ترحيبية من قبل الأستاذ مصطفى أوزجان الذي يشرف على عدة مؤسسات مدنية في مقدمتها جامعة الفاتح ومستشفى "سَما"، وهما من المؤسسات النموذجية.

ولما كانت السنابل الممتلئة دائمة الانحناء، فقد كان في قمة التواضع وهو يخاطبنا نحن العرب كأبناء للصحابة وعلماء للإسلام، طالبًا منا التوجيه والمشورة والنقد والنصيحة، وهذه من أبرز علامات الكائنات الحية والمتطورة، وقد كان هذا الأمر ديدن كل المتحدثين الأتراك.

ركز أ. مصطفى على إبراز توجه الأستاذ كُولَن في إعادة قراءة الإيمان، والبدء بترجمته في مؤسسات عبر ما يمكن تسميته بـ"مأسسة الإيمان"، انطلاقًا من "معقولية القرآن" التي نادى بها قبل كولن بديع الزمان النورسي (ت/١٩٦٠م)، بحكم أن القرآن هو الحقيقة الأبدية الوحيدة، وذلك بإيجاد الجيل القرآني المعاصر الذي رأى كولن أن النجاح في إيجاده يعني أن المسلمين سيغيرون العالم إلى الأفضل من جديد.

واختتم مصطفى أوزجان كلمته الرائعة بدعوة المفكرين العرب إلى مساعدتهم في بلورة فكر عقلاني مشتق من القرآن والسنة.

كان مدير الجلسة وصاحب إحدى الورقتين فيها هو المفكر المصري المعروف د. إبراهيم البيومي غانم الذي أكد أننا جميعًا جئنا للمذاكرات وليس للمحاضرات، وللمدارسة وليس للدرس، وكان وهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة حاضرًا مع ثلة من أعلام العلوم السياسية بهذه الجامعة أبرزهم امرأتان: الأولى: د. نادية مصطفى رئيسة القسم، والباحثة النابهة د. باكينام الشرقاوي، إضافة إلى ثناء البنا وهي حفيدة الإمام الشهيد حسن البنا والتي كانت تتنقل بين اللغات العربية والإنجليزية والتركية كالفراشة.

يبدو أن استعراض جميع الجلسات والأوراق والتعليقات سيحتاج إلى كتاب لو خضنا في التفاصيل، ولذلك سنستعرض بسرعة أهم ما بدا لكاتب هذه السطور أنه أهم.

ذهب المفكر المغربي د. سمير بودينار إلى أن مشروع الخدمة كما في فكر كولن وممارسات تلاميذه يتميز بثلاث خصائص، الأولى: الإيمان، الثانية: العصر فهو ميزة لا عقبة، ولذلك سيكون القرن الحادي والعشرون قرن الإسلام. والثالثة: خاصية الإنسان، وهو الإنسان الجديد الذي تعمل كل مؤسسات الخدمة متضافرة على إيجاده بالفعل وليس بالشعارات.

وبعد استعراض د. إبراهيم غانم لبعض رؤى كولن ذات الصلة بالإسلام والعصر والإنسان وفكرة المستقبل دلف إلى أن "النص" إذا استجمع كل شروط الخطاب الناجح فإنه يصبح "نصرًا"، وهذا ما يحدث في واقع تيار الخدمة الآن.

ولفت المفكر المغربي د. محمد جكيب إلى أن العرب يعيشون الآن صدمة اكتشاف المشروع الحضاري التركي، كما فعلوا بالأمس مع أوربا

والغرب، حيث كانوا يطرحون سؤال: "لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟" في ضوء الثقافة الغربية، أما اليوم فيطرحونه في ضوء الواقع التركي. ومع ذلك فإن القراءة الانطباعية لمشروع كولن من قبل العرب ماتزال هي الحاضرة برأيه، في مقابل اختفاء القراءة العلمية وإثارة الأسئلة.

وأكدت د. نادية مصطفى في ورقتها أنها تلقت صدمة الاكتشاف لتيار الخدمة بالتدريج طيلة ست سنوات، وذكرت أن حالة الثورات العربية تستدعي أكثر التعرف على حركة كولن والتجربة التركية عامة رغم كونها حركة إصلاحية، حيث أكدت التجربتان التونسية والمصرية في الثورة أن التغيير السياسي وحده لا يكفي، وأن التغيير الحضاري ضروري، وهذا ما تذهب إليه حركة كولن.

وشارك الأستاذ السابق بجامعة أكسفورد البريطانية د. إحسان يلماز بورقة أبرز فيها دور تيار الخدمة في أوربا وكيف أنه منح الأتراك الثقة بذاتهم وبثقافتهم، ووفر لهم الرؤى الكلية ودفعهم للالتحام بالسنن، في سياق إعمار الأرض وتحويلها إلى جنة وارفة الظلال وفق المثال الذي يسعون للوصول إليه في الآخرة.

ومن خلال عودة د. باكينام الشرقاوي إلى مئات الأدبيات الغربية لمعرفة رؤية الغرب لكولن ومشاريع الخدمة، قدمت صورة متكاملة لهذا التيار في العقل الغربي المتراوحة بين الإعجاب الشديد والخوف القوي من أن يكون هذا التيار امتدادًا للدولة العثمانية التي غزت أوربا طيلة بضعة قرون. وقدمت في هذا السياق بعض الملاحظات النقدية لتيار الخدمة، والتي أتمنى أن يحتفي بها أبناء التيار أكثر من احتفائهم بالإطراء وإن كان مستحقًّا.

٢- كولن.. مغناطيس الخدمة في تركيا

بدأ اليوم الثاني بترحيب نوزاد صواش كعادة الأتراك في الترحيب الشديد والكرم البالغ، ولأن جلسات اليوم كانت للتعريف بمؤسس التيار كشخصية وكرؤية، فقد بدأ الأمر بعرض فيديو لبعض خطب كولن، حيث بدا كثير البكاء والإبكاء إذ كانت الأصوات ترتفع بالعويل إلى حد النحيب في أحد مساجد "إِزْمِير" وهو يخطب عن غربة القرآن سنة ١٩٩٠م، حيث أجاد كولن في استجاشة العواطف واستثارة المشاعر ثم أجاد طرْقها قبل أن تبرد بمطرقة العقل وتشكيلها بالأنشطة والمشاريع والأعمال، ولاسيما وسط أصحاب الأموال الذين لهم شأن كبير في هذا التيار الكبير وأنشطته العريضة.

ويبدو من استعراض محطات كولن ومشاريع الخدمة أن أبناء هذا التيار يولون الرئيس التركي "تُورْكُوتْ أُوزَال" احترامًا وتقديرًا كبيرين، فقد بدأ التيار بالتعملق بالفعل في عهده، بتبنّيه لعدد من المشاريع الكبرى في مختلف المجالات التي خاضت الخدمة غمارها.

وفي ورقة المفكر التركي أنس أَرْكَنَه -وهو أحد المتخصصين في فكرة الخدمة- أوضح أن كولن لا يشتغل بالسياسة لأنه صاحب مشروع مدني حضاري يحتاج إلى البعد عن السياسة، لكنه لا يناهض السياسة ولا يعادي أصحاب العمل السياسي. وأبرز بشكل طريف كيف أفسد كولن على الشباب لهوهم وعبثهم، وحوَّلهم إلى نسخ جادة، بحيث شاخوا قبل الأوان، حتى أن والده -والد أنس- كان يقول له: لماذا أنت يا بني كالكلب المحروق تنتقل من شارع إلى شارع؟!

وكانت الجلسة الثالثة في اليوم الثاني تحت إدارة كاتب هذه السطور، وقدمتُ فيها ورقتان: الأولى للمفكر الجزائري د. محمد بابا عمي عقد

فيها مقارنة بين كولن ومالك بن نبي، ركز فيها على اختلاف الظروف الموضوعية، وداعيًا إلى استخراج الحِكَم لا إطلاق الأحكام.

أما الورقة الأخرى فقد كانت للمفكر والأكاديمي التركي كُوكْهَان بَاجِيك حول قراءة كولن لبعض المفاهيم والمصطلحات المعاصرة. وأفضى إلى تأكيد تجديد هذا المفكر الداعية، مع بحثه عن المشترك الإنساني والمؤتلف الإسلامي، وحث على ضرورة إيجاد قاموس لمصطلحاته وهي الدعوة التي كان قد أطلقها د. بابا عمي وصارت إحدى أهم توصيات هذه الورشة التي فاقت الكثير من المؤتمرات.

وفي ورقة المفكر الجزائري د. عمّار جَيدل أوضح أن أدبيات كولن تمتلئ بمصادر البحث الحضاري، ومن ذلك الأخذ بالأسباب، وأكد أن الذي يريد تحقيق شيء بدون الأخذ بالأسباب إنما يُخصِّب الأوهام!

أما المفكر الأردني د. سليمان الدقور فقد قدم قراءة رائعة لمقالة "رسالة الإحياء" الواردة في كتاب كُولَن "ونحن نبني حضارتنا" كما فعلت من قبل الدكتورة المغربية فريدة زمرُّد مع مقالتَي: "الحركية والفكر" و"نحن نقيم صرح الروح" الواردتين في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح".

وأكد د. الدقور أهمّية الإدراك للحراك، رافضًا الحراك بدون إدراك، أو الإدراك بدون حراك، واستنبط من فكر كولن الأمور المطلوبة في التغيير.

٣- صُنَّاع الروائع العملية

في إطار نفس الورشة كانت لنا جلسات مع عدد من رموز الخدمة في عدد من المجالات، ومنها المجال الإعلامي والاقتصادي والخيري والتعليمي، وقد أدهشنا جميعهم بالأرقام والحقائق التي ترفع الآمال

بمستقبل مشرق لهذه الأمة، وإن كانت تسوق قدرًا من الإحباط عند المقارنة بما هو قائم في بلداننا العربية، ولاسيما في يمننا التي تقبع في أحد المراكز الثلاثة الأخيرة في معظم المفردات المرتبطة بالتنمية البشرية والاجتماعية.

في الجانب الإعلامي، قدم عبد الحميد بِيليجِي (رئيس وكالة جهان للأنباء) ورقة عن الممارسة الإعلامية من خلال مجموعة زمان الصحفية ووكالة جهان للأنباء التي صارت الأولى في تركيا، أما صحيفة "زمان" فيباع منها يوميًّا ما يزيد عن مليون نسخة في تركيا وخارجها، حيث تُطبع في نفس الوقت بعدد من اللغات في ١٥ مدينة في تركيا وآسيا وأوربا وأمريكا، وبطاقم يزيد عن سبعمائة موظف محترف، لتحتل المركز الأول في تركيا بدون منافس، إذ أن الصحيفة الثانية لا تطبع سوى نصف هذا العدد.

وكنا قبل ذلك قد زرنا مقرّ هذه الجريدة في مبناها الذكي الذي يتفوق في نمط معماره وفي التكنولوجيا المتقدمة في تصميمه وتوفير الخدمات له المرتبطة بالإضاءة والتهوية والأمن والشفافية وسائر الخدمات الأخرى. ويتكوّن المبنى من سبعة طوابق ضخمة في قلب إسطنبول ودورين أرضيين، وتقدم الصحيفة أرقى الخدمات التي تقدمها أعرق صحف العالم.

وقدم "رضوان كِيزِيل تَبَه" فكرة عن شبكات تليفزيون "سَمَانْيُولُو" وتعني بالتركية "درب التبانة" -وهو نائب المدير العام للشبكة- وتتكون من عشر قنوات فضائية بعدد من اللغات في تركيا وأوربا وآسيا وأمريكا، وقد بدؤوا منتصف هذا العام بارتياد إفريقيا عبر افتتاح قناة فضائية في العاصمة الكينية نيروبي.

وقد بُشِّرنا بأن العمل جار لإنشاء قناة عربية تابعة للمجموعة، وأن أهم

عائق إنما هو ضعف الأرشيف العربي في الظرف الراهن والذي يتسق مع فكر الخدمة، بحيث لا يكون تقليديًّا وعظيًّا كما في القنوات الدينية العربية ولا يكون إباحيًّا تغريبيًّا كما في سائر القنوات الأخرى الحكومية والتجارية.

وقدم فِكْرَت ياشار (رئيس قسم النشر الأجنبي في مجموعة قَايْنَاق) ورقة عن مجموعة حراء وأخواتها من المجلات الثقافية، وكيف بدأ الأمر سنة ١٩٧٩ بمجلة "سِيزِنْتِي"، وتطوّر إلى إنتاج وبيع أشرطة وعظ كولن، ثم متاجر لتوزيع الأشرطة والكتب في كل أنحاء تركيا. ووصل إلى إيجاد شركات متخصصة في النشر والتوزيع والتسويق، وفي طباعة الكتب المتخصصة، ومنها الكتب الدراسية، حيث صارت مطابع الخدمة تستأثر بطباعة ٧٠-٨٠ ٪ من الكتب الدراسية في كل تركيا عبر عدة دور أهمها دار "زَنْبَق" وهو أكبر دار بهذا الشأن في تركيا.

وهناك عشرون دار نشر للكتاب في كل المجالات، إضافة إلى عشرات المجلات بلغات عدة، أهمها مجلة "سِيزِنْتِي" بالتركية وتطبع: ٨٠٠ ألف نسخة وهي الأولى في تركيا، ثم الأمل الجديد: ١٠٠ ألف نسخة، ومجلة للأطفال هي الأولى في تركيا أيضًا بـ٥٠ ألف نسخة، ومجلة حراء بالعربية: ٤٠ ألف نسخة، ومجلة باللغة الروسية: ١٠ ألف نسخة، وأخرى بالألمانية: ٧٥٠٠ نسخة، والعمل جار لإصدار مجلات بالفرنسية والبرتغالية والإسبانية.

أما الكتب فقد صدرت ملايين النسخ بـ ٤٢ لغة، والأستاذ كولن يحثهم على النشر بمائة لغة، وفي كل لغة صدرت عدد كبير من الكتب، كالإسبانية التي صدر بها أكثر من ٥٠ كتابًا حتى الآن.

٤- دهشة بلا حدود

وكانت هناك أوراق مدهشة أخرى حول: التوجيه الروحي الرسالي في مشاريع الخدمة فكرًا وممارسة التي قدمها د. فاتح، وثانية عن التمويل الذاتي، العمل الخيري، العمل التطوعي للأستاذ إبراهيم.

وقدم الأستاذ نظام الدين (وهو خبير التعليم في آسيا الوسطى) ورقة عن التعليم هناك وكذلك فعل الأستاذ علي عن التعليم خارج تركيا فكرًا وواقعًا، امتلأت الورقتان بالأرقام المدهشة والمعلومات الغزيرة والحقائق المثيرة، لأن رسالة التعليم هي الأصل في تيار الخدمة، ويكفي أن نعرف أن هذا التيار يدير حوالي ألفي مدرسة وعددًا من الجامعات في مختلف أصقاع العالم (١٦٠ دولة).

وفعل الأستاذ نعمان مثل ذلك في ورقته اليوم الرابع عن التعليم داخل تركيا فكرًا وممارسة، حيث أسر القلوب والعقول، ولاسيما أن الحاضرين جميعًا سبق لهم أن زاروا بعض المدارس والجامعات، في اكتشاف للممارسة قبل قراءة الفكر والتنظير، فكانت الحقائق أبلغ من الكلمات حتى أنني رأيت في مدارس أساسية من المعامل والملاعب ما لم أجد قريبًا منه في جامعاتنا فضلاً عن مدارسنا، لدرجة أنني سخرتُ من نفس عندما حدثتها بأن أطلب عمل اتفاقية موائمة بين جامعة تعز -التي أنتمي إليها- وبين روضة أو مدرسة أساسية من مدارس تيار الخدمة!!

أما الجامعات فهي فوق الوصف، وقد زرتُ جامعة الفاتح مرّتين ورأيت فيها العجب العجاب، حتى أن فيها أكثر من اثنين وسبعين مختبرًا علميًّا مجهزة بأحدث الوسائل والتقنيات والأجهزة.

وأصدق قارئي العزيز أنني عندما قارنت بين التعليم -خصوصًا- في

تركيا وفي بلدنا، هجمت عليَّ موجة من الإحباط كادت أن تصبح يأسًا لولا مقاومتي لها بتذكر أن اليأس محرم، وبمعرفة أن تركيا قبل ثلاثة عقود كانت شبيهة جدًّا ببلدنا، وبتأسية ذاتي أن الذين يقودون عملية التغيير في تركيا هم من أبناء الإسلام الذين نهلوا من ديننا الذي بين أيدينا وتأسوا في الممارسة بالمنهج الذي تبعه أسلافنا العرب وهم من أوصلوا إلى الأتراك كل تلك الخيرات.

٥- كولن يُطلق: "هل مِن مُغيث؟!"

في اليوم الرابع جلسنا مع أحد مديري العمل الخيري والإغاثي، حيث بسط لنا الحديث عن جمعية "كِيمْسَ يُوكْمُو" وتعني بالعربية: "هل من مغيث؟!" وهي إحدى مؤسسات الخدمة ومن أكبر الجمعيات الخيرية في تركيا والشرق الأوسط، ومن أنشطتها على مستوى العالم، حيث ساهمت في تجسيد عالمية تيار الخدمة، ووصل نشاطها إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي ولاسيما في إفريقيا الفقيرة والمنكوبة، فقد أجرت هذه الجمعية -على سبيل المثال- آلاف العمليات الطبية في السودان، فأعادت البصر لثمانية آلاف سوداني كانوا قد أصيبوا بالعمى نتيجة أحد أمراض العيون الخطيرة.

وتعدى نشاط هذه الجمعية العالم الإسلامي إلى الدائرة الإنسانية، حيث حضرت في العديد من الكوارث، كما فعلت في زلزال "هَايِتِي" في أمريكا اللاتينية، وزلزال "اليَابَان"، حيث مازالت تبني الآن مدرسة في إحدى المناطق المنكوبة هناك، ورغم رفض اليابان المساعدات الأجنبية ووضع شروط صعبة لقبولها فقد كانت جمعية "هل من مغيث؟!" على موعد مع الإنسان الياباني حيث تمارس الحوار بجانب الإغاثة. وذكر أنهم

في حوارهم مع بعض المسؤولين اليابانيين سمعوا بعض هؤلاء يقولون: "نحن اليابانيين من فرط ثقتنا بأنفسنا نسينا الله، فهذا الزلزال ذَكَّرَنا بالله!".

ولما كانت هذه الجمعية تنتمي إلى أرضية إسلامية، فإنها تفهم بالتأكيد حديث المصطفى ﷺ في هذا الشأن: "من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى قيام الساعة"، ولذلك فإن القائمين عليها يبدعون في ابتكار الأفكار والآليات التي تحقق المقاصد بالكفاءة الناجعة.

ومن البرامج المبتكرة التي تقدمها هذه الجمعية برنامج "الأسرة الشقيقة"، حيث تأخذ الجمعية أسرة غنية لزيارة أسرة فقيرة وتقنعها بتبنّي مطالبها ومعالجة كل مشاكلها مباشرة وبدون واسطة. وهناك آلاف الأسر مرتبطة ببعضها بهذه الطريقة.

وهناك مشروع "المتمسّكون بالحياة من جديد" لإكساب الفقراء حرفة مفيدة تساعدهم على إعالة أنفسهم ثم المساعدة في إعالة غيرهم، كالخياطة والمشاريع التجارية الصغيرة.

الجدير بالذكر أن المدارس التركية في العالم ولاسيما في البلدان الفقيرة تصبح كل واحدة منها نواة لعمل خيري معين، من خلال إعفاء الفقراء النابهين من الرسوم، وتقديم العون المادي لبعض الطلبة، وتقديم السكن الخيري لكثيرين، ثم تقديم كل أشكال العون والدعم في الأعياد والمناسبات كالذبائح والكسوة في عيدي الأضحى والفطر، والمساهمة في جهود الإغاثة والإيواء أثناء الحروب والكوارث، كما حدث في الفيليبين وأفغانستان وقرغيزيا.

ولهذا فإن المساعدات التي تقدمها هذه الجمعية العالمية نوعان، آنية: كأعمال الإغاثة؛ ومستمرة: كبناء المدارس والمستشفيات والمستوصفات

والمساجد وحفر الآبار وغيرها، مع إيلاء جهود مميزة لمحاربة الفقر وتحويل العاطلين إلى منتجين، كما أشرنا سابقًا.

٦- عولمة الحوار

من الأمور التي يوليها تيار الخدمة اهتمامًا خاصة ورعاية فائقة الاهتمام بإشاعة ثقافة الحوار وإيجاد المؤسسات المتبنية للحوار بين المختلفين حزبيًّا ومذهبيًّا وفكريًّا ودينيًّا فقد رأى كولن بتشريحه لمشاكل تركيا أن الفُرقة من أهمّها، بسبب غياب ثقافة الحوار وادعاء كل طرف أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، وعلى مستوى العالم رأى أن العولمة -عكس ما يقال عنها- ستؤدّي إلى إيقاظ القوميات والوطنيات والمشاعر الدينية في كل العالم، ولهذا لا بد من الحوار، حتى لا يتحول التعدد إلى تناقض وتنابذ.

وقد خصصت الورشة جلسة لهذا الموضوع تحدث فيها علمان من أعلام الحوار في التيار:

- الأول: مصطفى يَشِيل: وتحدثت ورقته عن "الحوار البيني في تركيا". وهو رئيس وقف الصحفيين والكتاب. هذا الوقف هو المؤسسة الأولى المهتمّة بالحوار، وتأسس عام ١٩٩٤م على يد كولن مع ١٧ من المفكرين، ليصبح رئيسه الفخري.

كنت قد زرت هذا الوقف في مايو من العام الماضي (٢٠١٠م)، وكانت لنا جلسة مع أ. مصطفى، وأخبرنا أن هذا الوقف تتبعه سبعة منتديات حوارية متخصصة داخليًّا وخارجيًّا.

وقد زرته في يوليو من هذا العام (٢٠١١)، واستمعت إلى ورقة رئيسه، حيث صارت المنتديات التابعة له تسعة، أولها وأهمها: منتدى أبَنْت

للأكاديميين، وقد عقد حتى الآن ٢٤ مؤتمرًا دوليًّا، وله سمعة ممتازة في تركيا بين سائر الأوساط، حتى أنه لا يوجد إعلامي لا يتواصل معه كما أفاد أ. مصطفى، بما فيهم عتاة العلمانيين الذين كف أكثرهم عن مهاجمة كولن وأبناء الخدمة بسبب هذا المنتدى وجلسات وندوات ومؤتمرات الحوار التي أقامها لمناقشة سائر القضايا التي تثير الجدل وسط الأتراك. وهناك منتدى خاص بالحوار مع الإسلاميين الأتراك والأقليات داخل تركيا. ومن أهم هذه المنتديات منتدى "ديالُوج أَوْراسيا" ويضم ١٤ دولة آسيوية وأوربية وله مكاتب في هذه الدول، ويتولى قيادته كل عام شخص من هذه الدول بطريقة دورية، ويصدر مجلتين بالتركية والروسية.

وهناك منتدى مركز الدراسات والبحوث، ويختص بالدراسات المرتبطة بالحركة وتوفير المواد المصورة حولها. ويؤرشف لكل ما كتب عن كولن والخدمة وله برامج عدة، من أهمها: أسلمة المعرفة، كيف يقرأ كولن القرآن؟ وهناك منتديات خاصة بالإعلاميين وبالمرأة، يناقش كل واحد منها القضايا ذات الاهتمام وسط هذه القطاعات أو المهن.

هذه المنتديات تنتظم تحت راية "وقف الصحفيين والكتاب" ولقياداته لقاءات مع مؤسسات حوارية دولية ثنائيًّا وجماعيًّا، كما فعلوا في مايو ٢٠١١م عندما نظموا مؤتمرًا في إسطنبول استدعوا له رموزًا حوارية من ١٨٠ دولة في العالم.

وتقيم هذه المنتديات أنشطة كثيرة جدًّا لدعم فكرة الحوار، كالمؤتمرات القرآنية، والحفلات التكريمية، والمعارض، والرحلات من وإلى تركيا، والزيارات، والمهرجانات، والمسابقات، والملتقيات، وساعات الشاي، وبرامج تليفزيونية وأولمبياد التآلف والمسابقات.

• الآخر: د. أحمد كوروجان: وهو ناسط في موضوع الحوار في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد زاد دهشتنا بورقته التي سلطت الضوء على بعض المناشط الحوارية التي يتبنّاها أبناء الخدمة في أمريكا وتجربة العيش المشترك، حيث أوضح أنهم يمتلكون قنوات ومدارس ومراكز بحث وجمعيات إغاثة كلها تخدم هذا الهدف بجانب مراكز الحوار المتخصصة.

وأوضح أن هذه المؤسسات تمتلك في أمريكا ١٣٠ نشاطًا، منها: المؤتمرات الدولية، والإفطارات، والزيارات إلى تركيا لحضور الكثير من الفعاليات على الطبيعة بما فيها حفلات الحناء. وكذا الجوائز، والمسابقات، وقراءة الكتب، ومدرسة الحوار، والجمعيات الدينية والخيرية، والحفلات، والندوات، والمحاضرات، والمناظرات.

مسك الخدمة

ولما كان العمود الفقري لكل هذه الأنشطة الاجتماعية والتربوية والصحية والثقافية هو المال، فإن رجال المال والأعمال هم أبطال الخدمة، وكانت الجلسة الأخيرة في هذه الورشة عن الممارسة الاقتصادية في الخدمة قدمها رئيس اتحاد جمعيات رجال الأعمال والصناعيين الأتراك المشهورة بـ"توسكون" رضا نور ميرال.

وقد بدأ بعرض فيديو قوي عن "توسكون" وهي أكبر جمعية من نوعها تضم ٥٠ ألفًا من رجال الأعمال والصناعة ويديرون مائة ألف شركة، بعضها الأولى في تركيا في مجال عملها.

تأسست هذه الجمعية عام ١٩٩٢م باتحاد عدد من الجمعيات من مدن

تركية عدة، وظلت تنمو حتى أصبحت الأولى والأهم في تركيا، حيث تضم ١٦٠ جمعية في ٨٠ مدينة تركية، ولها أنشطة في ١٤٠ دولة في العالم، وهي الجمعية الأجنبية الوحيدة المعترف بها رسميًّا في الصين.

وتستضيف توسكون آلاف التجار سنويًّا في تركيا من أنحاء العالم (١١ ألف تاجر ٢٠١٠م) ولها أنشطة تربوية وتدريبية كثيرة، حيث أقامت ١٥٠٠ نشاطًا شارك فيها ١٦٠ ألف شخص، وتبنّت العديد من البرامج مثل "جسور التجارة" التي تربط آلاف التجار الأتراك بعشرات الآلاف من التجار في أنحاء العالم.

وتتولى توسكون استضافة عشرات الرؤساء من كل أنحاء العالم في تركيا، والترتيب لزيارات الرؤساء الأتراك إلى كافة بلدان العالم. وقبل هذا وبعده فإنها تقدم الخبرات والمشورات والنصائح لأعضائها التجار بما يحقق الأرباح لهم والفائدة العامة للمجتمع في ظل التواؤم مع القيم الإسلامية.

ويتسابق هؤلاء على تبنّي مشاريع الخدمة في سائر دول العالم، من خلال مجالس الهمة التي يتنافسون فيها على الإنفاق.

وكانت لنا في الليلة التي قبلها جلسة مع عدد من التجار الذين يسمونهم بـ"الأصناف" ممن يتبنون مشاريع الخدمة "حوالي ثمانية تجار"، وكانت لنا نقاشات معهم، أوضحت لنا مدى تفانيهم في الخدمة وتنافسهم على حب كولن، حيث تتلمذ الجميع على يديه وأحبوه حتى الثمالة، حتى أن أحدهم وهو يتحدث عنه لم يستطع التحكم بعاطفته فبكى ثم حاول العودة إلى الكلمة، وبعد كلمات قليلة انفجر باكيًا ولم يستطع المواصلة فأعطى الميكروفون لزميله.

الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء يمتلكون مجموعات تجارية ضخمة،

بحيث يحتلّون المركز الأولى في تركيا، وأخبرنا أحدهم أن مجموعته التجارية والصناعية تضم حوالي عشرين ألف موظف.

ويركز هؤلاء في خدمتهم داخل تركيا وخارجها بشكل خاص على المشاريع التربوية، لأنها الطريق لإيجاد الإنسان الجديد وتغيير العالم كما وجههم لذلك كولن بعد أن كان الإنفاق الديني عندهم محصورًا على بناء المساجد وتوقيف مغاسل للموتى.

وقد أجمع هؤلاء التجار على أن أستاذهم كولن هو مَن علّمهم أن أفضل استثمار هو الإنسان، وأن الزكاة ليست ٢,٥٪ من المال وإنما نصف المال أو ثلثاه أو ثلثه، وهكذا، وأن الإنفاق ينمّي المال. وذكر بعضهم قصصًا لتجار منهم بدؤوا بعربة أو محل صغير وأصبحوا بعد سنوات من كبار التجار.

ونتيجة للنماذج التي قدمها هؤلاء ذهب بعض المفكرين العرب إلى أن هؤلاء يذكرونهم بالصحابة الكرام، وقد أدركتُ بدوري أن جمع كولن بين القلب والعقل وبروز البعد العملي في شخصيته هو العامل الأساس في تحويل إيمان هؤلاء إلى أعمال صالحة ومؤسسات خدمية، فصاروا يعيشون الإسلام في حين مازال الطابع الغالب على التدين العربي المعاصر يتركز حول التدين اللاهوتي والحديث عن الإسلام.

أختم هذه الومضات بدعوة قادة الحركة الإسلامية في العالم الإسلامي عموما وفي اليمن خصوصًا للذهاب إلى تركيا للاطلاع على تلك التجربة الثرية عن كثب والاستفادة منها، ولو كانت لي قدرة مالية لأخذتُ هؤلاء على حسابي الخاص، لأن الرائي ليس كمن سمع.

لِنَجْـمِ الدُّعَـاةِ

فؤاد البنا

لنجـم الدعـاةِ محمـد كُولـنْ ترانيـمُ عشـقٍ بـأرضِ اليمـنْ
بنكـرانِ ذاتٍ شـذا عطـرُهُ وشـوقُ اليمانيـن صـارَ سَـكَنْ

دموعُـهُ حـرَّى تُذيـبُ الصخـور فتبنـي قصـورًا وتسـقي فَنَـنْ
كُولـنْ: باسـمٌ ضاحـكٌ باسْـمِهِ وأفعالُـهُ ظُلّلـت بالحَـزَنْ

حزيـنٌ لمـا صـار فـي أمـةٍ عَلاهـا الطغـاةُ عَراهـا الوهـنْ
بـأرضِ الربـاط لهـا حسـرةٌ وفـي كل صقْـعٍ تَمـورُ الفتـنْ

فأجـرى بأنهـار دمـعٍ سُـفنْ تشـقُ الـدروبَ تخـطُّ السُـنَنْ
بنفـث اليـراعِ وزهـرِ الرُّبـا بعشـق القلوب وفيض الشـجنْ

بنى أنجمًا من شـموس الرسـولْ تُشـعُ ضيـاءً وتجلـو الفتـنْ
دمـوعُ المآقـي تفيـض سـنًا ومـن لَوعِـهِ سـال دمـعُ الوجنْ

بصيـفِ الجَـوَى غيمُـهُ ماطـرٌ يفيـضُ حيـاةً بـأرضِ الدِّمـنْ
ترَقْـرَقَ كوثـرُهُ كالفـراتْ خمائلُـه تكسـو وجـهَ الزمـنْ

بليـل الـورى نجمُـهُ ثاقـبٌ ينيـر الشـموع ويُذكـي الفطـنْ
فطوبـى لشـعبٍ هـو بـدرُهُ وحُسـنُ مـآبٍ لـروحِ البـدنْ

عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"

الأستاذ محمد فتح الله كولن، شَرَّحَ الداء وشرَحَ له الدواء المستخرج من صيدلية القرآن والممزوج بعناصر دقيقة من قراءته الموسوعية المستبصرة للواقع.

وكان جوهر هذا الدواء هو العمل التربوي المازج بين محكمات الوحي ومعطيات الواقع، فوفَّقه الله للتوصل إلى الإكسير الذي يُمكِّنه من إعادة الشباب والنضارة إلى هذه الأمّة.

ومن الأفراد الذين استحياهم هذا الإكسير، كوَّن كولن كتائب الخدمة التربوية، حيث انتشرت بلطفٍ كالْجانّ، وتكاثرت بهدوءٍ كالمرجان، حتى استوعبت أنحاء تركيا وكثيرًا من المناطق في أكثر من مائة وستّين دولة في العالم.

وكانت المواجهات الفكرية التربوية بين المنظومتين أشبه بمعارك بَدْرية كما يُشبِّهها كولن، غير أن قطرة دم واحدة لم تُسفك فيها. ورغم كل شيء فقد تحقّقت انتصارات كبيرة وعظيمة، وأثبتت السنوات والحوادث أن كتائب الـ"فتح" التربوي عندما تتحرك فيومئذ يخسر المبطلون.

ISBN 978-975-315-485-7
9 789753 154857
www.daralnile.com
Hikmetten Hizmete Fethullah Gülen

دار النيل